

## البَابُ السَّابِعُ

الإِسْمَاعِيلِيَّةُ



## الفصل الأول

### الإسماعيلية الأولى

كانت الإسماعيلية هي المنحى الأكبر الخطير للشيعة الإمامية ، وإحدى الضربات القاصمة التي وجهت للمذهب الإمامي المتطور إلى اثني عشرى . حقاً إن الإسماعيلية كانت تجد مادتها من الأتباع من شيعة الاثني عشرية ، الذين كانوا يفضلون إماماً حياً ذا حجج ودعاة ويعمل للدنيا من إمام محق في سرداب ، ينتظرون قيامه بدون أمل كبير ، كما كانوا يفضلون عقائده السرية ونظامه الغنوصي أكثر من عقيدة في معظمها ظاهرية ، تقترب في عباداتها وطقوسها من عقائد أعدائهم اللد : أهل السنة والجماعة .

ولقد تعددت الأقوال في الإسماعيلية ، أصلها ومنشأ أئمتها وحججها ، دعائها وجزائرها - إاداتكلمنا بالأسلوب الإسماعيلي ، هل هي دعوة إسلامية تدخل في نحل المسلمين وفرقهم ؟ أم هي ملة جديدة انفصلت عن الإسلام نهائياً ، وكونت ديناً جديداً ؟ .

وإذا كانت الكيسانية - شيعة محمد بن الحنفية القديمة - قد أنشأت دولة - هي الدولة العباسية - مستندة على أحقية رجل من بني هاشم في الخلافة - هو العباس بن عبد المطلب وإذا كانت الزيدية - قد أنشأت دولة - هي دولة الزيود - في اليمن - مستندة على أحقية أئمة زريدين ينتسبون إلى أولاد الحسن فإن الإسماعيلية أنشأت - خلال جهاد ودعوة صابرة مريرة - دولة الفواطم في مصر ، مستندة إن حقاً وإن باطلاً على أئمة ينتسبون إلى فاطمة الزهراء . أما الشيعة الاثني عشرية فلم تنشئ دولة قام بها أحد أئمتهم ، لأن الإمام الأخير انتهى عقبه ، أو اختفى ليعود في آخر الزمان .

وإذا كان المذهب الإمامي يعلن أنه ينبثق من جعفر الصادق ، وينتسب إليه ، والمذهب الاثني عشرى يعلن - إن حقاً وإن باطلاً - أنه صدر من الإمام والأئمة من قبله ، والأئمة من بعده ، عن لسانهم وبشروا به في آثارهم ، فإن الإسماعيلية - ناقضة لكل هذا - تستند أيضاً على هذا الإمام جعفر الصادق ، معلنة أنه هو الذى أنشأ الدعوة الإسماعيلية ونظمها ووضع أصولها وأن سياسته البعيدة المرمى هي التي مكنت لها النجاح الكامل في اليمن وفي المغرب ثم في مصر .

ولكى تفهم العلل التي أدت إلى قيام الإسماعيلية ، علينا أن نعرض في إيجاز للخطوط الرئيسية ، وهي التي تكلمنا عنها من قبل ، للحركات الشيعية حول جعفر الصادق ، وفي صدر الدولة العباسية . كانت الشيعة الحسينية تحارب بعنف بالغ الدولة العباسية ، وقد سقطت صرعى لضربات المنصور وخلفائه من بعده في المدينة والبصرة وفخ وغيرها ، وقد صدقت فراسة جعفر الصادق في إيمانه بأن حركة الحسينين تنتهي إلى كارثة مدمرة لهم ، ولا شك أن أتباع الحسينين أو الكثيرين منهم عادوا إلى حظيرته ، وفر البعض منهم إلى اليمن وغيرها وأنشأوا دويلات زيدية . أما الشيعة الكيسانية ، فقد رأينا كيف كونت هي في مجموعها الراوندية ، وانفصلت الراوندية نهائياً عن البيت العلوي ، ولكن بقيت من الكيسانية بقية كبيرة تؤمن بإمامة محمد بن الحنفية . وكانت مجالاً لغنوص كبير . وسرى أنه بعد فشل ثورات الكيسانية المتعددة أنهم عادوا إلى سواد الكوفة ، وعاشوا فيها ، وظهر منهم حمدان قرمط ، وسيكون أكبر عون للحركة الإسماعيلية <sup>(١)</sup> ، مدة من الزمن ثم ينقلب عليها ويعود لعقيدة الكيسانية .

ويجانب هؤلاء جميعاً من حسنية وراوندية وأبي هاشمية وأبي مسلمية ظهرت الخطائية متعلقة بأذيال الإمام العظيم نفسه .

وفي هذا المعترك العنيف كان جعفر الصادق « نسل النبوة العظيم ، وعلى هدى أسلافه الأطهار ، قابضاً على كتاب الله وسنة رسول الله ، يؤدي رسالته الروحية للمسلمين جميعاً ولشيعة على وجه الخصوص ، عاملاً بكل جهده على تنقية عقيدة مريديه وأتباعه من أي مذهب خارج عن الإسلام » محارباً للغنوص في جميع مظاهره ؛ ومجالداً أشد وأشد للطمع الدنيوي في نفوس كثيرين من الحسينيين والزويديين ، كان جعفر الصادق يمثل الأسرة النبوية أعظم تمثيل ، ويضرب المثل الأعلى لما يكون عليه الأثر الباقي لعرة رسول الله وابن فاطمة الزهراء ، فنأى بنفسه عن خلاقات الدنيا ، مدعماً فقط لإمامته الروحية للمسلمين بل إن عدوه اللدود أبا جعفر المنصور يقول حين بلغه موت الإمام : إن جعفرًا كان ممن قال الله فيه « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات <sup>(٢)</sup> .

ولكن الرجل كان يعاني أزمة داخلية تمس أشد المماس حياته كأب وكإمام للمسلمين في الآن عينه . كان الإمام جعفر يعد ابنه الأكبر إسماعيل - وكان يعرف بإسماعيل الأعرج - للإمامة الروحية

(١) الذكوران حسن إبراهيم ، وطه شرف : عيد الله المهدى ص ٢٣ .

(٢) البغوتى : تاريخ . ج ٣ ص ١١٧ .

للمسلمين من بعده ، وكان الإمام يحب ابنه حباً جما ، كما يحب الرجل ابنه الأكبر .  
وقد وردت بعض الأخبار التاريخية أن إسماعيل اتصل بالغلاة ، وبخاصة الخطابية أو أن الغلاة  
اتصلوا به ، وقد وردت بعض الروايات أيضاً أن إسماعيل شرب الخمر ، فأسقط أبوه إمامته في حياته .  
أما أنه اتصل بالغلاة ، ليعد الأمر لنفسه ولأولاده من بعده . فأننا أشك كل الشك في هذا ، فإن محبة  
الإمام لإسماعيل وحده عليه وجزعه لوفاة يدل دلالة واضحة على أن الابن كان بريئاً مما اتهم به بعد  
من غلو ، أو بما ألصقه به بعض المتأخرين من تهمة شرب الخمر ، حتى يحلوا لأنفسهم هذا الشرب  
بدعوى أن الإمام وأتباعه لا يخضعون للتكاليف الشرعية . وقد نسب إلى إسماعيل مزاملته وصداقته  
للمفضل بن عمر الجعفي الصيرفي ، وأورد الكشي أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل بن عمر  
الجعفي الصيرفي ، وأورد الكشي أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل لابنه إسماعيل وأنه قال له :  
يا كافر يا مشرك - مالك ولا بني - تريد أن تقتله<sup>(١)</sup> . ولاشك في هذا فقد كان المفضل الصيرفي من  
أجل أصحاب الصادق ، ثم تابع أبا الخطاب وكون فرقة . ولكن ما لبث أن تحول إلى موسى الكاظم  
وخدمه . وكتب كتاب توحيد المفضل . وهو من أحسن من كتب في الرد على الدهرية<sup>(٢)</sup>

ويبدو أن الغلاة اتصلوا بإسماعيل ، وذلك حين غضب عليه أبوه ، وأنهم حاولوا التأثير فيه وجذبه  
إلى صفوفهم وكان إسماعيل في ميعة الصبا ، وكما خدع فيهم أبوه من قبل ، خدع أيضاً ، فلما تدخل  
أبوه ، خلص منهم ، وعاد إلى رحابه كاملاً ، أما قصة شربه الخمر ، فهي قصة متهافة . وقد أورد  
بعض كتاب الإمامية القصة للقدح في أحقية إسماعيل للإمامية . ووردت على هذه الصورة الآتية قال  
عنبسة الناومسي : «كنت مع جعفر بن محمد صلوات الله عليهما ، في باب الخليفة أبي جعفر بالحيرة  
حين أتى ببسام - وكان غالباً - وإسماعيل بن جعفر بن محمد فأدخلوا على أبي جعفر ، فأخرج بسام  
مقتولاً ، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد ، فرفع جعفر رأسه إليه وقال . أفلعتها يا فاسق ؟ أبشر  
بالنار ! » ووضح تماماً أن القصة موضوعة ، فلم يكن أبو جعفر المنصور من الكرم النفسى مع جعفر  
الصادق ، بحيث لا يهتبل تلك الفرصة النادرة ، ويقتل إسماعيل باسم الشريعة ، وبخاصة أنه أتى به  
إليه في صحبة غال زنديق . وكان جعفر الصادق «شجاعاً» في خلق المنصور على حد تعبيره هو ، يتخوف  
منه الخوائف ويتربص به الدوائر .

أما الإمامية الاثنا عشرية في مجموعها فقد اعتبرته رجلاً صالحاً «وكان من أصحاب الإمام  
الصادق عليه السلام» أي ممن أخذ عنه ، وكان أبوه شديد المحبة والبر به . وترى أن البعض من أتباع

(١) الكشي : ٢٠٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٣ والبيدادي : الفرق ص ٢٣٦ .

الإمام كانوا يعتقدون في حياة أبيه «أنه القائم بعده والخليفة له دائماً . فلما مات في حياة أبيه ، حزن الإمام حزناً شديداً» وتقدم إلى سريرته بغير حذاء ولا رداء» ثم لما حمل إلى البقيع أمر أبوه مراراً أن يوضع نعشه على الأرض . قبل دفنه - حتى يتحقق الناس من وفاته ، ويقطع الطريق على من ظنوا خلاف ذلك (١) .

وكان جعفرأ خشي أن ينقص الأمر بعد علي ابنه موسى أو أن يقول بعض الناس بمهدية إسماعيل ، وكانت الفكرة متشرة والغلو ذائعاً . ولكن لم يمنع ما فعله جعفر من أن تقوم الإسماعيلية «الخالصة» على حد تعبير النوبختي . فكان إسماعيل لديهم الإمام السابع .

وقد عللوا هذا بأنه ابن الصادق الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر وأن أمه فاطمة بنت الحسين ابن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فهي فاطمة علوية أيضاً . ولم يتزوج الإمام جعفر الصادق على أمه بواحدة من النساء - ولا تسرى عليها ، كسنة رسول الله ﷺ في خديجة ، وكسنة علي في فاطمة . أما عن موته فقد اختلفت الإسماعيلية الأولى ، فالبعض منهم أقر بموته . إنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة ، كما نص موسى على هارون ، ثم مات هارون في حياة أخيه . فانتقلت الوصاية بعد موت موسى إلى أولاد هارون ، فنص عليه لكي تكون لأولاده «فإن النص لا يرجع قهقري (٢)» والقول بالبداء محال . وأورد الإسماعيلية قول الصادق «إن البداء والمشيئة لله إلى كل شيء إلا في الإمام (٣)» ثم إن الإمام لا ينص على واحد من ولده إلا بالسماح من آبائه ، والتعين لا يجوز على الإبهام والجهالة . والإمامية لا تنتقل من أخ لأخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا في الأعقاب ولم يكن لأخوي إسماعيل ، عبد الله وموسى حق في الإمامة كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين (٤) .

أما من قالوا بأنه لم يموت ، فإنهم عللوا هذا بأن جعفرأ الصادق أظهر موته تقية عليه ، حتى لا يقصده أبو جعفر المنصور بالقتل . وأنه قال «لوجاءكم أحد بدماع ابني هذا «إسماعيل» فلا تشكوا أنه الإمام من بعدى» وكان يقول : «هذا هو الإمام من بعدى . فما أخذتموه عنه ، فهو عني» (٥) وأنه فتح عينيه وحركها وهو على فراش الموت ، وأن إسماعيل رأى بالبصرة عام ١٥١ ومروا على مقعد ، فدعا له ، فشفاه بإذن الله . وهم ينسبون له معجزات المسيح «ويرى الإسماعيليون فيما بعد أنه قد فعل

(١) النوبختي : الشيعة ص ٦٧ هامش (٢) .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣٣٠-٣٣١ .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .

(٤) النوبختي : الشيعة ص ٦٨-٦٩ .

(٥) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .

هذا إعجازاً للخلائق ؛ بظهور القدرة من الله تعالى وبقاء الكلمة في عقبه الطاهرين من بيته لأن تم الحكمة ، وتتصل إلى الخلاق رحمة وتكمل الحجة ، وتم النعمة « فنسبوا إليه إذن الغيبة - غيب شخصه في حياة أبيه سراً من أعدائه ومحنة لأوليائه » (١) .

ولما رفع إلى المنصور بأن إسماعيل مازال حياً ، أرسل إلى جعفر الصادق يخبره أن إسماعيل في الأحياء ، وأنكر جعفر هذا ، وأنفذ السجل إليه ، وعليه شهادة عامله أى عامل المنصور على المدينة . ويتساءل الإسماعيلية ما السبب في الإشهاد على موته ، وكذب المخضر عليه ، ولم نعهد ميتاً سجل على موته » (٢) .

ويريد الإسماعيلية بهذا أن جعفرأ فعله تقية ، حتى لا يعرض ابنه للقتل . وفي الحق أن جعفرأ فعل هذا خوفاً من ادعاء الغلاة بغيبته ورجعته . لا خوفاً عليه من المنصور .

وسرعان ما نادى قوم - من خواص إسماعيل بالمدينة - بعد وفاة الإمام جعفر بمهديته (٣) ، وبخاصة أن ابنه الأكبر - عبد الله الأفطح - لم يكن على علم وفقه ، ثم توفي بعد سبعين يوماً من وفاة الإمام ، وتحولت جواهر الشيعة إلى موسى الابن الأصغر الذي عرف باسم الكاظم ، هنا ظهر المبارك - خادم إسماعيل - والمبارك شخصية غامضة - قيل إنه حجازي - وأنه كان خادماً لمحمد بن إسماعيل . وأنه كان يجيد نوعاً من الخط انتشر في هذه الأيام يسمى مكرمط . ولذلك عرف باسم قمرطوبه . وسنجد حين بحثنا للقرامطة أن هذا خطأ . وأن قمرطوبه شخص آخر من أتباع المبارك . وقيل إنه كوفي ومن المحتمل أن يكون هو محمد بن إسماعيل . وعلى أية حال فقد ظهرت المباركية وهي الفرقة الأولى الموسومة باسم الإسماعيلية ، ومن الواضح أنها ليست فرقة غالبية والبغدادى يذكرها من بين فرق الشيعة غير الغالية ويقول إن المباركية تريد الإمامة في ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر كدعوى الباطنية فيه . ويبدو أن الرجل - إن صح وجوده - كان خادماً مخلصاً لإسماعيل وكان يحبه ، كما كان يحب ابنه محمداً . فلما مات الإمام جعفر عمل على تثبيت الإمامة لابن سيده - محمد - ، ومن المحتمل أنه اتصل بالغلاة بالكوفة ، وبخاصة أنه كان كوفياً ليقوى الدعوة الجديدة . وقد بقيت اسم المباركية في التاريخ ، مختلطة أحياناً باسم الإسماعيلية الحديثة وأحياناً أخرى باسم الباطنية . وما زال للمباركية أنصارها في سلطان بوهر الحالى وأتباعه الإسماعيلية ، وهم يسمون أحياناً بالمباركية .

والاسم الثانى الذى يختلط باسم منشئ الإسماعيلية هو اسم أبى الخطاب الأسدى . وقد رأينا من

(١) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٤٩ .

(٢) الشهرستاني : الملل .. ج ١ ص ٣٣١ .

(٣) القمى : كتاب المقالات ص ٨١ .

قبل أن أبا الخطاب لقب بكنية أبي إسماعيل ، وفي هذا دليل على الصلة بين أبي الخطاب وإسماعيل ، وأن تلقيه بهذه الكنية - إنما معناه أن الخطابية أصل للإسماعيلية ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن أبا الخطاب - في الفترة الثانية من حياته ، وبعد تبرؤ الإمام جعفر منه ، وتبرؤ إسماعيل أيضاً - قد نقل الإمامة إلى نفسه كما يقول ماسينيون باعتبار أن الاختيار الإلهي بالتنبي الروحي هو وحده المعبر . قد تكون فكرة التنبي الروحي الخطابية ملهمة للقداحية - فيما بعد - حيناً سلبوا - في رأى أغلب مفكرى أهل السنة - آل محمد - الإمامة أو النبوة والألوهية ونسبوا إلى أنفسهم ، ولكنها لم تكن أبداً في هذا الوقت المبكر سندا لفكرة الإسماعيلية ، ولا شك أن الكثير من أصول الخطابية قد دخلت في عقائد الإسماعيلية فيما بعد ، ولكن تم هذا بعد مقتل أبي الخطاب ، واعتناق كثير من أتباعه للإسماعيلية في عهد عبد الله بن ميمون القداح . وقد لاحظ ماسينيون أننا نستطيع أن نربط بين فكرة السين عند أبي الخطاب الأسدي وبين فهم الإسماعيلية للدور الذي قام به سلمان حين حمل القرآن كله إلى محمد . فأبو الخطاب - عند ماسينيون - هو أول من فهم دور السين - دور سلمان - حين حاول أن يحققه في نفسه .

ثم أنت الإسماعيلية وفهمت نفس هذا الدور . والإسماعيلية مسلمون يؤمنون بالوحي على نحو خاص فيه يستبدل بإملاء ملك حتى تعليمياً ينتقل من نفس إلى نفس ، نقله بأمر الله إلى النبي صاحبه سلمان ، فسلمان هو الملك جبريل ، وهو الاسم الذي أطلق على سلمان باعتباره حامل الرسالة الإلهية . فهو إذن سبب الشد والتلقين <sup>(١)</sup> .

وقد قلت من قبل إن هذا هو تفسير ماسينيون لموقف أبي الخطاب أولاً ، ثم لاعتباره ثانياً سلفاً للإسماعيلية ، أو مؤسساً لها . ولكنه لا يصور الواقع أبداً .

إن الوضع الحقيقي للمسألة أن الخطابية بعد مقتل رئيسها توزعت . دخل البعض في طائفة الخناقين ، ودخل البعض الثاني في الكيسانية ، ودخل البعض الثالث في الإسماعيلية أو الإثتمام بإمامة محمد بن إسماعيل . ولعل البعض الثالث هذا كان أكثر الخطابية .

ولذلك نرى أبا خلف القمي يقول « فأما الإسماعيلية فهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب بن أبي زينب الأسدي الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة في فرقة محمد بن إسماعيل ، وأقروا بموت إسماعيل ابن جعفر » <sup>(٢)</sup> .

ولكن انتشار الدعوة لإسماعيل ثم لابنه إنما بدأت على يد مولى لجعفر الصادق هو ميمون القداح

(١) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٣٣ (ترجمة عبد الرحمن بدوي) .

(٢) القمي : كتاب المغالات ص ٨١ ، والنرجسي : فرق الشيعة ص ٦٩ .



وابنه عبد الله بن ميمون وذهبت بعض المصادر إلى أنها كانتا تلميذتين لأبي الخطاب . وهذا محتمل ؛ ولكن يبدو أن صلتهما به قد انقطعت حين تبرا منه الإمام جعفر . وقد اتهمت دوائر أهل السنة والجماعة الاثنين بأنها ديصانيان ، وأن ميمونا هو ابن ديصان بن سعيد غضبان ، وقيل إنها يهوديان ، وأنها أنشأ المذهب الإسماعيلي للقضاء على الإسلام . وهذا خطأ كبير فيموتون القداح كان مولى للباقر وجعفر الصادق ، ووثق به الإمام الأخير ، وكان من رواة حديثه ، ويدو أنه اختص بإسماعيل وأحبه ، ثم اختص بابنه محمد بن إسماعيل .

وبدو أن ميمونا - وقد عاش في هذا الوسط العلمي وتلمذ على شيخى المذهب الإمامين الكبيرين الباقر والصادق - كان على علم نفاذ وحنكة سياسية ، وأخذ يتقل مع إمامه محمد بن إسماعيل إلى طبرستان وغيرها متخذاً نفسه حجة له ، وقد قبض المنصور في أواخر أيامه على ميمون وسجنه ، وفي السجن اجتمع مع جماعة من وجوه الشيعة ، واتفقوا على نشر المذهب بعد خروجهم من السجن (١) . ويقول ابن الأثير : إنهم تفرقوا في البلاد ، وتعلموا الشعبة والسحر والنجوم والكيمياء فهم يحتلون على كل قوم بما يتفق عليهم ، ويخدعون العامة بإظهار الزهد والتشف .

وخرج ميمون من السجن واجتمع بإمامه محمد بن إسماعيل مرة ثانية منتقلاً معه من مكان إلى مكان ، ويقال إنه ذهب إلى فلسطين ، وهناك أظهر النك والتعب ، ثم قصد إلى سورية وطبرستان ، وقيل أيضاً إنها ذهبا إلى بلاد الروم (٢) ، وقد نشأت فكرة غيبة محمد بن إسماعيل هناك . وفي كل مكان كان يجمع حوله فلول المباركية والخطائية والجعفرية ، وبعد العدة للمذهب الجديد .

ويذكر المؤرخون السنيون أن له كتاب «الميزان» وأنه كتب هذا الكتاب في نصرة الزندقة . وهذا مستبعد جداً فلم يكن الرجل زنديقاً أو ديصانياً ، في أول أمره على الأقل . بل كان أولاً - وبالذات - من محبي ومتشيحي إسماعيل بن جعفر وابنه ثم من المحتمل - وقد كان الرجل عارفاً بالمذاهب الفلسفية والغنوصية والأديان - أنه كان يحاول تدعيم إمامة إسماعيل وابنه بمختلف العناصر الفلسفية وبخاصة أنه تلمذ مدة على أبي الخطاب . وإن كنا نلاحظ أن الإمام جعفر الصادق لم يتبرا منه في حياته بل كان يثق فيه ، وقد جعله قيماً على حفيده ، وكان أيضاً من رواة ورواة أبيه ، ولم يرد عن جعفر الصادق حتى موته ما يقدر فيه ، كل هذا يجعلنا نتوقف كثيراً في الحكم على الرجل بالزندقة أو بالديصانية . من المحتمل أن يكون الكتاب في التأويل الباطني ، وأنه أخذ يؤول الآيات القرآنية بما يتفق مع عقيدته في إمامة إسماعيل وابنه محمد . وأن يسبق عليها القداسة التي أضفتها الإمامية على أئمتها ، وأنه تعالى إلى

(١) البخداي : الفرق ص ١٦٩ .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم ، والدكتور طه شرف : عبيد الله المهدي ص ٤٨ .

حد كبير في فضائل هذين الإمامين . والغلو في الأئمة خروج على الإسلام فعلاً - نصه وروحه - ولكنه يختلف عن الديصانية الخالصة أو الزندقة الخالصة ، وإن كان هذا النوع من الغلو أشد خطراً على الإسلام ووحدته من كل ثنوى سافر .

وأخيراً . إلى من كان ينتسب ميمون ؟ . . ذكر بعض الباحثين أن ميموناً كان مولى لجعفر الصادق ، وأنه كان يسمى ميموناً القداح المكي ، وأحياناً ينسب إلى الأهواز فيقال له الأهوازي . وأحياناً ينتسب إلى عقيل بن أبي طالب ، أو إلى باهلة ومرة يعلن أنه من نسل سلمان الفارسي . أما كونه مكيّاً أو أهوازيّاً أو ينتسب ولاء إلى عقيل بن أبي طالب ، فمن السهولة بمكان تفسيره . أما ادعاؤه أنه من نسل سلمان الفارسي ، فقد ظن كثيرون من الباحثين أنه يدعى أنه من نسل الصحابي الكبير دماً . وهذا خطأ . إن ما يقصده ميمون أنه لصلته بالإمامين الباقر والصادق ثم بإسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل ولوصاية جعفر الصادق له أن يكون قيماً على حفيده محمد بن إسماعيل ، فهو من آل البيت ، كما قال رسول الله ﷺ لسلمان « أنت منا آل البيت » فهو من نسل سلمان الروحي ، وعلى مثال ونسقه ، ولم ينتبه ماسينيون إلى هذا ، ولعله إن فعل ، لوضعه في فرق السين ، غير أن ميموناً لم يعلن أنه حامل القرآن - كما ادعت الإسماعيلية فيما بعد ، ولا أنه سبب الشد والتلفين ، ولا أنه رسول أونى . وإنما أعلن أنه حجة الإمام محمد بن إسماعيل ونائبه ، وداعيه .

وأخيراً - إن الصورة التي قدمتها مختلف الفرق لميمون القداح : أنه كان محدثاً شيعياً عند الإمامية ، حجة ونائباً وستراً للإمام محمد بن إسماعيل عند الإسماعيلية ، ثنوّياً ديصانياً عند أهل السنة والجماعة . بل لقد ذهبوا إلى أن ميمون القداح هو أبو شاكر ميمون الديصاني . أما الصورة المتكاملة له : أنه كان محدثاً وراوياً ومولى لجعفر الصادق ، أحبه الإمام واحتضنه واعتبره من آل البيت ولاء ، كما فعل جعفر مع أبي الخطاب ثم إن ميموناً كان من تلامذة أبي الخطاب . وقد ارتبط ميمون بإسماعيل الابن الأكبر للإمام ، وكان للابن من الفضائل النفسية والروحية والعلمية ما جذب إليه مولى أبيه ، ثم جعله الإمام جعفر وصياً على حفيده ، ولما انتقل جعفر إلى جوار ربه ، نقل ميمون الإمامة لمحمد بن إسماعيل ، وبدأ ينشر الدعوة له ، ثم انتقل معه من مكان إلى مكان ، وأخذ يضع أصول الدعوة محتملاً السجن والاضطهاد والتشريد .

ومن الملاحظ أنه لم يتعرض لهجمات الإمامية كما تعرض أبو الخطاب الأسدي ، ولم يحاول الرجل تقويض دعائم الإسلام - كما ذهب مؤرخو العقائد الإسلامية من أهل السنة - فلم يعمل على وضع مذهب باطنى يخرج المسلم من إسلامه كلية ، إنما كان يضع المذهب الإسماعيلي ، وفي المذهب - وهو يكافح السلطان نواح باطنية بلا شك ، ولم يكن يرمى إلى سلخ المسلمين باطنياً من العقيدة الإسلامية

بل إلى سلخهم من عقيدتي أهل السنة والجماعة ومن عقيدة الإمامية . وقد لجأ إلى مسيح التأويل وكان محمد بن إسماعيل أيضاً من أئمة مذهب التأويل . ولعل كتابه الميزان إنما كان في التأويل القرآني . ومات ميمون بعد عام ١٩٨ هـ - فيما يرجح - أي بعد وفاة محمد بن إسماعيل وتذهب روايات أهل السنة إلى أن محمد بن إسماعيل مات بدون عقب ، وأن ميموناً القداح أدعى أن محمد والد ابنه هو عبد الله بن ميمون القداح . ومن الصعوبة بمكان أن نجزم بهذا .

وأخيراً - أن هذا القداح - والقداحة هي تطيب العين من الماء النازل بها ، وهو نوع من طب العيون انتشر في ذلك العصر - قد وضع البذرة الأولى لحركة من أكبر حركات التاريخ في العصور الوسطى - لعبت دورها العجيب على المسرح الإسلامي ، وأخذت صوراً مختلفة تغاير ما وضعها هذا القداح ، وتفرعت عنها المذاهب ، وتطورت وتغيرت .

ويحاول بعض الباحثين مثل مامور أن يثبت أن ميموناً القداح هو هو محمد بن إسماعيل . ويذهب إيفانوف إلى أن محمد بن إسماعيل كان يعرف باسمه السري « الميمون » ، وأحياناً بعبد الله بن الميمون <sup>(١)</sup> . ومن هنا خلط الباحثون السنيون بينه وبين ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون ، وظن الباحثون أن هذا الأخير هو جد الخلفاء الفاطميين . ولايفانوف أبحاث طويلة وكثيرة ومستفيضة ، وهو حجة في مسائل الإسماعيلية ولن نناقش نحن هنا كتبه وما فيها من آراء متعددة وبخاصة كتابيه: *The alleged of Ismailism* و *Rise Of The Fatimide* بل تؤخر هذا لفرصة أخرى غير أن أهم ما قدمه لنا إيفانوف في كتابه « المؤسس المزعوم للإسماعيلية » هي جملة الأحاديث التي رواها ميمون عن الباقر والصادق ، وهي تبين أنه كان خادماً أميناً للباقر يرحل معه في كل مكان ويستند عليه في سيره ، ثم صحب جعفر الصادق نفس الصحبة ، ثم إثباته أن اسم عبد الله بن ميمون ورد في كتب أهل السنة من المحدثين كابن النجار والذهبي وابن حجر ولم تنسب إليه شهة الإلحاد . فميمون إذن كان من رجال الباقر والصادق المخلصين وكان أولاده عبد الله وأبان وإبراهيم من خواص خدم وموالي جعفر الصادق ، وكان أبان مقرئاً - وقرأ القرآن أمام الإمام ، وكان عبد الله محدثاً يكتب أحاديث الإمام . ثم أنكر إيفانوف إنكاراً تاماً ما ذاع من أن ميموناً القداح وابنه عبد الله كان أئمة مستودعين للإمام ، وأثبت أن هذا النظام لم يكن معروفاً في عهديهما وإنما هو من ابتداعات القرن الرابع الهجري . وكل ما يمكننا أن نقوله الآن هو أن أبحاث إيفانوف تمتاز بالخصوبة والعمق ، ولكن الرجل كان يقف دائماً بجوار الفكرة الإسماعيلية ويجعل نفسه أسيراً لها . ولا يرى سواها . وقد بين لنا الكثير من الأخطاء التي وقع فيها مؤرخو الإسماعيلية من أهل السنة والجماعة والاثني عشرية ، ولكنه وقع هو نفسه

في أخطاء كثيرة لا محل لمناقشتها في هذا الخبر المختصر (١).

وقد رأينا أن مامور ذهب إلى أن ميموناً القداح هو محمد بن إسماعيل ، فهل نحن أمام قصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر مرة أخرى . وقد قيل إن المعز لدين الله ذكر أن كلمة الميمون هو لقب لجده عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه كان يدعى بالميمون النقية ، وأن هذا اللقب كان يطلق أيضاً على محمد بن إسماعيل وكذلك أضيف إلى إسماعيل بن جعفر ، كما كان يطلق المبارك على الإمام إسماعيل كما أن القداح كان لقباً لها ، ذلك أن القداح هو الذي ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . أو هو الذي تنقدح فيه ومنه الحكمة اللدنية .

لم يتنبه مامور أو إيفانوف إلى موازنة هذه القصة لقصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر ، فالأبحاث الحديثة تنكر وجود بن سبأ وتعتبر اسمه رمزاً على عمار بن ياسر ، ثم حملة الأمويون والنواصب أقوال غلاة الكوفة من بعده ، فهل فعل العباسيون هذا أيضاً ؟ ولم تكن هناك شخصية حقيقية تدعى شخصية «المبارك» أو شخصية حقيقية تدعى ميموناً القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون ، وإنما وجد الأئمة فقط . هذا مجرد ترجيح لأننا نرى داعياً إسماعيلياً هو الداعي عماد الدين إدريس (توفي عام ٨٧٢) يقول : «وقام إسماعيل بن جعفر صلوات الله عليه - المبارك الميمون في كنف أبيه وعهد بمحمد ابن إسماعيل وهو ابن ثلاث سنين إلى ميمون القداح قدس الله روحه ، وهو كفيل له ومستودع أمره ، وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد يعقوب بن إسحق» .

ثم يذكر أن جعفر الصادق أقام موسى بن جعفر حجاباً على محمد بن إسماعيل وعلى من جعله باباً له أي «ميمون» ، السر عليه والكفيل له ، وكتم الصادق منزلة ابن ابنه ، وأقام له ميموناً القداح وابنه عبد الله بن الميمون كفلاء ، وأخفى أمر ذلك عن الخاص والعام إلا على المخلصين العارفين من أتباعه (٢) .

إن مسألة القداحين تحتاج إلى بحث أكبر ، ومناقشة علمية أدق . غير أنه يمكن القول إن ميموناً القداح إنما يرتبط اسمه سواء صح وجوده أم لم يصح بإسماعيل بن جعفر وابنه ، كما يرتبط عبد الله ابن ميمون بها وبأولادها ، وكما ذكرت من قبل في قصة عبد الله بن سبأ : إننا سواء أنكرنا وجوده كحقيقة تاريخية أو لم ننكره فإن الآراء السبئية قد وجدت ، وهنا أيضاً وجدت الآراء القداحية الميمونية . والميمونية الأولى أو إسماعيلية عصر ميمون - القداح الأول - تؤمن كالإمامية بالعصمة اللامتناهية

(١) ناقش الأستاذ محمد عبده عنان بعض حجج إيفانوف في كتابه الحاكم بأمر الله ونحتاج المسألة إلى مناقشة أكثر ، علاوة على أن الكثير من حجج إيفانوف التي ناقشها الأستاذ محمد عبده عنان صحيحة على غير ما تصورهما هو .

(٢) انظر الأستاذ محمد عبده عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٦٤ وإيفانوف «نشأة الفاطميين» من ص ٤٧-٤٩ .

للإمام ، وتعتقد أن الإمامة لقب من الله ، وأنها واجبة لحفظ الشريعة وجوياً أزلياً في علم الله القديم ، وتعتقد أيضاً بوجود هذا النور الأول الأزلي الذي انتقل من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام ، ولكن الخلاف الوحيد بين الإسماعيلية الأولى وبين الاثنى عشرية هو أن الاثنى عشرية تتوقف عند الإمام الثاني عشر بينما الدور الأعظم للائمة عند الإسماعيلية ينتهى عند الإمام السابع ، لبدأ دورة أخرى للائمة . هكذا كانت فكرة الإسماعيلية في أول الأمر ثم ما لبثت الإسماعيلية أن خاضت الفلسفة الغنوصية كاملة بما فيها من فيثاغورية محدثة وأفلاطونية محدثة مختلطة بغموض المذاهب الفارسية آخذة من كل مصدر ، داخلية في الدور الباطني الخفي ، داخل الإمام الإسماعيلي في دور السر . كما دخل الفكر الإسماعيلي في دور الباطن .

وهذا ما ستحدث عنه في الفصول المقبلة .

## الفصل الثاني

### الإسماعيلية الباطنية

#### وظهور رسائل إخوان الصفا

كان «إسماعيل» مسجى على سرير الموت سنة وفاته عام ١٣٥ عند البعض و١٤٥ عند البعض الآخر ، والإمام جعفر الصادق يعيش في مأساة حزينة ، تاخذ نفسه ، وتعلج في صدره الآلام النوافذ ، ويمشى إلى سرير ابنه مرتين حافى القدمين ، كان يبكي ابنه الأكبر ، ولكن هل شعر الرجل العظيم بما ستؤدى إليه وفاة إسماعيل من كوارث قاتلة ، وأعاصير وزعازع تكاد تهزكيان العالم الإسلامى باسم إسماعيل .

هذا «الإمام الصامت» الذى حيكت الأساطير حوله في حياته ، كان في موته أقوى منه في حياته . كان ينظر إليه وهو مسجى على الفراش اثنان من موالى أبيه أحباه وآمنا به حياً وميتاً . أما أحدهما فهو «المبارك الكوفى» مؤسس المباركية في الكوفة ، حين مات الإمام جعفر ، ذهب إلى الكوفة مباشرة بإمامته وإمامة ابنه من بعده ، أما الآخر فهو ميمون القداح ، هذا المولى الفارسى طيب العيون ، وقداح الحكمة ، ورواية الحديث وخدام الإمام الباقر . ثم غلام الصادق ، ميمون بن غيلان بن مهران بن سلمان الفارسى ، من ولد إسحاق بن يعقوب أهل الاستبداع ، والقائمين بالبلاغ ، على مدى الأجيال السحيقة إلى عهد إمام الأئمة وسيد العترة الطاهرة جعفر الصادق . «الإمام الصامت» حياً وميتاً في فراشه ، وفي جنبات البيت الحزين ، ابنه الصغير محمد بن إسماعيل في الثالثة من عمره ورأى الإمام جعفر أن يعهد بحفيده لأحب مواليه إليه ، وهو ميمون . ومات جعفر الصادق بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة ابنه إسماعيل .

ورأى المبارك - كما رأى ميمون - كيف اختلف أولاد جعفر على إمامة أبيهم ورأى أن الثلاثة لا يصلحون «أما الأفتح أو الأفلح عند الشيعة فلم يكن على علم وكان حشواً مرجئاً ، وأما محمد الديباج فكان زديباً ثم خضع للعباسيين وأقر على نفسه بالخطأ ، وأما موسى الكاظم ، فكان أصغر خوته وفي سن محمد بن إسماعيل . وهنا أعلن المبارك في الكوفة إمامة محمد بن إسماعيل ، وأما ميمون فقد رأى أيضاً أن الأحق بالإمامة هو محمد بن إسماعيل «ابن سيده القديم» ، وقد كان يعده للإمامة بعد جده ، بل أعلن الإسماعيلية كما قلنا من قبل - أن موسى كان وصياً على ابن أخيه محمد بن

إسماعيل ، فكان موسى إماماً مستودعاً لابن أخيه الإمام المستقر محمد بن إسماعيل . ولكن موسى طمع في الإمامة له ولأولاده من بعده أو أنه فعل هذا تقية ، حتى يعمل الإمام الحقيقي محمد بن إسماعيل في صمت وهدوء .

كان من محمد بن إسماعيل . كما قلت - حين توفي جده ستة عشر عاماً ، وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي القوي يحكم العالم الإسلامي بيد من جديد ، ويتبع أعداء البيت العباسي بالقتل ويبدو أنه حتى وفاة أبي جعفر عام ١٨٥ هـ ، لم يقم محمد بن إسماعيل بأى نشاط ، بل إنه كان فعلاً في من لا يسمح له بالقيام بالدعوة لنفسه . إن من الأرجح أن يقال : إن ميموناً كان بعده للإمام . ثم تولى الخليفة المهدي ، (المتوفى عام ١٦٩ هـ) ، بعد أبيه جعفر المنصور وتتبع هو أيضاً الزنادقة ، وقضى على الخناقين من أتباع الحسين بن منصور ، وكذلك قام ابنه موسى الهادي (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) بنفس الشيء وقتل أيضاً الحسين في فنج ، وحارب الزندقة ، وتابع الرشيد (المتوفى عام ١٩٣ هـ) سياسة أخيه وأبيه ، وحارب الإمامية ، فمجن إمامها موسى الكاظم . وقتله بالسهم عام ١٨٣ هـ . وترى الإمامية أن محمد بن إسماعيل هو الذي أوقع بعمه موسى الكاظم لدى الرشيد حتى حبسه ، وأن الخليفة أجاز له على وشائته بمبلغ من المال . ولكنه طعن في نفس الليلة (١) . وهذا يعني أن محمد بن إسماعيل مات في بغداد وفي ضيافة الرشيد والقصة كلها مختلفة . إن من الثابت أن محمد بن إسماعيل مات عام ١٩٨ هـ ، أي أنه حضر جانباً من عهد المأمون نفسه . وأن صلاته لم تكن على وفاق مع الخليفة هارون .

لقد مضى عهد المهدي والهادي ، وفترة كبيرة من عهد الرشيد ، ومحمد بن إسماعيل آمن في الحجاز ودعائه يعملون في سرية وغموض ، المبارك من ناحية ، وميمون من ناحية ، يقتصان فلول الخطابية والأبي مسلمية والأبي هاشمية والزيدية والإمامية نفسها . وتسير الدعوة في مرسومة ، ولكن هارون يفتح أذنيه ، ويلتمس القرص للإيقاع بمحمد بن إسماعيل . وهنا رأى محمد أن يدخل في الدور الهام الذي عرفته الإسماعيلية بدور السر ، فيهرب من الحجاز ، منتقلاً من مكان إلى مكان ، إلى فرغانة وإلى نيسابور ، حيث استقر في قرية من قرى الري هي سملا ، وقد نسبت إليه فيما بعد وسميت بمحمد آباد . وكان يرجو من رحته هذه :

أولاً : اتخاذ دار هجرة وقد أصبحت هذه عقيدة عند الإسماعيلية .

ثانياً : أن يكون بعيداً عن عيون الخليفة في الحجاز ، فيستطيع بسهولة أن يبيت دعائه .

ثالثاً : فشله في الحجاز أمام عمه القوي موسى الكاظم والإمامية ، ولم تستجب له الإمامية كثيراً .

(١) التوبخني : الشيعة هامش ١ ص ٦٨ .

رابعاً : كانت الحجاز مليئة بالعلماء والفقهاء في عصر العباسيين الزاهر ، ولاشك أن محمد بن إسماعيل كان من أصحاب منهج التأويل الباطني - وإن كنت أعتقد أنه لم يذهب فيه إلى المدى الذي ذهب إليه أتباعه فيما بعد وغلوا فيه ، إلا أن هذا المنهج لم يكن ليجد أذنًا صاغية في مدينة الرسول أوفى مكة .

خامساً : يبدو أن دعائه كانوا قد انتشروا في شرق المملكة الإسلامية ونشروا الدعوة هناك . فذهب محمد بن إسماعيل إلى أرض زرعت له من قبل .

وحين مات محمد بن إسماعيل ادعى قوم من أتباعه أنه مهدي الأمة وأنه تغيب في بلاد الروم . وأنه القائم المهدي وأنه يبعث برسالة وشرعة جديدة ينسخ بها شرعة محمد ﷺ . وأن محمد بن إسماعيل من أول العزم . وأولو العزم عند هذه الطائفة - سبعة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعلى عليه السلام ومحمد بن إسماعيل . أما علة كونهم سبعة ، فذلك لأن النظام الكوني والنظام الإنساني كذلك . فأما عن النظام الكوني ، فإن السموات سبع والأرضين سبع ، وأما عن النظام الإنساني : فإن الجسد الإنساني سبع : يدان ورجلان ، وظاهر وبطن وقلب ، والرأس الإنساني سبع : عينان وأذنان وأنف وفم ولسان والأئمة سبعة ، وقلبيهم محمد بن إسماعيل .

ثم حاولت هذه الطائفة أن تعطل نسخ الشريعة الإسلامية بأحاديث نقلية رووها عن الإمام جعفر : منها أنه قال : لو قام قائمنا لعلمتم القرآن جديداً . وأنه قال : بدأ الإسلام غربياً وسيعود غربياً كما بدأ فطوى للغرباء .

كما أعلنت هذه الطائفة أيضاً أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ، ومعناها : الإباحة للمحارم وجميع ما خلق في هذه الدنيا . والدليل النقل « فكلما منها رغداً حيث شئنا » وفي هذا إباحة للدنيا وإبطال لكل تحريم « ولا تقربا هذه الشجرة » أي موسى بن جعفر وولده من بعده ، من ادعى منهم الإمامة . ثم إن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين « وما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وأن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة في كل جزيرة حجة ، وأن الحجج اثنا عشر ، ولكل حجة داعية ولكل داعية يد . واليد هو رجل له دلائل وبراهين يقيمها . ويسمى رجال تلك الفرقة الحجة الأب والداعية الأم واليد الابن . ويرى أبو خلف القمي أن عقائد هذه الفرقة الإسماعيلية تضاهي ثالث النصاري : الله ومريم والمسيح .

وترى هذه الإسماعيلية أيضاً أن الفرائض والسنن التي أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن « وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة هي أمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها » وأن هذه البطون هي التي عليها العمل وفيها النجاة ، وأما الظواهر في استعمالها الهلاك والشقاء ، وهي جزء



من العقاب الأدنى عذب الله به قوماً إذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به « فالشرعة إذن عقاب يكلف به من لم يعرف إمام زمانه ، الذى يرفعها عنه . وقد تنبه النوبختي وهو يعرض لهذا المذهب إلى أن « هذا أيضاً مذهب عامة أصحاب أبي الخطاب » (١) ونحن نعلم أن الخطائية رفعت عن أنفسها التكاليف بأبي الخطاب .

هذه هي العقائد الباطنية الإسماعيلية الأولى أو بمعنى أدق هي تصور بقايا الخطائية لها مزيج من المسيحية الغنوصية والإسلام مع فيثاغورية محدثة تتلاعب بالأعداد ، وبخاصة العدد سبع والعدد اثني عشر .

وقد أسماهم فخر الدين الرازى بالسبعة ومذهبهم : أن الدور التام سبعة ، بدليل أن السموات والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبع والأعضاء سبع والدور التام للأنبياء سبعة فالأول آدم ووصيه شيت والثاني نوح ووصيه سام ، والثالث إبراهيم ووصيه إسماعيل وإسحق الرابع موسى ووصيه هارون ، والخامس عيسى ووصيه شمعون والسادس محمد عليه السلام ووصيه على . والإمام الأول على والثاني الحسن والثالث الحسين والرابع زين العابدين والخامس محمد الباقر والسادس جعفر الصادق والسابع إسماعيل بن جعفر . والمقصود عندهم بالرسالة « أن يلحق الجنائيون من نوع الأنس بالروحانيين . فلما انتهت التوبة إلى محمد بن إسماعيل ارتفع التكليف الظاهر عن الناس » (٢) .

غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذه الفرقة ليست هي الإسماعيلية الأولى الخاصة ولا المباركة أو بمعنى أدق ليست هي الميمونة ولا المباركية . ولقد تنبه فخر الدين الرازى إلى هذا فوضع الفرقتين الأوليتين في فرق الإسلام ، ووضع السبعة في الفرق التي تتظاهر بالإسلام ، وليست مسلمة على الحقيقة . انتقل محمد بن إسماعيل إلى جوار ربه والعالم الإسلامى ، تنقدح فيه الآراء المتباينة فيها : الإسماعيلية الأولى ، والمباركية ، والإسماعيلية والخطابية . . . وتولى الإمامة الإسماعيلية من بعده ابنه عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعروف بالرضى أو الناصر أو العطار ، وقام بحجته ميمون القداح لفترة قصيرة ، ثم توفى ميمون بعد أن أوصى بها لابنه عبد الله بن ميمون .

وسرى إلى أى حد تطورت العقيدة الإسماعيلية في عهد هذا الإمام وعهد حجته وأنها أخذت تجمع وتلفق بين مختلف الآراء . وكيف صبغت محمد بن إسماعيل نفسه بصبغة الغنوصى . وكيف أخذت طريقها كدعوة مسلحة بالفلسفة اليونانية والغنوصية ، مكونة مزيجاً لا مثيل له في تاريخ الإسلام الفكرى .

(١) أبو خلف القسى : كتاب المقالات ص ٨٥ ، والنوبختي : فرق الشيعة ص ٧٤ .

(٢) الرازى : اعتقادات فرق الملاحين والمشركون ص ٨٠ و ٨١ .

أما الإمام عبد الله الرضى ، فقد تتبع الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف في كتابهما الرائع عبد الله المهدي ميلاد الإمام ورحلاته . ولد في نيسابور ، وتولى الإمامة الإسماعيلية سنة (١٦٩ هـ) وهو أول الخلفاء عند الإسماعيلية اسمه الحقيقي عبد الرحمن ولكنه تسمى باسم حجته عبد الله بن ميمون إمعاناً في التخفى ، بل اتخذ أبوه محمد بن إسماعيل له حجباً وحجباً ، وأمر كل واحد من هؤلاء الحجب والحجب أن يتسمى باسم الإمام «فن أخذ المهدي على مستجيب سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه سترًا على صاحب الأمر ، ولذلك صعب على الناس التفريق بين الإمام وبين حججه وحجبه ، وقد أدى هذا إلى أن رؤساء الدعوة في جزرها وبحورها ، أى في أقاليمها المتعددة كانوا يختلفون فيما بينهم في ذكر أسماء الأئمة وقد حفظ هذا الأئمة المستورين وجعلهم في منجاة من يد العباسيين . يقول الداعي إدريس : « وكان امتناره كظلمة الليل الشديد ، وذلك لما غلب الحق على الباطل ، ولشدة دولة الظلمة من آل العباس وعظم الريب والوسواس ، وكان لشدة امتنار الإمام عليه السلام إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد على مستجيبين لدعوته يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولى الأمر ، ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح في العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف له اسم إمامه ولا يبينه بإشارة ولا عبارة في كلامه إلا بحمد قد بلغ الإطلاق » (١) .

وأخذ الإمام عبد الله الرضى أو عبد الله الأكبر ينتقل من بلد إلى بلد فراراً من المأمون ، وكان المأمون يدرك خطر الدعوة الإسماعيلية فأراد أن يقضى عليها ، فقرب إليه الإمام على الرضا وعهد إليه بالخلافه بعده ، وتبع الإمام عبد الله الرضى فقتل أغلب أسرته وأبنائه ، ولكن الإمام عبد الله تمكن من الوصول سالماً آخر الأمر إلى سلمية بالشام هو وابنه أحمد ، وكانت الدعوة قد نجحت فيها نجاحاً باهراً ، ولكنه بالرغم من هذا عاش هناك مدعياً أنه هاشمى ، ووجد دعاته وحججه مشقة كبرى في الوصول إليه . ولم يعرف عن الإمام عبد الله علم ظاهر ، أى أنه لم يظهر علمه لأحد ولا اطلع عليه ، ولا عرفه إلا حملة العرش ، القائمون بأمر الله أمناء خليفته وفضلاء حججه المنصوبون في دعوته ، والمقصود بحملة العرش هنا ، حججه وكبار دعاته .

وفي سلمية نص الإمام عبد الله الرضى على إمامة ابنه أحمد على مشهد من رجال دعوته . ثم انتقل بعد ذلك إلى بلدة مصياف حيث توفي بها عام ٢١٢ هـ .

وقام ابنه أحمد بالإمامة من بعده ، وقد أخذ أحمد أيضاً ينتقل من بلد إلى بلد . يقول الداعي نور الدين أحمد المتوفى سنة ٨١٧ هـ إن الإمام أحمد الملقب بأحمد التقي كان كثير التنقل في البلدان يجب

(١) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٥٩ وانظر أيضاً الدكتور حسن إبراهيم والدكتور طه شرف : عبد الله المهدي ص ٤٢ .

التبشير بالدعوة بنفسه . فوضع الوكلاء والدعاة بمركز دعوته في سلمية وسار متنقلاً في بلاد الشام ، ثم انتقل إلى الرى وإلى همدان ثم إلى أذربيجان ومنها جاء إلى إستانبول حيث توفى فيها عام ٢٢٩ هـ .

### ظهور رسائل إخوان الصفا :

وفى عهد هذا الإمام كانت الحركة العقلية الإسلامية قد بلغت مداها ، وقطعت الترجمة على علوم اليونان شوطاً كبيراً . وكان الخليفة العباسى المأمون وراء هذه الحركة العقلية الكبرى . وقد اختلفت التفسيرات والتعديلات لهذه الحركة ، وضعت لها الحلول المتناقضة . فالبعض يرى أن المأمون قام بها لأنه كان ملحداً عريقاً ، فنقل علوم اليونان إلى المسلمين . ويذهب الإسماعيلية إلى هذا الرأي . ويقول الداعى إدريس : إن المأمون أراد أن يظهر علم الهيئة ، ويجعل معرفتها الدين ، وأن للهيئة المبدأ والمعاد ، وعلى معرفتها الحساب والثواب والعقاب ، وليرى الحق الذى جاء به محمد ﷺ لا أصل له ، وأن الصحابة لما لم يتيقنوا ذلك ، عملوا بعلو عليه السلام ما عملوا ، وأنهم فى ذلك مصبيون ، وأن لا ذنب عليهم ولا عيب ينسب إليهم فى قتل ذرية النبوة بما قتل من دماء فريش (١) .

ويذهب البعض الآخر من الباحثين من أمثال يكر إلى أن السبب فى نقل المأمون لعلوم اليونان هو أن يحارب المأمون الغنوص بفلسفة عقلية ، أراد أن يحطم الفلسفة الباطنية التى كان ينشرها الإسماعيليون بفلسفة تستند على العقل ، فطلب علوم اليونان - وبخاصة الفلسفة لتوقف هذا التيار الغنوصى . وبما يرجح هذا رأى موقف المأمون وخلفائه من المعتزلة ، فقد احتضنوا المذهب العقلى المعتزلى ، وكانوا أمناء له ، بل جعلوه المذهب الرسمى للدولة . وأياما كان الأمر ، فقد خاض الإمام الإسماعيلى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعركة العقلية التى قامت فى عصره ، وإليه ينسب وضع المذهب الإسماعيلى الباطنى ، كما ينسب إليه تأليف رسائل إخوان الصفا المشهورة . ويقول الداعى اليمنى الإسماعيلى إدريس عماد الدين (توفى عام ٨٧٢ هـ) : «وقام الإمام التتّى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن إسماعيل بعد أبيه بأمر الإمامة ، وبث دعائه فى الآفاق من سلمية ، واتصل به الدعاة ، ودعوا إليه ، وهم مخفون لمقامه كاتمون لاسمه . وكان المأمون حين احتال على على بن موسى الرضا بن جعفر ظن أن أمر الله قد انقطع ، وحجته على الأرض قد ارتفعت ، فحين ظن المأمون العباسى ذلك الظن ، ووهم ذلك الوهم سعى فى تبديل شريعة محمد ﷺ وتغيرها ، وأن يرد الناس إلى الفلسفة وعلم

(١) الداعى إدريس : زهر اللعان ٦٠-٦١ .

اليونانيين ، وخشى الإمام عليه السلام أن يميل الناس إلى ما زخرف المأمون عن شريعة جده ، فألف رسائل إخوان الصفا .

ويذكر في موضع آخر أن الإمام أحمد ألف تلك الرسائل لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انحرفوا عن علم النبوة ، ثم إن الإمام أمر أن تبث تلك الرسائل في المساجد ، فحين وقع عليها الناس ، رفعت إلى المأمون فعلم أنه لم يصنع شيئاً ، وأن إمارته من قطع حبل الإمامة لا يكون (١) . والدلائل كلها تشير إلى أن وضع هذه الرسائل كان في عهد الإمام أحمد سواء أكانت من وضعه أم بتوجيهه وأنها اعتبرت قرآناً بعد القرآن ، أو هي قرآن العلم كما أن القرآن هو قرآن الوحي ، أو هي قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة . وتعلق مختلف الدعاة بها ، واعتبروها وحياً قام الإمام أحمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأمر الله ووجيه وهو الثاني من الخلفاء وحيته عبد الله بن ميمون وأحمد بن عبد الله يمثلون النطقة في دورهم مقابل لنوح ثاني النطقة ولجده الحسين بن علي ثاني الأئمة ، فنشر العلوم ظاهراً وباطناً ، وصنف الرسائل ، وجعلها على العلوم الأربعة (٢) .

ويذهب الداعي الإسماعيلي شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة (توفي سنة ٨٣٤) إلى ما يأتي : « حتى هم المنسحقون بالمأمون أن يرد الأمة إلى القول بالنجوم وقال : ما جاء محمد ﷺ إلا بناموس ملك به الناس . وحقيقة وأساس حتى أظهر ولي الله وابن رسول الله « رسائل إخوان الصفا » وفيها ما تميز فيه جميع العالم من العلوم في كل فن ، والامتنع على شريعة الرسول ﷺ . إن ذلك وهم في كهف التقية مستتر ، ودعائه الباقون مفرقون لتلك الرسائل في كل شهر وقطر . . . فرجع اللعين عما هم به » (٣) .

ولاشك أن رسائل إخوان الصفا هي إسماعيلية ، سواء وضعها الإمام أحمد نفسه أم وضعها أتباعه تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية ، مما يتسق دائماً مع المذهب الإسماعيلي . وقد جهد الأستاذ عارف تامر الإسماعيلي في محاولة إثبات هذا الاتجاه ، وتوصل خلال نشراته المتعددة المخطوطات الإسماعيلية إلى أن الرسائل قد وضعت في عهد الإمام أحمد . أرادت الإسماعيلية بوضع هذه الرسائل أن تثبت معرفة الأئمة بعلوم باطنية لا يعرفها سواهم ، ويبدو هذا من محاولة هذه الرسائل الإمام بجميع نواحي الفلسفة الغنوصية من أفلاطونية محدثة وفيثاغورية مختلطة مع العقائد الإسلامية وقد أعلن إخوان الصفا « أن هذه الوصاية المخصوصة لأهل

(١) الداعي إدريس : عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ابن حمزة : الرسالة الموقظة ، وانظر أيضاً عارف تامر . حقيقة إخوان الصفا وحلان الوفاء ص ١٨ .

بيت الرسالة عليهم السلام ، لا يحتاجون فيها إلى مديري غيرهم وإلى علماء سواهم ولا بطلع الناس على أسرارهم ولهم علوم يتميزون بها وينفصلون عن العالم بمعرفتها وأعمال يعملونها لا يشركون فيها غيرهم .  
ثم دعوة الناس أن يأتوا باب العلم - وهو الإمام - قيل : يا رسول الله من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟ فقال نعم ، من قالها مخلصاً دخل الجنة ، قيل له : وما إخلاصها ؟ قال : معرفة حدودها وأداء حقوقها . فقيل يا رسول الله : ما معرفة حدودها وأداء حقوقها ؟ فقال : أنا مدينة العلم ، وعلى بابها . فمن أرادها في المدينة فليأت الباب .

ثم توضح إخوان الصفا المذهب السبعى ، ودورة السبعة في الناطقين من الأئمة : أعيادنا أيها الأخ هي أشخاص ناطقة وأنفس فعالة ، تفعل بإذن ربها ما يوجبه إليها ويلهمها من الأفعال والأعمال . ثم يحدد إخوان الصفا هذه الأعياد أو هذه الأشخاص الناطقة كما يلي :  
اليوم الأول : من هذه الأعياد بل أفضل الأعياد هو يوم خروج أول القائم . ويكون اليوم الموافق لتزول الشمس برج الحمل وهو مجيء الربيع والخصب والنعمة ونزول الرحمة والظهور والانتشار وهو يوم فرح وسرور .

واليوم الثانى : هو يوم قيام القائم الثانى الموافق يوم قيامه يوم نزول الشمس أول السرطان في تنهى طول الليل وقصر النهار . وكان تصرم دولة أهل الجور وانقضائها ، وهو أيضاً يوم فرح وسرور وانتشار .  
واليوم الثالث : هو يوم قيام القائم الثالث الموافق لتزول الشمس أو الميزان واستواء الليل والنهار ودخول الحريف وهى مقاومة الباطل الحق ، وكون الأمر على خلاف ما كان عليه .  
واليوم الرابع : يوم الحزن والكآبة ، يوم الرجوع إلى الكهف ، كهف التقية والاستتار ، « فيكون الأمر على مثل ما نحن عليه في وقتنا إلى وقت البروز والخروج بعد الذهاب ، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل (١) .

ونحن سنرى أن النطقاء سبعة عند الإسماعيلية ، ستة وأسماء ، وقد انتهت الدورة الأولى بمحمد بن إسماعيل ، وقد جمع قوى الأئمة الستة التى قبله ، فهو الأساس ونهاية الدور ، ثم أتى الإمام الثامن ، وهو قائم لأنه الأول في الدور الجديد ، وانتهى الدور الثانى بالإمام الفاطمى « المعز لدين الله » وهو أيضاً أساس وتم للدور . ثم أنت الأعياد - العيد الأول بعد الدور الثانى - هو العزيز والعيد الثانى الحاكم بأمر الله ، وأما العيد الرابع فهو يوم الحزن والكآبة - يوم ذهاب الدولة الفاطمية حين توفى الإمام المستنصر ، ووقعت الفتنة ، وذهب الفرح والسرور ، وعاد الأئمة إلى كهف التقية والاستتار (٢) .

(١) رسائل إخوان الصفاء ج ٤ ص ٢٤٤ .

(٢) عارف تامر : ص ٢٢ .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن الدلائل قاطعة بأن رسائل إخوان الصفا عمل إسماعيلى بحث ، وكان يتخذ أداة لنشر الدعوة الإسماعيلية . ولن نعرض هنا لمحتويات رسائل إخوان الصفا الفلسفى . بل سنفعل هذا فى الجزء الرابع من كتابنا هذا الذى سيفحص نشأة الفلسفة بالمعنى اليونانى أو الفرسى عند المسلمين ، ولكن ما أود أن أقوله الآن هو أن فلسفة هذه الرسائل ليست فلسفة إسلامية أصيلة ، إنما هى محاولة لمزج العقائد الإسلامية بفتوح أفلوطين ثم بفتوح الفيشاغورية المحدثه ، مع عملية توفيق . ليست فى هذه الوسائل أصالة فكرية تعبر عن فلسفة المجتمع الإسلامى ، كما تعبر عنها فلسفة أهل السنة والجماعة والمعتزلة والشيعة الإمامية والاثنى عشرية . إنها بلا شك محاولة فلسفية منسقة ولكنها بعيدة عن الروح الإسلامى وليست فيها أصالة ولا جودة .

ولكن السؤال الهام هو من الذى كتب الرسائل ، الإمام أم جماعة من حججه ؟ يذهب الداعى السورى الإسماعيلى نور الدين أحمد إلى أن الإمام أحمد هو الذى شرع فى كتابة هذه الرسائل ، ثم طلب من حرمه - ومعنى الحرم فى التعريف الإسماعيلى الدعاة الأربعة الذين يرافقون الإمام . ويسمون الأبدال - وأمرهم بأن يكتبوا - كل من ناحيته ما عنده من علوم باطنية ، وأن يرسلها إليه . يقول زهر الدين : « ولما علم - أى الإمام - بما آلت إليه الشريعة فى العباسيين من الانحطاط والضعف ، شرع بتأليف كتاب « رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء » وهو كتاب وضعه لتأييد الشريعة والحقيقة معاً ، وقد أمر حدوده الأربعة الحرم ( ويسمى هؤلاء كما قلنا الأبدال ، وأفضلهم يسمى الباب ) وكان مقرهم فى سلمية وهم أقرب الحدود إليه - أن يكتبوا ما ينصه عليهم ، ويصل منه إليهم ، فأخذ كل واحد بكتابة ما يشير به عليه من العلوم ، أو يرسله إليه إذا كان غائباً فى مكان بعيد ، حتى جاء عدد رسائل الكتاب مطابقاً لعدد ركعات صلوات الفريضة والسنة والنوافل . »

واضح إذن من هذا المصدر الإسماعيلى أن الإمام كلف أبدال الأربعة بكتابة هذه الرسائل ، وكانت ترسل إليه ، فراجعها . ولكن من هم هؤلاء الأبدال الأربعة ؟ يقول الداعى ابن زهرة : « فلما انتقل محمد بن إسماعيل إلى دار البقاء تسلمها ولده المستور . وهو أول من ستر نفسه عن الأضداد من أهل عصره المخالفين ، لأن زمانه كان زمان فترة ومحنة ، وكان المتغلبون من ولد بنى العباس يطلبون من يشار إليهم حسداً وبغضاً لأولياء الله تعالى ، فأوجب ذلك الاستار المعروف للأئمة ، وكنت الدعاة بأسمائهم تقية عليهم مما هم فيه ويليق بهم ، وتاهت فيهم أولو الضلال ، حتى قالوا إن الإمام من ولد محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون المعروف بقداح الحكمة وزيد الهداية . وزعم البعض أنه عبد الله بن المبارك أو عبد الله بن سعيد بن الحسن أو عبد الله بن حمدان ، وأن هؤلاء الأربعة قد

اجتمعوا مع غيرهم ، وصنفوا رسائل طويلة في شتى العلوم والفنون وعددها اثنان وخمسون رسالة <sup>(١)</sup> هؤلاء هم الدعاة الذين صنفوا رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا لتكون سلاحاً بين يدي الإسماعيلية يحاربون به العباسية .

#### عبد الله بن ميمون القداح :

ونحن نلاحظ أن اسم عبد الله بن ميمون القداح يظهر هنا ، واحداً من الحرم ، وهو أفضلهم فهر الباب ، باب مدينة العلم ، علم الإمام ، كعلی للرسول . وعبد الله بن القداح الأول - ميمون - شخصية من أغمض شخصيات التاريخ الإسلامي كوالده . اختلط أيضاً اسمه وزمانه باسم والده وزمانه ، فهر خادم أيضاً للباقر وللصادق ورواية الحديث لهذا الأخير . واختلط اسمه بمحمد بن إسماعيل ، فهر هو محمد بن إسماعيل عند البعض ، وهو متحل لشخصيته . واختلط اسمه بالإمام عبد الله الرضى ، فهر هو عبد الله الرضى أو هو متحل لشخصيته .

أما أهل السنة والجماعة ، وروايهم ينبغي أن تؤخذ بحذر فأول رواية لهم عنه ، يقدمها لنا ابن النديم في الفهرست عن أبي عبد الله بن رزام أقدم مؤلف سني كتب كتاباً في الرد على الإسماعيلية وكشف مذاهبهم ويورد نصوص ابن رزام ويبرأ من العهدة في الصدق عنه والكذب فيه وأما هذه النصوص فهي : « إن عبد الله بن ميمون ويعرف بميمون القداح ، وكان من أهل قوزح العباس بقرب مدينة الأهواز - وأبوه ميمون الذي ينسب إليه الفرقة الميمونية التي أظهرت أتباع أبي الخطاب محمد بن زنب الأسدی الذي دعا إلى إلهية على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وكان ميمون وابنه ديسانين وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيد ، ويذكر أن الأرض تطوى له ، فيمضي إلى أين أحب في أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث الكائنة في البلدان الشاسعة وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونون على نواميسه ، ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه بيت عبد الله ، فيخير من حضره بما يكون ، فيتموه ذلك عليهم » <sup>(٢)</sup> .

هذه هي أقدم رواية من كاتب سني عن عبد الله بن ميمون القداح . ثم أخذها البغدادى صاحب الفرق بين الفرق ، وذكرها - ولكنه يخلط بين عبد الله وأبيه ميمون . يقول : « إن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة منهم : ميمون بن ديسان المعروف بالقداح . وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق . وكان من الأهواز ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان . اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديسان في

(١) الداعي ابن زهرة : رسالة الأصول والأحكام في خمس رسائل إسماعيلية ص ١٢١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٨ .

سجن وإلى العراق ، فأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية ، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان ، وابتدأ بالدعوة في ناحية تور ، فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدین ، ثم رحل ميمون بن ديسان إلى ناحية المغرب ، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب وزعم أنه من نسله ، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم ، ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، فقبل الأغبياء ذلك منه على جهل منهم بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب (١) .

انتشرت رواية ابن رزام ، ثم البغدادي ، كما ردد الكثير من هذا الغزالي . نحن أمام رواية تمثل لنا الرجل على أنه ديصاني ثنوي ، شعوني خطير ، مزور مفتصب ، مؤسس للمذهب باطنى يحاول به هدم الإسلام مع مجموعة من موالى العجم . وأنه - كما فعل أبوه من قبل - اتخذ التشيع ، في صورة شاذة لا صورة معتدلة ستاراً يخفى به عداوته الضارية للإسلام .

وقد أورد النويرى في نهاية الأرب أن الرجل كان ضاعثاً حتى على العلويين أنفسهم بحيث كان يقول لدعاته « ولا ترحم علويًا ، فلو تمكن علوى كتمكين غيره من الأنبياء للقينا منه جهداً ، وغيره بما يدعيه من حقوق جده على هؤلاء الحمير بما هو أكثر مما غيره جده وإياك والإغضاء عن نجله من ولد على : يعنى اقله إذا تمكنت من قتله » .

بل يذكر مؤرخو السنة أن عبد الله بن ميمون انقلب على المذهب الإسماعيلى نفسه والشاهد على هذا ما يذكره أبو العلاء المعرى من أن عبد الله كان يقول :

هات اسقى الخمرة يا قنبر فليس عندى أننى أنشر  
أما ترى الشيعة فى فتنه يفرها من دينها جعفر  
قد كنت مغروراً به برهة ثم بدا لى خير يستر  
وأنه كان يقول :

مشيت إلى جعفر برهة فآلفيته خادعاً يحلب  
يجر العلاء إلى نفسه وكل إلى حبله يجذب  
فلو كان أمركم صادقاً لما ظل مقتولكم يسحب  
ولا غض منكم عتيق ولا سما عمر فوقكم يخطب (١)

ومن العجب أن يأتى الذهبى في ميزان الاعتدال - وهو من كتب نقد الرجال فيذكر عبد الله بن ميمون القداح المكي ، وأنه كان مولى لجعفر الصادق - وأنه كان محدثاً موثقاً به في كثير من روايات

(٢) المعرى : رسالة الغفران ص ١٥٦ .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٩٦ .



الحديث . ويذكر الذهبي أسماء بعض من رووا عنه الحديث (١) فهل حدث هذا في حياة جعفر وقبل أن يتحول الرجل من عقيدته الإمامية إلى الإسماعيلية ؟ وأبو العلاء نفسه يذكر أنه كان محدثاً إمامياً في أول حياته ثم انقلب غالياً .

ويقابل هذا روايات الشيعة : اثني عشرية وإسماعيلية .

أما الروايات الإمامية فتجمع على أنه كان من موالى جعفر الصادق ومن محدثيه . كما ذكروا أنه صنف كتابين هما مبعث النبوة ، وصفات الجنة والنار وأنه كان محدثاً اثني عشرياً ، ومات على ولاء لموسى الكاظم وهذه الأخبار كما قلت - تنطبق على ميمون أيضاً ، بل إن القول بأنه - أى ميمون وابنه عبد الله - كانا على ولاء ووفاء لموسى الكاظم لا يقدح إطلاقاً في ولايتها للإمام محمد بن إسماعيل فلا شك أن ميموناً كان من خواص جعفر الصادق ، وقد أحبه وأحب أبناءه جميعاً . ولكنه اختص بإسماعيل وأولاده . ونستخلص من هذا أن الروايات الإمامية الاثني عشرية لا يمدنا بشيء واضح عن عبد الله بن ميمون ، اللهم إلا مصدراً واحداً - هو تبصرة العوام الذى يذكر أن عبد الله بن ميمون غتصب الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل ثم دعا لابنه لا نفسه « وهذا هو النص الذى أورده الدكتور حسن إبراهيم ولم يتنبه إلى أهميته . إنه الدليل القاطع على أنه كان لمحمد بن إسماعيل عقب وذرية . أما اغتصاب عبد الله بن ميمون للإمامة منهم ، فإنه موضع نظر . إنه - كحجة الإمام - تسمى باسم الإمام ، حتى يحافظ على سلامته ويجعله في مأمن كامل في كهف الاستار .

إن هذه النصوص والروايات تقربنا إلى حد ما من الحقيقة . إنه ابن ميمون القداح ، أو هو القداح الثانى ، ورث القداحة عن أبيه ، وكان راوية لجعفر الصادق ولم يكن حجة لمحمد بن إسماعيل ، ولم يتخذه أبوه ميمون بديلاً لابن محمد بن إسماعيل حين مات هذا الأخير ، بل سلمه أبوه أمانة الدعوة بعد أن بقى الأب حجة مدة قصيرة لعبد الله الرضى . فلما مات الأب ، ورث الابن رتبة حجة الإمام ، وكان أحد الدعاة الحرم الأربع ، وكان باب الإمام . وسار بالدعوة سيراً حثيثاً ، مستخدماً كل أداة يراها ، وكل مجموعة يقابلها .

لا شك أن الشعبية والمجوسية كانت تطل برأسها . يقول ابن رزام « قد كان قبل بنى القداح قريب ممن يتعصب للمجوس ودولتها ، ويحتد لردّها في أوقات ، منها بالمجاهرة ومنها بالحيلة سراً . فأحدثوا ذلك في الإسلام حوادث منكّرة » ويرى ابن رزام أن أبا مسلم الخراساني رام ذلك وعمل عليه ، فانخرم ذلك ، وأظهر وكاشف بابل الحرمى .

وفى خلال دعوة عبد الله بن ميمون ، ومحاولاته المستميتة في جذب أية مجموعة من الناس للبيعة

لإمامه قابل الشعوبى الخطير الثرى محمد بن الحسين كاتب أبى دلف والمشهور بدندان . وكان هذا الرجل فيما يذكر ابن رزام - متفلسفاً حاذقاً يعلم النجوم شعوبياً شديداً الغيظ من دولة الإسلام . ويذكر ابن رزام مذهبه وهو إثبات النفس والعقل والزمان والمكان والهيولى - أى مذهب القدماء الخمسة - وقد نسب هذا المذهب إلى الصابئة الحرنائية ، وهو فى الحقيقة مذهب أفلاطونى ، كان يدين به أيضاً محمد بن زكريا الرازى . وكان دندان يرى أن للكواكب تدابير روحانية ، وأنه وجد فى الحكم النجومى انتقال دولة الإسلام إلى دولة الفرس ودينهم المجوسية وكان يرجو أن يكون رجل الفرس (١) ، فلما قابل عبد الله بن ميمون أراد كلا الرجلين استخدام الآخر ، هذا للمجوس ، وذلك للإسماعيلية ، فأعطى عبد الله بن ميمون مليونى دينار . ولكنه ما لبث أن مات ، وسار عبد الله بن ميمون بدعوته . ولكن ماسينيون وبرنارد لويس أثبتا تهافت هذه القصة . فإن محمد بن الحسين الملقب بدندان قد توفى حوالى عام ٢٥٠ هـ . فلا يمكن إطلاقاً أن يتصور معاصرته أو مقابلته لعبد الله بن ميمون . ويرى ماسينيون أن دندان هذا كان من الموالين للحركة الإسماعيلية ولكنه لم يكن أبداً من أصحاب عبد الله (٢) . ورأى عبد الله بن ميمون العباسيين يتبعونه ، وبعد رحلات متعددة عاد إلى سلمية يعيش فى حمى الإمام المستور أحمد بن عبد الله حتى مات فى عهد هذا الإمام .

كان العمل الأكبر الذى قام به عبد الله بن ميمون هو الدعوة للإمام الإسماعيلى وكان أجل دعائه ولذلك حظى - كما قلنا - برتبة الباب . ولكن هل وضع عبد الله بن ميمون أصول المذهب . لقد رأينا من قبل أنه شارك فى وضع رسائل إخوان الصفا ، ولكنه لم يكن منفرداً ، بل شاركه ثلاثة آخرون . وتم العمل تحت إشراف الإمام أحمد ، بحيث نسب إليه عند الكثيرين من المؤرخين . وكذلك يبدو أن أساليب الدعوة نفسها كانت عملاً مشتركاً أيضاً ، وكذلك تكوين العقائد الإسماعيلية نفسها التى يدعى إليها . وإذا كان للقداح الجانب الأكبر فلم يكن الأئمة سلبين إطلاقاً ، بل كان الإمام أحمد خاصة هو اليد المحركة للدعوة ولوضع الأفكار الإسماعيلية . أما القول بأن عبد الله بن ميمون القداح قد وضع أساليب الدعوة فى يده ، ثم رسم العقيدة الإسماعيلية بنفسه ، وأنه فعل كل هذا لكى يضع الدعوة فى يده ثم يتولى الإمامة هو وأولاده فلا ظل له من الحقيقة . إن الرجل وأباه من قبل وأولاده من بعده كانوا مخلصين للبيت الإسماعيلى أعظم إخلاص ، تفانوا فى حب إسماعيل وأولاده ونرى «أخو محسن» - وهو عدو للإسماعيلية وللبيت القداحى - وقد اتهم عبد الله بن ميمون بأشد التهم ، واعتبره خارجاً مارقاً على الإسلام ، إلا أنه كان يؤكد دائماً ، أنه كان مخلصاً لأئمة الإسماعيليين .

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٥٨-١٥٩ .

انتشر عبد الله بن ميمون ورجاله - يدعون إلى الإمام الإسماعيلي ، والإمام في «كهف السر» لا يعلم اسمه إلا الأقربون الدعاة الحرم الأربعة والإمام «حى» «موجود» في انتظار التفاف المسلمين حوله لكي يظهر من دور الاختفاء يملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملأها الظلمة من آل أمية وآل عباس جوراً وفجراً . والإمام المستورد من «آل محمد» أنوار البرية ونجومها ، نجوم السموات ، وأمان أهل الأرض .

ووجد عبد الله بن ميمون الحقل المربع الغالى . من أنصار أبي الخطاب الأسدى ثم المنصورى : أتباع الحسين بن أبى منصور العجلي ، ثم الكيسانية وفروعها . ثم الأبي مسلمية ، وبقايا الثورة المنقعية ، كانت الفلول الضائعة الحاقدة تلمس قيادة جديدة ونقطة ارتكاز جديدة ، تنقض بها على عدوها الحاكم ، ثم قام بابك الحزمى بأعنف الثورات في تاريخ الإسلام ، وقضى بعد عناء على ثورته . وقد عاصر عبد الله بن ميمون كل هذه الحركات وقد تخلف عنها اتجاه جديد هو الاتجاه الشعبى وفي سهولة نادرة وبعين حذرة وضع عبد الله بن ميمون يده في أيدي هؤلاء الشعبيين المتلمسين الفرص ، أى فرصة كانت للقضاء على العرب والإسلام جميعاً . واتخذ المذهب الإسماعيلي «التصوف» ستاراً له فكان الدعاة يسترون بالزهد وبالتشف ويطهرون في صورة الصوفى الغارق في تأملاته . ومن الصعوبة بمكان تحديد الأثر والمؤثر هنا . هل أثر التصوف في الإسماعيلية ، فاستمد الدعاة منه بعض أساليبه . أم أثرت الإسماعيلية في التصوف فحاكاها وأخذ منها مصطلحاتها ؟ وما زال الباحثون حتى الآن وراء الآثار الإسماعيلية في فلسفة ذى النون المصرى . أو الحسين بن منصور الحلاج . إنه من الثابت أن دعاة الإسماعيلية - وعلى رأسهم عبد الله بن ميمون - قد استخدموا التصوف الفلسفى كأداة في دعوتهم . وكان السحر والشعوذة والتيرنجات منتشرة في أوساط الغلاة ، فكان على الدعاية أيضاً إتقانها واستخدامها ، حتى يموهوا على عوام الناس كما استخدموا أيضاً الحيل الهندسية . وما لا يسر غوره الجماهير الغافلة . استخدم الدعاة كل شيء كان في متناولهم حتى الفلسفة اليونانية ، وبخاصة الجزء الخاص منها بالأسرار فلسفة أفلوطين وفلسفة الفيثاغورية الحديثة . بل استخدم الدعاة الإسماعيليون المذهب المعتزلى ، فدخل أيضاً في أعماق المذهب الإسماعيلي مزيج غريب من الآراء والمعتقدات أراد به الدعاة أن يشبعوا رغبات ومعتقدات المزيج الغريب من البشر الذى حاولوا جذبه إلى موالاة الإمام الإسماعيلي . وقد حدث هذا كله في سرية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . وقد دعا هذا إلى تعدد أسماء المذهب الإسماعيلي ، فهو المذهب الباطنى ، وهو الخرمية وهو السبعية ، وهو الفارسية القديمة ، وهو الفلو الشيعى ، وهو الخطابية والباركية . وهو فعلاً مزيج من هذا أو بمعنى أدق كان هو كذلك في دور الاستتار فلما ظهر الإمام ، في مغرب الأرض باسم عبيد الله المهدي . قدم للناس مذهباً إسماعيلياً فقط ، أى موالاة الإمام الإسماعيلي باسم الإسلام .

ولقد استند المذهب في دور السر - كما استند في دور الظهور - على التأويل الباطني للقرآن .  
أعلنت الإسماعيلية أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن الأخذ بالظاهر فقط دون الباطن ، خروج على روح الإسلام . وبهذا المنهج استطاعوا تفسير القرآن وتأويله طبقاً لما يريدون . فالسموات السبع والأرضون السبع إشارة إلى الأئمة السبعة ، والمدبرات أمراً - ليست هي الكوكب والنجوم ، وإنما هي إشارة إلى الأئمة . وقول الله « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » هي « جعل صفوة الصفوة من العالمين الجسائي النطقاء السبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم صلوات الله عليه وجعلهم أصحاب شرائع وأحكام وحلال وحرام ، ثم جعل بين هؤلاء النطقاء الستة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثلاثين نبياً مرسلين ومبشرين ومنذرين ، ما شرعوا شريعة ولا حولوا قبلة ولا بدلوا أحكاماً ، غير أنهم متبعون لما جاء به النطقاء صلوات الله عليهم ، وعلى الأئمة من ذريتهم » ثم جعل الإسماعيليون بين الناطق السادس وبين القائم السابع - أي محمد بن إسماعيل - أئمة ظاهرين - هم علي والحسن والحسين وعلي ومحمد وجعفر ، وإسماعيل . وهؤلاء لم يغيروا ولم يبدلوا شريعة وهم يشبهون النطقاء الخمسة قبل محمد ﷺ . وقد قال القرآن : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » ، فقال النبي ﷺ : « لم يؤتى أحد قبلي ، ثم جعل منها الأنبياء والأئمة في كل عصر وزمان أربعاً وعشرين حجة ظاهرة ومثلها اثنا عشرة حجة باطنة ، ثم مراتب الإيمان وهي المؤمن والمؤمن والمأذون والمباح والحجة ، فذلك تسعة وتسعون حجة - عدة تفسير أسماء الله الحسنى (١) » هكذا فسر الإسماعيلية أسماء الله الحسنى ومن عرف هذه الأسماء الحسنى أي من عرف الأنبياء الناطقين والأئمة الناطقين رفع عنه التكليف - وهذا ما لم يناده به الإسماعيلية ، ولكنهم غصوا البصر عنه وهم في دور السر ، جذباً للتابع ، وقد أدى إلى أفطع النتائج .

#### العقيدة الإسماعيلية في دورها الباطني :

لم تسبغ الإسماعيلية الألوهية أبداً على الأئمة لقد حارب الإسماعيليون الغلاة الذين ألّوا أو اعتبروا الإمام إلهاً وأعلنوا أن الأئمة عباد مخلوقين . وكائنات مربوبة ، خلقوا من الطين ولكنهم من طينة أسمى من البشر . واختارهم الله اختياراً أزلياً ، حجة على الخلائق .  
ثم استخدموا في الدور السري فكرة العقول الأفلوطينية المحدث في براعة نادرة حتى يحققوا فكرة السبعة . فأروا أنه يتحكم في الكون دائماً سبع أي سبعة من الناطقين : آدم ونوح وموسى وعيسى ومحمد وعلي وينتهي الدور بالقائم محمد بن إسماعيل . هؤلاء السبعة هم السبعة الناطقون الذين تجلى

(١) القاضي النعمان : ( في خمس رسائل إسماعيلية ) ص ٣٧ .

فيهم العقل الكلى الموجود ولم يخل العالم في فتراته المختلفة بين كل ناطق وناطق من موجودات أو كائنات ، تقوم مقام الناطقين ، وتعمل تلك الفترات ، وفيهم أيضاً أعظم مظاهر تجلى العقل الكلى في نظام بديع وتسلسل فد . وكل قائم من هؤلاء القائمين يفيض عليه ما فاض على من سبقه ، فهو المظهر الأكمل لكل رسالة سبقته أو نبوة أو علم . وكل ناطق يحمل ما حمله من قبله من ناطقين وقائمين حتى يصل إلى أكمل الصور الكونية . وانتهت دائرة الناطقين الأولين بمحمد بن إسماعيل ، انتهى دور هؤلاء السبعة ، ليبدأ دور السبعة المستورين ، وهكذا دواليك .

لم يعلن الإسماعيليون أبداً أن محمد بن إسماعيل نبي أو أنه أتى بدين جديد ينسخ به الشريعة المحمدية . ولكنهم أعلنوا أنه الولي القائم الذى أتى ليُفسر القرآن باطنياً ، أتى بالتأويل . أما دوائر أهل السنة والجماعة فزى أن الإسماعيلية تصل إلى أفضل النتائج التى يمكن أن ترتبها على فكرة الفيض . الفيض دائم وباق ومستمر ، ودائرته لم تغلق على الإطلاق ، وفى لغة دينية بسيطة لم يكن محمد ﷺ فى المذهب الإسماعيلي خاتم النبيين ولا آخر من يمثل اكتمال الوحي الإلهي - كما يعلن أهل السنة والجماعة . وبهذا رأوا أن الإسماعيلية فى صورتها الفلسفية قد ابتعدت عن الإسلام ابتعاداً كلياً وانتهت إلى مذهب فى المعرفة يتصل بالغوصيات المتعددة المنتشرة فى العالم الإسلامى وبخاصة غنوص الأفلاطونية المحدثة . ولذلك نرى أهل السنة والجماعة يعتبرون الإسماعيلية من المذاهب الخارجة عن الإسلام ، ويعرضونها تحت اسم الباطنية - فبرى الشهرستانى<sup>(١)</sup> أنهم فى الحقيقة قرامطة ومزدكية فى العراق ، وبخراسان التعليمية والملحدة وهم يقولون نحن إسماعيلية لأننا نميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وبهذا الشخص .

وقد قلت من قبل إن الإسماعيلية ليست مزدكية على الإطلاق وليست ثانوية وإنما هى مذهب فلسفى أخذ يتضح شيئاً فشيئاً ، مبتعداً عن روح الإسلام السنى وعن روح الإسلام الاثنى عشرى ، وقد عرضنا صوراً منه وسنعرض الآن لتطوره فى صورة أكثر فلسفة ، ويعتبر الشهرستانى هذه الصورة هى صورة الباطنية القديمة : وهى هى الإسماعيلية فى صورة أكثر عمقاً . لقد تنبه الشهرستانى إلى تطور المذهب الإسماعيلي وأخذ بصور متعددة فقال « وكانت لهم دعوة فى كل زمان ومكان جديدة بكل لسان »<sup>(٢)</sup> .

ذهبت الباطنية القديمة ، إلى أنه لا يمكن أن تخلو الأرض من إمام حتى قاهر ، وهذا الإمام إما أن يكون ظاهراً مكشوفاً ، وإما باطناً مستوراً ، وإذا كان الإمام مستوراً ، فلا بد أن يكون حجته ودعائه ظاهرين .

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ . (٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

وتدور أحكام الأئمة عند الباطنة على سبعة : أى أن أدوار الإمامة سبع ، وأن السابع هو آخر الدور ، والدور الأول انقضى بإسماعيل بن جعفر وأبتدأ الدور الثانى بمحمد بن إسماعيل . والدور يتم بسبعة بعد الناطق - وهو الرسول محمد ﷺ . ويتبدئ بالأساس وأساس الناطق هو الوصى على بن أبى طالب ، ثم من القائمين بعد الأساس ، فتمت انقضى هذا الدور تلاه دور آخر فيه ناطق ناسخ لشريعة من قبله وأساس ، يتلوهم أئمة ، ثم كذلك إلى ما لا انقضاء له ولا نهاية .

أما عدد النقباء فاثنا عشر . وقد أخطأت الإمامية القطعية - أى الاثنا عشرية - حيث قرروا عدد النقباء للأئمة . وهنا خلاف بين مع الإمامية الاثنى عشرية . ثم يقررون ه إن من مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية ، وكذلك من مات ولم يكن فى عقبه بيعة إمام مات ميتة جاهلية . أما نظريتهم فى الألوهية فهى نظرية كلامية تثبت تمام الإثبات أن الإسماعيلية تؤمن بوجود إله واحد على طريقة إسلامية ، وقد نقل إلينا تقي الدين بن تيمية طريقتهم فى التدليل على وجود الله وموقفهم من الصفات عن كتاب مفقود اسمه الأقاليد الملكوتية لأبى سليمان السجستاني المعروف بالمنطقي ، وقد اعتبره إسماعيلياً وقرمطياً . ثم ظهرت المخطوطات الإسماعيلية التى نشرت حديثاً . وفيها أيضاً نفس الفكرة فى نظرية الصفات التى عرضها ابن تيمية عن السجستاني . وقد حاولت الإسماعيلية أن تتره الله عن النقي والإثبات . وقد كان منهج الباقر ، ثم منهج الصادق بعده . وهاكم ملخص فكرة الإسماعيلية فى هذا الدور الناضج من أدوار حياتها .

الله واحد قدير عالم . . . إلى آخر تلك الصفات . هو لا موجود ولا لا موجود لا عالم ولا جاهل ، لا قادر ولا عاجز ، وفكرتهم فى ذلك أن الإثبات الحقيقى يقضى شركة بينه وبين سائر الموجودات فى الجهة التى أطلقت الصفة فيها عليه ، وهذا تشبيه عند الباطنية ، أنهم تزهوا الذات الإلهية عن الحكم بالإثبات المطلق ، كما أن النقي إنما هو سلب صفات عن الله ، ولا يجوز أن يوصف الله بالسلب ، أى لا يجوز أن يحكم عليه بالنقي المطلق ، فهو إله المتقابلين وخالق الخصمين والحاكم بين المتضادين ، أو بمعنى أدق تعلق الذات الإلهية عن كل صفة وعن سلب هذه الصفة ، أو تعلقها سلباً وإيجاباً ، أى نقياً وإثباتاً<sup>(١)</sup> .

حاول ابن تيمية أن يعلل المسألة تعليلاً منطقياً طريفاً ، وهو ينقل إلينا نصوصاً على جانب كبير من الأهمية من هذا الكتاب : الله لا يوصف بالنقي ولا بالإثبات ، فهو لا ! ولا لا ! ، فإذا رجعنا إلى القانون المنطقي البديهي ، قانون عدم التناقض نجد أن أبا سليمان السجستاني الباطنى قد تنكب هذا الطريق ، وبمحاولة البديهييات أمر لا يستسيغه عقل إنسانى .

(١) ابن تيمية : المعقيدة الاصفهانية ص ٧ و ٢١ .

وكان أبا سليمان السجستاني لديه الرد الكامل على ابن تيمية إذ ذكر: «إننا لم نجتمع بين متناقضين بل رفعناهما (١)». وثمة فرق بين الجمع المتناقضين وبين رفعها، إن كان الأول غير ممكن عقلاً وفِعلاً، ويبدو أن أبا سليمان السجستاني، وقد فهم ابن تيمية هذا أيضاً، غلط، أو لم يفهم الأمر، فقد كان من قوانين اليونان التي عرفها المسلمون أن التقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فقانون الثالث المرفوع قانون منطقي، لا شك في ذلك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن قانون الثالث المرفوع هو الصيغة الشرطية لقانون عدم التناقض، وعلى أي حال نجد الباطنية في فكرتهم عن الصفات الإلهية قد خرجوا خروجاً واضحاً على قانون من بديهيات المنطق الأرسطاليسي، وبدل هذا على عبقرية عقلية ناضجة وقد شعروا بهذا الخروج، وهذا دليل واضح على أن الخروج على تلك القوانين في العالم الإسلامي كان أمراً مستغافراً، ونحن نرى هذا الخروج عند المعتزلة، وعند مفكرى أهل السنة والجماعة كإمام الحرمين وأبي بكر الباقلاني في مبحث الحلال المشهور - صفات الله هي صفات وراء الذات لا موجودة ولا معدومة.

المهم أننا نرى مفكراً كابن تيمية، وهو يتلمس جميع الحجج لمهاجمة الباطنية، يلجأ إلى المنطق اليوناني وهو عدوه الأكبر فيعرض عليه منهاجاً باطناً في الاستدلال وبين تهافته تهافتاً تاماً، وإذا ما هاجم طائفة أخرى من طوائف المسلمين في خروجها على هذا المبدأ، أعلن أنهم يتشبهون بالباطنية في هجائهم على بديهيات المنطق الأرسطاليسي.

أما كيفية نسبة صفة من الصفات إلى الله فيخلص منها الباطنية بتحليل لطيف نسبوه إلى الإمام محمد بن علي الباقر: لما وهب الله العلم للعالمين قيل هو عالم، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر، فهو عالم وقادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة. ولذلك هاجمهم أهل السنة والجماعة بأنهم نفاة للصفة الحقيقية، وبأنهم معطلة لذاته عن جميع صفاته. وقد تناول نفيتهم صفة القدم، فقالوا: إنه ليس بتقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته، والمحدث خلقه وفطرته (٢).

كيف أبدع الخلق؟ هنا نجد الباطنية يتجهون إلى الأفلاطونية المحدثة يلتمسون منها أساساً لفكرتهم، أبدع الله أول الأمر العقل الأول، والعقل الأول تام بالفعل، ثم بتوسط هذا العقل أبدع النفس، والنفس غير تامة، ونسبة العقل إلى النفس نسبة النطفة إلى تمام الخلقة. ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال، والحركة تحتاج إلى وسيلة، فوجدت وسيلة، أوجدت، وهي الأفلاك السماوية، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس.

(١) ابن تيمية: العقيدة الاصفهانية ص ٧-٢١. (٢) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦.

تنزل درجة في سلم الموجودات ، فحدثت الطبائع البسيطة بعد حدوث الأفلاك ، وتحركت هذه الطبائع بفعل النفس فتركبت عن تلك الحركة المركبات من المعادن ، والنبات والحيوان والإنسان ، والحركة فيها نعلم كثرة وتعدد ، وفاضت من النفس نفوس جزئية سرعان ما اتصلت بالأبدان ، وهنا كان نوع الإنسان وحده متميزاً بالاستعداد لفيض الأنوار العليا عليه ، لأن مادته من مادة النفس العاشقة التي تتجه نحو المعشوق بحركات مختلفة تتفاوت كمالاً ونقصاً ، ولا بد أن يكون في هذا العالم الأرضي ما يقابل نظام العالم الكلي الكوني .

ينبغي أن يكون ثمة عقل ونفس ، أما العقل فهو عقل شخص هوكل ، أما حكم هذا الشخص إذا ما حاولنا أن نضعه في لغة أرضية نفهمها فهو حكم الشخص الكامل البالغ ، هو الناطق ، وأسماه أهل الشريعة النبي ، أما النفس فهي نفس مشخصة ، هي كل أيضاً ، حكمها هو حكم الطفل الناقص الذي يصور إلى الكمال ، أو حكم النطفة التي تتجه إلى النضج والتمام ، وأسماه الباطنية الأساس ، وهو ما يقابل عند جمهور الشيعة الوصي ، فالناطق إذن ، والأساس في العالم الأرضي ، يقابلان العقل والنفس في العالم العلوي ، وإذا كانت الأفلاك والطبائع تحركت بحركة من النفس ، وبالتالي من العقل كذلك تحركت النفوس الجزئية وأشخاصها الجسمانية بفعل الناطق والوصي بواسطة الشرائع في آفات معينة دائرة على سبعة سبعة حتى تنتهي إلى الدور الأخير ، وفيه ، أي في الدور السابع من الأدوار . ترتفع التكاليف ، لا سنة ولا شريعة ولا قانون ، إنما يظل زمان القيامة بأشراطه ، وفي هذا الدور الأخير تعود النفس الجزئية بواسطة الشرائع التي أظهرتها ، ثم انحلّت عنها ، حالما قاربت الكمال ، تعود مرة أخرى إلى النفس الكلية ، كذلك هذه الحركات الفلكية الطبيعية تعود كثرتها بعد إلى الوحدة ، كانت غايتها بلوغ النفس إلى حال كمالها بحركة شوق إلى الاتصال بالعقل واتحادها به ووصولها إلى أعلى مرتبة كونية إلى العقل بالفعل ، فإذا ما أتمت الحركات الفلكية دوراتها السبعة الأخيرة وقام آخر ناطق ، وآخر وصي ، بتحريك النفوس حركتها الأخيرة ، عادت النفس عقلاً بالفعل « وذلك هو القيامة الكبرى فتتحل تراكيب الأفلاك والعناصر والمركبات ، وتتأثر الكواكب وتبدل الأرض غير الأرض وتطوى السماء كطى السجل للكتاب المرقوم فيه » . هنا يبدأ الحساب ، ويتميز الخير من الشر وتتصل جزئيات الحق بالفعل الكلي ، وجزئيات الباطل بالشیطان المبطل <sup>(١)</sup> .

وتعود الحركة سكوناً ، وتعود الكثرة وحدة ، ولم يعد إلا العقل الفعال يتأمل ذاته في نعم أبدي سرمدي ، وهنا الكمال « من وقت الحركة إلى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون إلى ما لا نهاية له هو الكمال » <sup>(٢)</sup> .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٨ .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .



تلك هي الصورة التي قدمها لنا مفكر أشعري عن النظرية الإسماعيلية في النظام الكوني . وسنقدم الآن للقارئ صورة من التراث الإسماعيلي نفسه - وهي صورة يرسمها لنا الداعي الإسماعيلي حاتم بن عمران بن زهرة المتوفى عام ٤٩٧ هـ في رسالة الأصول والأحكام وأبو يعقوب السجزي في رسالته تحفة المستجيبين .

« كان الله ولا شيء » وهذا الأصل مأخوذ من الحديث كان الله ولا شيء معه - ثم أوجد الموجود الأول وقد سمي أولاً ، لأنه الأولية التي ظهرت منها الموجودات ، لأن كل أيس أى كل جوهر فهو مطبوع عليه وهو عند الحكماء العقل . يقول السجزي « العقل هو أول خلق ظهر من أمر الله . . . » ولم يوجد الله في أول الحلقة غير العقل وحصر في جوهره صور المبدعات كلها ، كي لا يذهب شيء منها (١) .

وتستند الإسماعيلية هنا على الحديث الفلسفي « أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل ، فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر . . . إلخ » وهذا الموجود الأول ويسمى العقل أحياناً بالقلم ، لأن بالقلم تظهر نقوش الحلقة من الابتداء إلى الانتهاء - من العقل ينفطر التأيد في النفوس الزكية ، ومن القلم تنفطر الحروف الجامعة للكلام . ويسمى العقل أيضاً بالعرش ، ومعناه « أن إقرار معرفة التوحيد ، هو ما يتقرر في العقل من الإثبات والنفي . وبالعقل تعرف جلالة الله وعظمته عن سيات بريته ، كذلك العرش ، هو مقر لمن جلس عليه ، ويحلوسه عليه تعرف جلالته عن من هو منحط دونه ، ويقال للعقل السابق . ومعناه أن العقل أسبق لقبول آثار الكلمة قبل سائر الحدود لقربه منها ، واتحادها به . وهي ، والعلم والأمر - اللذان هما بمعنى واحد قد يجوز أن العقل فعله سبق قوته . ولم توجد هذه الفضيلة في أنسى سواه لأن جميع الحدود من دونه تسبق قواهم أفعالهم ، أما العقل وحده ، هو الذي يسبق فعله - كما قلنا قوته . وهذه خاصية للعقل وحده ليكون بها تاماً كاملاً . ويستند الإسماعيلية هنا على مبدأ أرسططاليس : وهو أن من تسبق قوته فعله لا يكمل إلا بخروجه من القوة إلى الفعل .

ويسمى العقل أيضاً عند الإسماعيلية بالقضاء . وذلك النفس - وهي الخلق الثاني بعد العقل - تقتضي - بالعقل - إدراك المعلومات ، وأن تظهر بما هو مطلوب أو سميت بالقضاء ، لأنه قضاء الله بين خلقه ويسمى العقل أيضاً بالهيولى ، لأن « بالعقل قوام ما ينبجس من الصور المستفادة ، كما أن الهيولى هي قوام الصور المستفادة من الطبيعة .

ويسمى العقل بالشمس ، لأن بالعقل نبصر الحقائق ، كما أن بالشمس نبصر المحسوسات من الصور والألوان (٢) هو المبادئ العقلية أو القوة القابلة للطائف المبروزة المنبثة دفعة واحدة فيضا » ثم

أوجد الموجود الأول من العقل أثراً منفعلاً هي النفس الكلية أو نفس العالم . والنفس - وهي الخلق الثاني المنبجس من الخلق الأول ، وإنما سميت نفساً ، لأنها تنفس دائماً للاستعادة ليكون بتواتر تنفسها قوام الحلقة ، وتسمى أيضاً باللوح ، لأن الذي انفطر من العقل من أنوار الكلمة بتطر في النفس ، ومن النفس يتصل بجريانها المنبعثة منها على مقدار صفاتها ولطافتها ، وتسمى النفس « بالملك » ومعنى ذلك أن النفس هي ملك العقل وعبدته ، لأن بالنفس ظهرت فضيلة العقل ، كما أن بالملك تظهر فضيلة الملك . وتسمى النفس لأنها الحال الثاني لجميع المخلوقين . ويقال لها التالى ، أى أنها تلو العقل في قبول آثار الحكمة ويقال للنفس القدر ومعنى هذه التسمية أن الذى يتحد بالنفس من فوائد العقل ، فإن التقدير والتحديد محاطان به . وتسمى النفس الصورة ومعنى هذا أنها تصورت من جوهر العقل الذى به تقف على فوائده . وهي العمر ، فتستفيد من أنوار العقل وضيائه ، وأنها متى همت أن تلحق به ، لتتزل منزلته ، بحق نورها ، كما أن القمر يستفيد نوره من نور الشمس ، وإذا اجتمع مع الشمس في المنزلته محقت نوره . والعقل والنفس هما الأصلان ، إليهما مرجع الأشياء جميعاً روحانياً أو جسمانياً، وهما الهيول والصورة (١) .

وتؤثر النفس أى الصورة في المادة الأرضية بقواها الإبداعية وجواهرها العقلية إنها صور الأشياء الطبيعية والجسمانية ، فظهرت الأفلاك والعناصر والأرض والسماء في أربع وعشرين ساعة بحركة كلية ، وتاهت - أى انتهت - بعد ظهورها . أو بمعنى أدق لم يعد خلق جديد . ثم إن لكل جنس من الحيوان صورة روحانية تظهر وجودها في الأجسام الهيولانية . ودارت الأفلاك واقرنت المدبرات ، فنزلت الأمطار وتساعدت البخارات ، فأثار السحاب باختلاط الاستقصات (العناصر الأربعة) وامتزاج الأمهات (الأصول) فأمرت الأرض ماء ، ثم أخرجت جثث الحيوان والبشر جميعاً وكل ما ظهر في العالم من الكثيف واللطيف والمركب - ويستند الإسماعيلية في هذا إلى قول الله « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » أى بظهور الأجساد التى هي من غير نطفة ، والأرواح بالقوة الإلهية المتكونة بالعالم الإلهي المعتدل الشريف .

أما أول بدء الكون فهو عرش الرحمن على الماء ، وقد تصاعد البخار وظهر الدخان ، فخلق من طبعه السموات والكواكب ، ومن أفعال هذه الكواكب خلق الأرض والمركبات . ويستند الإسماعيلية إلى قول الله « ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

وأوجد الله الخلق دفعة واحدة وأظهر ما في القوة إلى الفعل ، فعدت النفس الناطقة إلى أسبابها

التي لا تفسد ولا تموت ، أما النفس البهيمية ، فقد جذبها وغلبت عليها اللذة الأرضية . فإذا تخلصت من هذه اللذة ارتقت إلى العالم الشريف - عالم العقل ، واستقرت به ولحقت بعنصرها الأعظم الذي منه بدت . وفارقت الكدورات والظلمات ، وصارت صورة لطيفة دراجة ذات أنوار مضيئة .

أما بدء الأوائل في العالم فسته ( ١ ) العقل مع الدهر ( ٢ ) النفس مع الزمان ( ٣ ) الهوى مع الأركان ( ٤ ) الطبيعة مع الأجسام . ويقابل هذه الأوائل الأصلان العليان المنبعثان وهما ( ٥ ) الكلمة ( ٦ ) والأمر . فهناك إذن ستة أوائل من عالم الربوبية ويقابلهم من البشر خلق ظاهرون أى يتملكون القوة الإلهية في كل عصر وزمان ، يخرجون من البهيمية وبحر الندم . ويسمىهم الإسما عيلية الملائكة - وهم على الترتيب . أناس عالمون وأمناء مقربون ورسل مصطفون وخيرة روحانيون وأملاك مرسلون وعباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقد أخبر الله عنهم « وما منا إلا له مقام معلوم » أوكما قال تعالى « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ثم خلق الله الأرض في ستة أيام ، وخلق السابيع يوم التمام « ودل عليه نجمة حدود علوية ، وأصلين بهما تم الوجود ، ثم خلق الله لهذه الأرضين والسموات أنبياء لهم مقامات وظهور في الأزمنة والأدوار إلى تمام الميقات . ثم جعل الشمس والقمر دليلين على هذه الأرضين ، فهما أبوا هذه العوالم . وهما رمزان لمحمد ﷺ ، وعلى وقد قال الرسول لعل « أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة وعلى عائقنا لعنة الله (١) » .

فالشمس - أى محمد - هو الدليل على النور ، يخرج منه التأثير لعل ، فيقبل القمر النور من الشمس . أى يقبل على النور من محمد . وهنا نجد أيضا عليا العرجون القديم في دوراته وحركاته . ولما ابتدأ الأمر ، فاض على عالم العقل بأمر الله ، وفاض العقل على عالم النفس بأنواره ، وفاضت النفس على من دونها فامتلاً عالمها من فيض العقل الممتلئ من فيض الله ، فاضت أقطار السموات بالسموات ، وبدأت الحركات من الحركات والمديرات من الأوامر ، فقبلت فيض الأمر بما دونه من عالم الكون والفساد حتى ظهر الإنسان :

ظهر الإنسان ، مزيجاً من روح وجسد ، فخص الله بذكر الأنوار العقلية أصحاب الأنوار السنية الذين عندهم علم الكتاب : الأنبياء والأوصياء والأئمة ، فأشرقت نور الرسالة بنفوسهم المقدسة وعقولهم المنورة ، ونزل الوحي بالفيض الأمري على قلوبهم المنية . وتجمعت هذه الأنوار في الناطق ، نوات عليه الأنوار الفلكية بمواد النفس الكلية لكي يشرف على النفوس الجزئية ويظهر فيها السعادة العظمى المنبثة من العلة الأولى وليظهرها من دنس الخطيئة . فقام بالشرعة ونشر قواعدها « وهذه سنة النبيين وبداية الأمر ونزول الروحانيين إلى الجسمانيين » .

وكان آدم صاحب الدور الأول «جسماني» تعبد الله وأظهر أمره وهو صاحب الخلافة «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» وكانت حجته زوجته حواء ونقباؤه اثنا عشر ملاكاً، وهم الذين سجدوا له .

وكان نوح صاحب الدور الثاني ثم على التوالي إبراهيم وموسى وعيسى . وأخيراً أتى محمد ﷺ - وهو صاحب الدور السادس ، فسخ شريعة من قبله من النطقاء ، وقام بباطن شرائع من تقدم قبله ، «والآئمة من بعده متممون لشريعته ومحيون لسته» - قوله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» فليس بعد شريعته شريعة تنسخها . ثم نصب أساسه على بن أبي طالب ، وبأقبي بعده القائم السابع متمماً «دور القرآن العظيم» وهو خاتم الوارات العظمى ومنتهى السدود (١) . وهذه هي أيضاً أفلاطونية محدثة واضحة نجد فيها نظرية الفيض المشهورة ، وإن كان يعبر عنها بالانجاس . ونلاحظ أنه لا يوجد ثمة اختلاف بين هذا العرض الإسماعيلي لنظريتهم الميتافيزيقية إنه لا يختلف كثيراً عن تصور الشهرستاني له .

ثم نرى إسماعيلياً متأخراً وهو الكرمانى - الداعى المشهور فى عهد الحاكم الذى ينسب إليه كتابة رسائل إخوان الصفا يستخدم نفس النظرية - ويعبر عن الفيض بالإبداع والانبثاق . وترى الأفلاطونية المحدثة واضحة فى كتابه «راحة العقل» .

وقد تنبه الشهرستاني بمنهجه المقارن إلى أن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة . وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج (٢) . ومن الواضح تماماً أن أحد مصادرهم الرئيسية الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

أما البغدادي فيحاول أن يرد كتاباتهم إلى مصدر واحد هو المصدر الثنوى فيقرر أن الباطنية تذهب إلى أن الإله خلق النفس . فالإله هو الأول ، والنفس هي الثانى والاثنتان يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبع والطبائع الأربعة ويرى البغدادي أن هذا هو قول الثانوية إن النور والظلمة يدبران أمر العالم وقولهم إن الأول والثانى يدبران أمر العالم وهو عين قول المجوس الذين يضيفون الحوادث إلى صانعين (٣) .

وهذا تفسير بعيد كل البعد عن المذهب الإسماعيلي . إنه مذهب غير ثنوى قطعاً . حقاً إنه تأثر بالمجوسية أو بالثنوية فى بعض جزئياته ولكن جوهر المذهب ليس مجوسياً . ويبدو أن من الخطأ الشديد أن نرد العقائد الإسماعيلية إلى مصدر واحد . لقد أخذت مادتها من الفلسفة اليونانية - كما صورها

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٧١-١٧٢ .

(٢) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٧ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦ .

المسلمون ، مزيجاً من فلسفات أفلوطين وأرسطو والفيثاغورية الجديدة وعقائد مسيحية ويهودية . ولاشك أن بعض العناصر المجهسية دخلت في خلال هذا . ولكن القول بأن نظرية العقل الكلي والنفس الكلية هي نظرية ثانوية فليس بتحقيق . إنها نظرية أفلاطونية محدثة . استخدمها دعاة الإسماعيلية ، كما استخدموا نظرية الفيض الأفلاطونية . أما أهم المصادر للإسماعيلية ، في مختلف صورها ، فهو الفيثاغورية المحدثه مختلطة بأفلوطينية .

ويتضح هذا من تفسيرهم الهام للشرائع نفسها في صور أعداد ترمز إلى أئمة وحجج وأسس ، وتولية هؤلاء « قالوا ما من فريضة أوسنة أو حكم من أحكام الشرع - من بيع وإجارة وهبة ونكاح وطلاق ، إلا وله وزن من العالم عدداً في مقابلة عدد ، وحكماً في مطابقة حكم ، فإن الشرائع عوالم روحانية أمرية ، والعوالم شرائع جسمانية خلقية ، وكذلك التركيبات في الحروف والكلمات على وزن تركيبات الصور والأجسام والحروف المفردة نسبتها إلى المركبات من الكلمات كالبسائط المجردة إلى المركبات من الأجسام ، ولكل حرف وزان في العالم وطبيعة يخصها ، وتأثير من حيث تلك الخاصية في النفوس » وترى الإسماعيلية الباطنية أن معرفة أسرار الأعداد ، وما ترمز إليه من شريعة أصبحت « علماً تعليمياً » أي يؤخذ من الإمام ، وهذا العلم المستفاد من الإمام هو غذاء النفوس ، كما أن الأغذية المستفادة من الطبائع الخلقية غذاء للأبدان ، وقد قدر الله تعالى أن يكون غذاء كل موجود مما خلقه منه . وقد أدى هذا العلم التعليمي إلى قيام الأئمة الباطنية الإسماعيلية وحججهم « بذكر أعداد الكلمات والآيات ، وأن التسمية مركبة من سبعة واثني عشر » أي الأئمة السبعة والنقباء الاثنا عشر . « وكذلك في كل آية أمكنهم استخراج ذلك » . وهذا هو تأثير القبالة اليهودية في المذهب الإسماعيلي وقد كانت القبالة متشرة في العالم الإسلامي .

كان هذا المنهج الباطني في تفسير الآيات ديدن الأئمة الإسماعيلية ، وقد أرجعوه إلى علم إمام الزمان الذي يعرف وحده « موازنات هذه العلوم ، ويهتدى إلى مدارج هذه الأوضاع والرسوم » (١) . كان هذا المنهج الباطني سلاحاً ذا حدين ، هو إما أن يتجه إلى تثبيت الإسلام الشيعي الإسماعيلي أو الاثنى عشرية وإما إلى محاولة القضاء على الإسلام كله ، وبخاصة في الأماكن البعيدة عن مركز الدعوة في سلمية كالبين مثلاً أو الجهات البعيدة في فارس . بل سراه أيضاً قريباً من سلمية في جنوب العراق وشمالها يتخذ تلك الصورة للفريدة في نوعها وهي صورة حركة هزت العالم الإسلامي - وهي صورة القرامطة ، كما سرى في أيدي الدعاة كأحد الكيال حركة فلسفية خطيرة . وستابع في الفصول المقبلة الصور المختلفة للفلسفة الإسماعيلية أو للفلسفات الإسماعيلية .

## الفصل الثالث

### الإسماعيلية في اليمن

تولى الإمامة الإسماعيلية بعد الإمام أحمد ابنه الحسين ، وقد تلقب بالمقتدى وبالزكى . وقد اختلف آراء الباحثين في حجته - كما نرى بعد . ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن ميمون كان حجته في أخريات حياته - ويقال إن ابنه حسين بن عبد الله بن ميمون كان هو حجته ، ولكن المؤرخين يذكرون أن حسيناً مات في حياة أبيه عبد الله بن ميمون - والبعض يرى أن حجته كان أحمد بن عبد الله بن ميمون والآخر يرون أن حجته هو محمد بن أبي الشلعل - من أبناء عبد الله أيضاً ، وإن فحص هذه الأسماء إنما يهم البحث التاريخي - أما نحن هنا ونحن وراء الأفكار الفلسفية ، فيمكننا أن نقول إن الإمام الحسين تولى زعامة الإسماعيلية ، وكان أحمد بن عبد الله القداح حجته ، سواء أكان أحمد هذا الابن الأكبر لعبد الله بن ميمون أم لا ، أم كان هو أبا الشلعل وإن هذا الإمام كان على جانب كبير من العلم والثقافة ، وأنه كتب « الجامعة » شرحاً لرسائل إخوان الصفا . وقد تمكن هذا الإمام بواسطة دعائه وحججه أن ينشر دعوته في أرض سبخة للمذهب الإسماعيلي على الخصوص - وهى اليمن . وقد اختار عبد الله بن ميمون القداح للدعوة رجلين كان لهما شأن كبير في تاريخ اليمن . أما أولهما : فهو القاسم ، رستم بن الحسين حبيب بن زاذان <sup>(١)</sup> التجار الكوفي المشهور بابن حوشب . كان أبوه من الشيعة الإمامية ، وكان يدعى الانتساب أيضاً إلى ولد مسلم بن عقيل كما فعل عبد الله بن ميمون من قبل من الانتساب إلى بنى عقيل <sup>(٢)</sup> تمكن عبد الله بن ميمون ، ثم ابنه حسين من بعده من جذب الرجل إلى المذهب الإسماعيلي ، وقد لقناه علم النجوم وعلوم الفلسفة حتى برع الرجل في كل تلك العلوم . وكان أبناء القداح يعدونه للدعوة في اليمن . وكانت الدعوة في اليمن تسير بحذر وببطء ، ولكن كان لها بعض المراكز ، وبعض العيون ، وما لبث عبد الله بن ميمون أن علم بزيارة أحد كبار رجال الشيعة الإمامية اليمنيين للمشاهد المقدسة في كربلاء وهو على بن فضل الجندى - وهو يتسب إلى قبيلة يمنة كبيرة . وخرج الإمام حسين الإسماعيلي لمقابلته . وأمام قبر الحسين كان على بن فضل يركى الحسين ابن فاطمة وينوح ويقول : بأبى أنت يا ابن الزهراء المضرج بالدماء ، الممنوع من شرب الماء :

(١) يرى بعض المؤرخين أنه ابن دندان وأنه ابن حفيد لدندان الشمرى الخطير .

(٢) الهامد النجاشي : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٢ .

وما لبث عبد الله بن ميمون وابنه الحسين أن قابلاه - وقابل على بن فضل - فيما بعد - الإمام حسين . واعتنق ابن فضل الدعوة الإسماعيلية وجمع ابن ميمون الاثنين ابن حوشب وابن فضل وأخذ يلقيها دروس الدعوة .

يذكر اليماني أن ابن ميمون قال لابن حوشب : يا أبا القاسم إن الدين يمانى والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من اليمن ، فإن يكون ثابتاً كثبت نجم النجم ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى أقاليم الدنيا ، ولا بد من خروجك إلى هناك أنت وأخوك على بن فضل اليماني (١) ، فيكون لكما شأن ومملك وسلطان في اليمن فكونا على أهبة ، وخرج الاثنان إلى اليمن عام ٢٦٧هـ - وهو عام افتتاح الدعوة الإسماعيلية الرسمي ، وأخذ كل منهما يدعو في ناحية منها وما لبث ابن حوشب أن اتخذ « دار هجرة » كما يفعل الدعاة الإسماعيليون عادة ثم نجح نجاحاً باهراً ، وتسمى بمنصور اليمن ، ومملك معظم أراضيه بحيث يقول الداعي الخطاطب بن الحسين « كان بمثابة القمر المنقش ، وبه كشف الله عز وجل عن الأولياء الغمة ، وأثار حنادس الظلمة (٢) » .

وقد أصبحت إمارة بن حوشب بعد ذلك مدرسة للدعاة ، ومنها أرسل ابن حوشب الداعين المشهورين الحلواني وأبا سفيان إلى المغرب وقد تعلموا في مدرسة الدعوة في اليمن أصولها : كما تعلموا التفسير الباطني للقرآن . ثم ودعها ابن حوشب بقوله « قولاً لكل شيء باطن . واذها بالمغرب أرض بور ، فاحرثاها وأكرباها ، حتى يأتي صاحب البذر » وصاحب البذر هو الداعي الأكبر أبو عبيد الله الشيعي . وقد استجاب لها أهل كتامة . فلما توفى الداعيان ، أرسل ابن حوشب أبا عبد الله الشيعي المشهور . وقد مهدت له الأرض ، فكان ثمرة مجهوداته إنشاء الدولة الفاطمية . وقد بقي ابن حوشب مخلصاً للدعوة الإسماعيلية ، ثم لعبيد الله المهدي حتى وفاته .

وينبغي أن نلاحظ أن ابن حوشب اتخذ في أول الأمر ستاراً سنياً ، ثم بدأ يبت دعوة التأويل ، وحين جذب الأتباع ، وأقام دار الهجرة أعلن عقيدته الإسماعيلية كاملة ، وهي موالاته الإمام الإسماعيلي ، طبقاً لفكرة الدور السبعي ، ثم بقية المذهب في صورة معتدلة ، ولكنها لم تمنع اليماني من أن يدعو بالقرمطي . وكان اليماني من أشد الناس على الإسماعيلية . إنه يرى أن ظهور الميمنية القداحية كان في الكوفة على يد عبد الله بن ميمون القداح عام ٢٧٦هـ « وما كان له من الأخبار المعروفة والمنكرات المشهورة الموصوفة ودخوله في طرق الفلسفة ، واستعماله الكتب المزخرفة ، وتمشيته إياها على الطغام ومكيدته لأهل الإسلام » .

(١) اليماني : كشف... ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الخطاطب بن الحسين : غابة المواليد ص ٣٩ .

ويرى أنه جعل لكل آية من كتاب الله تفسيراً ، ولكل حديث عن رسول الله ﷺ تأويلاً ، وزخرف الأقوال ، وضرب الأمثال ، وجعل لآي القرآن شكلاً يوازيه ، ومثلاً بضاهيه ، وأنه كان على علم بعلم التنجيم والفلك .

أما أساس دعوته فهي الدعاء إلى الله وإلى رسوله في ظاهر الأمر ، ويحتج بالقرآن ومعرفة مثله ومثوله ، كما كان يقرر موالاته على بن أبي طالب بالتقديم والإمامة ، والظعن على جميع الصحابة باللب والأذى .

تلك هي الدعوة التي حملها ابن حوشب إلى اليمن عن أستاذه عبد الله بن ميمون أو ابنه الحسين بن عبد الله أو ابنه عبيد الله - أو الإمام الحسين نفسه الإسماعيلي . ولكن هل كان ابن حوشب - فيما سوى ذلك يبيح الفروج . إن اليماني يذكر أنه كان يقول بعد انتصاراته الكثيرة « والله ما أخذت هذا الأمر بمال ولا بكثرة رجال وإنما أنا داعي المهدي الذي بشر به النبي ﷺ » ولكنه يذكر أنه حين استولى على جبل مسور بنى حصناً وبني فيه داراً أسماها دار التحية « فعند ذلك أحل ما حرم الله ، وكان يجمع أصحابه في ذلك القصر ونساءهم يرتكبون الفواحش (١) .

هل من السهولة بمكان أن نصدق هذا . وهل يعقل أن يفعل هذا في وسط بطون عربية يمانية ؟ . وهل كان ابن حوشب داعياً للقдах أو داعياً للإمام الحسين نفسه ؟ ولماذا بقي على ولائه للفاطمين وكانوا بعيدين عنه ، وكان هو صاحب السلطان في اليمن ؟ هل كان يعلم أنه يعمل لرجل يقول عنه اليماني : كان القдах يعتنق اليهودية ويظهر الإسلام ، وهو من اليهود ومن ولد الشلعلع من مدينة بالشام يقال لها سلمية وكان من أحرار اليهود وأهل الفلسفة الذين عرفوا جميع المذاهب وكان صانعاً يخدم شيعة إسماعيل بن جعفر وكان حريصاً على هدم الشريعة المحمدية لما ركب الله في اليهود من عداوة الإسلام وأهله والبغضاء لرسول الله (٢) .

هل كان ابن حوشب من الجهالة والحماقة بحيث يتبع رجلاً يهودياً بمجرد أنه عارف بالفلسفة وأحكام النجوم ، فيخرج إلى بلد بعيد ، يخارب ويقاتل وينشئ دولة لأجله ولأجل أولاده . إن الخل الصحيح أن ابن حوشب أرسل من لدن الإمام الحسين نفسه بعقيدة إسماعيلية خاصة ، ولو لم يكن معتقداً أنه على الحق لاحتذى حذو علي بن فضل حين خرج على المهدي عبيد الله وادعى الأمر لنفسه وأعلن نبوته . إنه لم يفعل هذا . بل حارب غلو علي بن فضل . وهذا يدل على أن الرجل لم يكن غالباً إسماعيلياً ، وإنما كان من رجال الإسماعيلية المعتدلة .

» » »

(٢) الحمادي اليماني : كشف أسرار . ص ١٧ ، ١٨ .

(١) الحمادي اليماني : كشف . ص ٢٦ - ٢٧ .



أما الشخصية الثانية : وهى شخصية على بن فضل الجدنى ، وبينما كان ابن حوشب عراقياً ، كان ابن فضل يمينياً . وقد قال هو نفسه للقداح حين دعاه فى الكوفة « والله إن الفرصة ممكنة باليمن ، وإن الذى تدعو إليه جائر هنالك ، وناموسنا يمشى عليهم ، وذلك لما أعرف فيهم من ضعف الأحلام وتشيت الرأى وقلة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية (١) . وحين عاد على بن فضل إلى اليمن ، ذهب إلى سرو يافع وبنى مسجداً على رأس جبل فيها ، « وأخذ بالنسك والعبادة فكان نهاره صائماً وليله قائماً . فأتوا إليه وأحبوه وافتنوا به ، ثم إنهم قلدوه أمرهم وجعلوا حكمهم إليه ، فسألوه أن ينزل من ذلك الجبل ، ويسكن بينهم . فقال : لا أفعل هذا ، ولست أسكن بين قوم جهال ضلال ، إلا أن يعطونى العهد والميثاق أن لا يشربوا الخمر - ففعلوا ذلك وأنهم ينكرون المنكر وينكرون على أهل المعاصى بأجمعهم ، فلم يزل يخذلهم بعبارته حتى بلغ إلى إرادته (٢) .

ونحن نعلم أن غلاة الشيعة دائماً يدعون التقشف والتزهد ، ولذلك أطاعه اليمنيون ، فاتخذ دار مجرة فى سريافع وبدءوا يتخطفون بلاد اليمن « جهاداً لأهل المعاصى حتى يدخلوا فى دين الله طوعاً وكرهاً » وأخذ أيضاً « القرمطى » يتحكم فى الجانب الآخر من اليمن .

وكان ابن فضل يعمل باسم الإمام المستور الحسين ، فلما مات الإمام الحسين - كما سئرى بعد - واستخلف حجة عبيد الله المعروف بالمهدى - وهو ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وجعله إماماً مستودعاً لابنه القائم - لم يررض ابن فضل ، كما لم يررض حمدان بن الأشعث المشهور بجمدان قرمط ، ولذلك حين أتى فيروز - باب أبواب الدعوة - متقلباً على عبيد الله المهدى ، وهاربا من ابن حوشب وجد لدى على بن فضل أمنا وحماية . ولما نتكلم هنا عن الدوافع التى أدت إلى هرب فيروز - باب الأبواب وكبير الدعاة وأستاذ ابن حوشب داعى اليمن وأستاذ أبى عبد الله داعى مصر وصهره - ولما نهم هنا بمحاولة فيروز إغراء ابن حوشب . إنما ما يهمنا هنا أن على بن فضل الجدنى أعلن ثورته عام ٢٩٩ هـ - منفصلاً عن الخلافة الفاطمية الجديدة - وحاربه ابن حوشب ، ولكن ابن فضل تغلب عليه . وحين أعلن ابن فضل دعوته تبرا منه أيضا فيروز .

ولكن ما هى هذه الدعوة التى أعلنها على بن فضل ؟ إن مصدرنا الهام فى هذه الفترة وهو محمد بن أبى الفضائل الحمادى البجلي - وهو أحد فقهاء السنة فى أواسط المائة للهجرة ، عاصر الصليحيين ، وهم بقايا إسماعيلية ابن حوشب وابن فضل - يقدم لنا أخباراً على جانب كبير من الأهمية عن انسلاخ على بن فضل عن الدعوة الإسماعيلية ، ثم عن الإسلام نفسه .

(١) البجلي : كشف... ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

إن الرجل الذى بدأ إمامياً ثم انقلب إسماعيلياً ، ما لبث أن خلع كل عقيدة وأعلن نبوته ، فكتب إليه ابن حوشب يعاتبه ، فأرسل إليه على بن فضل « إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها ولى بأبى سعيد الجنائى أسوة ، لأنه خلع ميموناً وابنه ودعا إلى نفسه ، وأنا أدعو إلى نفسى . فإما نزلت على حكى ودخلت فى طاعتى وإلا خرجت إليك » (١) .

أعلن على بن فضل - فيما تقول المصادر السنية والشيعة التى بين أيدينا - نبوته ثم ألوهيته وتسمى باسم « رب العزة كما تسمى ابنه باسم « ابن رب العزة » .

بل يذكر اليمنى الحمادى - أنه أنشأ مجتمعاً إباحتياً أحل فيه البنات والأخوات . ووقف شعره على منبر الجامع يقول للجنود :

|                           |                         |
|---------------------------|-------------------------|
| خذى الدف يا هذه والعبي    | وغنى هزاريك ثم اطرى     |
| تولى نبي بنى هاشم         | وهذا نبي بنى يعرب       |
| لكل نبي مضى شرعة          | وهذى شرائع هذا النى     |
| فقد حط عنا فروض الصلاة    | وحط الصيام ولم يتعب     |
| إذا الناس صلوا فلا تنهى   | وإن صاموا فكلى واشرى    |
| ولا تطللى السعى عند الصفا | ولا زورة القبر فى يثرب  |
| ولا تمنى نفسك المعرسين    | من أقرى ومن أجنبى       |
| فكيف تحلى لهذا الغريب     | وصرت محرممة للأب        |
| أليس الغرام لمن ربه       | وسقاه فى الزمن المجذب   |
| وما الحمر إلا كماء السماء | حلالا فقدست من مذهب (٢) |

أعلن على بن فضل نبوته . كما أعلن انتهاء الشريعة الإسلامية وأحكامها ، إن صح هذا الشعر المنسوب إلى شاعره . فهو إذن صورة من غلاة الكوفة ، الذين أقاموا فى عهود سابقة مجتمعات إباحتية . ولكن نلاحظ أن على بن فضل كان يعيش فى بيئة عربية خالصة ، بيئة تحافظ على العرض وتقده . فهل من البساطة أن نقبل أنه « كان لهم المشهد الأعظم ، لا يشهده إلا من دفع للداعى قربانه ، فإذا جن الليل ، ودارت الكؤوس ، وطابت النفوس . وقد أحضر جميع أهل الدعوة نساءهم وحریمهم فدخلن عليهم وقد أطفئوا السرج ، فiaخذ كل واحد من تقع فى يده - ويقع عليها ، فتطلق بشكر الداعى على من أفاء من فضل ، : ليس إلا من فضل أمير المؤمنين ، فاشكروه ولا تكفروه على

(١) الجنائى : كشف ص ٣٣ .

(٢) الجنائى : كشف... ص ٣١ .

ما أطلت من وثاقتكم ، ووضع عنكم أوزاركم ، وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالككم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، نستطيع أن نفهم حدوث هذا فى مجتمع مختلط كالكوفة وسوادها لدى القرامطة - وإن لم يصح هذا فعلاً عنهم ، أو فى البحرين ، ولم يصح أيضاً هذا عنهم - وفى بقايا الثبوت الغنوصية فى فارس . وقد صح هذا عنهم - ولكن لا نستطيع إطلاقاً أن نصدق أن يعلن على بن فضل مذهب الإباحة فى المجتمع العربى اليمنى ، إن من الثابت ادعاءه للنبوة - فهو صورة أخرى من المتنبى القديم «مسيلمة الكذاب» ولكن لا نستطيع أن نصح الرجل بالإباحة . وقد أدى عداؤه للفاطميين وللحواشب إلى قتله بالسهم عام ٣٠٣هـ بعد وفاة زميله القديم وعدوه الجديد ابن حوشب عام ٣٠٢هـ .

مات القرمطيان إذن بعد أن اختلفا . وتولى الفأفأ بن على بن فضل والمدعو «بابن رب العزة» الإمارة بعد أبيه ولكن هجمات السنة والزيدية عليه قد اشتدت وقد انتهت بمقتله وسى بنات على بن فضل .

أما إمارة منصور اليمن ابن حوشب فقد ولى عبيد الله المهدي تابع ابن حوشب عبد الله بن عباس الشاورى الإمارة ، فقتله أبو الحسن بن حوشب وعاد إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وتتبع القرامطة من أتباع أبيه فقتلهم «ثم قتل أولاد ابن حوشب وأسرته فى تاريخ لا يعيننا كثيراً . ولكن هل ماتت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن ، لقد عادت مرة ثانية إلى كهف الاستتار . «وانكم أمرهم عن الحكام» وأول من تعرف من الدعاة الجدد هو ابن رحيم فى عهد المعز «وكان لا يستقر فى موضع واحد . . . وهوى كاتب بنى عبيد وذلك بعد خروج المعز من القيروان إلى بلاد مصر . . فلم يزل ابن رحيم يكتاب أهل مصر والمعز ومن بعده وينهى أخبار أهل اليمن حتى مات واستخلف على من بقى من القرامطة يوسف بن الأمشع - وكان يدعو للحاكم ويباع له سراً ، حتى مات يوسف . واستخلف على مذهبه سليمان بن عبد الله الرواحى من حمير - وكان يدعو إلى الحاكم وإلى المستنصر ، وكان سليمان من أغنياء أهل اليمن ، فتمكن بقاءه وثروته من أن يجذب إليه كثيرين من الأتباع ويقيم مجتمعاً إسماعيلياً للمرة الثانية فى اليمن .

وقد استطاع سليمان أن يجذب إليه أبا الحسن على بن محمد الصليحي ، وكان على بن محمد ابناً لقاضى سنى مشهور باليمن وهو محمد بن على الصليحي ، وقد استطاع الرواحى التأثير فى الابن - وهو دون البلوغ . وكان يدرسه الذخائر القديمة ويخبره أن أمره بهذه الكتب ، وأنه سيملك اليمن (١) . ثم مات الرواحى ، وأوصى بالدعوة للصليحي ثم اجتمع الإسماعيلية حواليه ، وأرسل يستأذن المستنصر

بالخروج ، فأذن له ، فلك الين وأنشأ الدولة الصليحية .  
وهنا نرى الدعوة الإسماعيلية تعود مرة أخرى وتحكم الين عام ٤٣٩ . وقد بقيت الدولة الصليحية حتى قضى عليها صلاح الدين الأيوبي ولم يبق من آثارها إلا قبيلة يام وهي إلى اليوم باطنية تنتمي إلى بهرة الهند .

ما هي الدعوة الإسماعيلية الصليحية ؟ يبدو أنها هي الدعوة الإسماعيلية الفاطمية ، ويقول اليماني عن الصليحي وقد عاصره « إن له نواباً يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالمكليين ، تشيهاً لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبال . » وأنه رفع الشرائع الإسلامية من الصلاة والزكاة والصيام . وهذا بعيد التصديق . ثم يحدد الناس بروايات عن النبي ﷺ معرفة وأقوال مزخرفة ، وتلون عليهم القرآن على غير وجهة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه « أى أنهم لجأوا إلى منهج التأويل الباطني للقرآن » فيبينون للناس رموز القرآن ومثله ومثوله ومعاني الصلاة والطهارة . ثم يجرون من يدعونه « إن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات محجوبة ، فأعرف الصلاة وما فيها ، وقف على باطنها ، ومعانيها فإن العمل بغير علم ، لا يستفيع به صاحبه فالزكاة مفروضة في كل عام ، وكذلك الصلاة . من صلاها مرة في السنة ، فقد أقام الصلاة بغير تكرار » وللصلاة وللزكاة باطن ، لأن الصلاة صلاتان والحج حجان . واحد باطن وواحد ظاهر ، وما من ظاهر إلا وله باطن . إن الله يقول « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » ويقول « إنما حرم رى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » فلكل شئ ظاهر وباطن . والظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الجميع خاصهم وعامهم ، أما الباطن فلا يعرفه إلا الخاصة المختارون « وما آمن معه إلا قليل » « وقليل ما هم » « وقليل من عباد الشكور » فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم . وهذا يذكرنا بقول عبد الله بن ميمون عن الجمهور إنهم الحمير .

والصلاة والزكاة سبعة أحرف دليل على محمد صلى الله عليه وعلى . فالمعنى بالصلاة ، الزكاة ولاية الرسول وابن عمه . فن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة . ويقول اليماني - إنهم بهذا يؤثرون في خلق كبير من الناس « لأنه مذهب الراحة والإياحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ويبيح لهم ما خطر عليهم من محارم الله » .

فإذا قبل المدعو هذه العقائد ، يطلب الداعي منه قرباناً « يكون لك مسلماً ونجوى ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة ويضع عنك هذا الإصر » فإذا دفع رفعت عنه الصلاة . وقرأ الداعي له « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » ثم يقبل أهل الدعوة الآخرون فيهنثونه ويقولون : الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك .

ثم يرفع عنه تحريم الحمر والميسر ، ويخبره الداعي أنها رمزان لأبي بكر وعمر لخالفتهما لعل وظلمهما

له وأخذها الخلافة منه . أما الخمر المعصورة فهي حلال ، ويتلو « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويتلو « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » فأحل لهم الميتة ولحم الخنزير .

أما الصوم فيفسره الداعي بأنه « الكتان » وتفسيره الآية : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » أى كتان الأئمة في وقت الاستتار خوفاً من الظلمة . ويجدون مصداقاً لقولهم قول مريم « إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » ، فلو كان الله عني بالصيام ، ترك الطعام ، لقال : فلن أطعم اليوم شيئاً ، فالصيام إذن هو الصموت عن الكلام .

أما الطهارة ، فهي طهارة القلب في التأويل الصليحي « إن المؤمن طاهر بذاته ، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره » أما الجنابة فهي موالاة أصدقاء الأنبياء والأئمة وعدم معرفة العلم الباطن . ويفسر الداعي معنى « وإن كنتم جنبا فاطهروا » معناه « فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا والعلم الباطن هو حياة الأرواح - وهو الماء الذى هو حياة الأبدان . قال الله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حى » وقول الله « فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق » فلما سباه الله بهذا ، دل على طهارته . ثم تأتى المرحلة الأخيرة - منتهى الأمر وغاية السعادة - فيتلو الداعي « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » فيقول المخدوع « أحمى إياها ودلنى عليها » فيتلو عليه « قد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ثم يقول له « أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا لا فيقول : وكيف لى ذلك ؟ فيتلو عليه « وإن لنا للآخرة والأولى » ، ويتلو عليه « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » والزينة هنا ما أخفى على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك . وذلك قوله « ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن » والزينة مستورة . غير مشهورة . ثم يتلو قول الله « وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » . فمن لم ينل الجنة في الدنيا - في نظر الباطنية الصليحية - لم ينلها في الآخرة ، لأن الجنة مخصصة بها ذوو الأبواب وأهل العقول ، لأن المستحسن من الأشياء ما أخفى . ولذلك سميت الجنة جنة ، لأنها مستنجة ، وسميت الجن جنّاً لاختفائهم عن الناس ، والجنة المقبرة لأنها تستمر فيها ، والترس المحن لأنه يستتر به ، فالجنة هاهنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقل . ثم يدعى هو وزوجته وبناته إلى المشهد الأعظم <sup>(١)</sup> - وقد سبق أن وصفناه في عقائد ابن فضل - حيث يفترس الرجل أى امرأة يضع عليها .

هذا ما نقله إلينا الإمامي عن الصليحيين ، كما نقله عن ابن حوشب وابن فضل . والمشكلة : هل

نستطيع ببساطة أن نصدق قيام المذهب الإباحي في اليمن ؟ وهل يمكن للصليحي أن ينشئ دولة هو وأولاده في بقعة عربية صميمة على هذا الأساس ؟ وهل سن المعقول أن يقاتل أتباعه في هذه القرون الحقيقة دفاعاً عن عقيدة إباحية ؟ وهل كان المستنصر في مصر يقر هذا ، وفقهاء السنة ومشايخهم وفقهاء الشيعة الإمامية والزيدية له بالمرصاد ؟

ومن العجب أن ابن خلكان وهو ينقل لنا حياة علي بن محمد الصليحي ، يقول عنه « كان فقيراً في مذهب الإمامية مستبصراً في علم التأويل ، ثم إنه صار يحج بالناس دليلاً على طريق السراة » ثم حين استولى على اليمن - ذهب إلى الحج . فقتله معيد بن نجاح صاحب تهامة في الطريق (١) .

(١) ابن خلكان : وفیات ج ٢ ص ٧٣ - ٧٥

## الفصل الرابع

### القرامطة

### أو تطور الكيسانية

اختلف الباحثون في تفسير كلمة « القرامطة » والتفسير الشائع لها أنها نسبة إلى حمدان بن الأشعث الكوفي الملقب بقرمط ، وأنه سمي بقرمط لقرمطة في مشيته . أو أنه كان يتقارب في خطاه . وقيل إنه أحمر البشرة فلقب بقرمط ، وكرمت هي الآجر في لغة الروم والعرب فقبل قرمد من قرمط ، ويذكر أيضاً أنه كان أجاراً أى صانع الآجر .

وقد ذكر ابن الجوزي الروايات المتعددة التي ذكرت في سبب التسمية بالقرمطة <sup>(١)</sup> . ولكن ظهور بعض الرمائل الدرزية الأخيرة ، وسعود إلى هاتين الرسالتين فيما بعد - سيلقي الضوء الحاسم على ظهور اسم القرامطة في أواخر القرن الرابع الهجري وفي أوائل القرن الخامس . وعلى أية حال فالقرمطة إن لم تكن باسمها ، بل بمعناها إنما نشأت على يد حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط في سواد الكوفة في العقود الأخيرة من القرن الثالث الهجري وأصبحت في كتب أهل السنة والجماعة تمثل الهرطقة والإلحاد والتحلل والفوضى ، وتشير إلى المذهب الإسماعيلي ، بالرغم من اختلافاتها الجوهرية مع الإسماعيلية في كثير من الفترات . أما القرامطة أنفسهم فقد اعتبروا القرمطة الحركة العظيمة التي تظهر بين الحين والحين ، تلقى في العالم الإسلامي بذور الإصلاح . وقد اختلفت آراء الباحثين قديماً وحديثاً في حقيقة هذه الحركة ، والباعث عليها ، هل هي حركة عقائدية فارسية آرية تجاه الدين السامي - الإسلام - وقد تهافت هذه الفكرة أمام الحقيقة الواضحة وهي أن العدد العديد من العرب في العراق والشام واليمن قد أبدوها تأييداً كاملاً . أم هي حركة شيعية إسماعيلية آمنت بأحقية الفرع الإسماعيلي وقامت للدفاع عنه . ولكن يبدو أنها اعتنقت في فترات للمذهب الإسماعيلي ، ثم اختلفت معه . أشد الاختلاف حين استطاع الأئمة في سلمية إقامة الدولة الفاطمية في المغرب ، ومهما قيل في أصل الأئمة ، ومهما قيل إنهم أظهروا في أثناء خلافتهم المذهب الظاهر وأخفوا المذهب الباطن ، فإن الدولة الفاطمية كانت دولة إسلامية شيعية ، لم تخرج أبداً عن نطاق الإسلام ، اللهم إلا في عهد الحاكم - وقد قتله الفاطميون أنفسهم .

(١) ابن الجوزي : تليس إيليس ص ١٠٤-١٠٥ .

وأخيراً - يحاول سيد المؤرخين المعاصرين العرب الباحث العراقي الممتاز الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري أن يبين أهمية العامل الاقتصادي في قيام الحركات الشيعية المتطرفة في أواخر الدولة العباسية . وهو يتفق مع الأستاذ برنارد لويس في « أن التمايز بين العرب والموالي حل محله تمايز على أساس اقتصادي وصار الحزب الشيعي الثوري يضم تحت لوائه كل الطبقات المظلومة ، فالبلاء الفرس اعتنقوا مذهب السنة ، بينما العرب الفقراء في العراق والشام والبحرين اتبعوا الغلاة من الشيعة ، ثم يرى الدكتور الدوري أن لويس يتطرق في كتابه أصول الإسماعيلية إلى التدابير الاشتراكية التي اتخذها القرامطة في العراق والبحرين ولكنه لم يبحث الأسس الاقتصادية ، ولم يتعد تلخيص ما ذكره ابن رزام عن تدابير حمدان في العراق وما ذكره ناصر خسرو عن تدابير قرامطة البحرين . إذ أن الأستاذ لويس لم يعن بالناحية الاقتصادية - على خطورتها - العناية اللازمة فالدكتور الدوري يوجه الأنظار إلى أهمية العامل الاقتصادي الهام في ظهور حركة القرامطة في كتابه « الحياة الاقتصادية في العراق في القرن الرابع الهجري » و « دراسات في العصور العباسية المتأخرة »<sup>(١)</sup> وإلى أوجه أنظار الباحثين في مصر بالذات إلى أبحاث الدوري التاريخية المتعددة .

وإذا انتقلنا إلى الكوفة وسوادها - مسرح القرامطة الأول - لوصح أن حمدان بن الأشعث هو أول من لقب بقرمط - لكانت الكوفة إمامية في مجموعها لاشك . ولكن الغلاة كانوا هناك دائماً ، غير أن هناك فرقة من الغلاة كانت لا تقل أهمية في العدد عن المجموعة الإمامية الكبرى - وهي الكيسانية حنفية كانت أو أبا هاشمية - وقد شاركت الكيسانية في كل الحركات الغالية ، ورأينا كيف وقعت في يد الراوندية أو الأبي مسلمية . وفي كل مرة يعود الثائرون المهزومون إلى ديارهم في سواد الكوفة يعملون في الحرف والصناعات . وتكونت منهم النقابات ، ونحن نعلم أن النقابات كانت شيعية أو أقرب إلى الشيعية . وقد اتخذت شيعياً لها سلمان - الركن الشيعي القديم .

وكان حمدان بن الأشعث على رأس هذه النقابات وقد اشتهر - ككثير من رؤساء النقابات ومن يحملون على عاتقهم مسؤولية الطبقات الفقيرة العاملة - بزهد : كما اشتهر أيضاً بقصر قامته وقصر رجليه وتقارب خطوه ، فدعى بقرمط في بعض الروايات كما قلنا . كما اشتهر باسم صاحب الحال والمدثر والمطوق وكان المبارك المشهور قد أتى وبث دعوته في الكوفة ، لإسماعيل ولمحمد بن إسماعيل ولذريته ، ولا شك أنه رنا بعينيه إلى السواد وإلى الكيسانية أو الحنفية المنتشرة فيها . ولكن لا يبدو أنه اتصل بهم اتصالاً مباشراً أو أن مؤسس الإسماعيلية ميمون القداح قد اتصل بهم ، وإنما تم على يد الحسين الأهوازي - مبعوثاً من قبل أبيه عبد الله بن ميمون .

(١) مقدمة الدكتور عبد العزيز الدوري لأصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (الترجمة العربية) ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ .



ولقد بقيت لنا عقائد الحنفية أو الكيسانية في هذه وهى العقائد التى بدأت على يد هند الناعطية ولى بنت قمامة المزنية وغيرها من الغاليات والغلاة في محمد بن الحنفية وأولاده . فلم يكن مقتل المختار إذن نهاية لعصر محمد بن الحنفية وأولاده ، ولم يكن تسليم أبى هاشم بن محمد الحنفية الوصية للعباسيين كما ادعى العباسيون - نهاية الكيسانية .

وننقل إلينا الطبرى شذوراً من هذه العقائد عن كتاب للحنفية جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : يقول الفرج بن عثمان - وهو من قرية يقال لها نصراته داعية إلى المسيح : وهو عيسى وهو الكلمة ، وهو المهدي أحمد بن محمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل . وذكر (أى فى الكتاب) أن المسيح تصور فى جسم إنسان . وقال له : إنك الداعية وإنك الحاجة . ولك الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك روح القدس ، وإنك يحى بن زكريا » .

ثم يقدم لنا الكتاب فرائض جديدة « عرفه أن الصلاة أربع ركعات - ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها . وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول : الله أكبر - الله أكبر - أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن آدم رسول الله . وأشهد أن نوحا رسول الله . وأشهد أن إبراهيم رسول الله . وأشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وهى أن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح . ويذكر أنها من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية . ومعنى هذا أنه وجد أيضاً كتاب منزل على أحمد بن محمد بن الحنفية .

ثم يذكر الكتاب أن القبلة هى إلى بيت المقدس والحج إليه والسورة أى الاستفتاح من هذا الكتاب المنزل « الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه . قل إن الأهله مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلم عدد السنين والشهور والأيام ، وباطنها أوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى اتقونى يا أولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم . وأنا الذى أحمد عبادى وأمتحن خلقى ، فمن صبر على بلائى وعنتى واختبارى ألقته فى جنتى ، وأخلدته فى نعمتى ، ومن زال عن أمرى وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى - وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على السنة رسلى وأنا الذى لم يعمل على جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذلته ، وليس الذى أصر على أمره وداوم على جهالته وقالوا لن نبرح عليه عاكفين ، وبه مؤمنين ، أولئك هم الكافرون . ثم يركع ويقول فى ركوعه : سبحان ربى رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون . يقولها مرتين . فإذا سجد قال الله أعلى الله أعلى - الله أعظم . ومن شرائعه أن الصوم يومان فى السنة وهما المهرجان والنوروز وأن النبذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة إلا الوضوء

كوضوء الصلاة، وأن من حاربه وجب قتله ومن يحاربه ممن يخالفه ، أخذت منه الجزية ولا يؤكل كل ذى ناب ، ولا كل ذى مخلب (١) .

هذه هي صورة من هذا الكتاب الحنفى ، انتشر في جنوب العراق ، كما انتشر في البحرين - فيما بعد - وهذه هي العقائد التي كانت تدين بها الكيسانية أو الحنفية في سواد الكوفة حين أتى حسين الأهوازي عام ٢٦٣ هـ يدعو حمدان الأشعث إلى المذهب الإسماعيلي .

ومن الخطأ الكبير أن يقال إن المبارك هو حمدان قرمط على ما ورد في سياسة نامه لنظام الملك . وقد تنبه لويس إلى هذا فقال : كان المبارك على ما ورد في سياسة نامه حجازيا وكان خادما لمحمد بن إسماعيل ، وكان يجيد نوعا من الخط يسمى «مقرمط» ولذلك عرف باسم قرمطويه . وقد أغراء عبد الله بن ميمون القداح فأنشأ فرقة ونشراها وهي الفرقة التي عرفت بالمباركية أو القرمطية نسبة إلى اسمه . وإني لأعتقد بوجوب رفض هذا الزعم الذي يرى المبارك وقرمطويه شخصا واحداً للبيانات والدلائل القديمة الموثوق بها التي تنافيه كالأشعري والبغدادى والمقريزى (٢) .

ومن الواضح أن لويس - تنبه وإن لم يذكر هذا - إلى أن ابتداء أمر حمدان قرمط كان في عام ٢٦٤ . وكان المبارك من موالى جعفر الصادق ، فهناك إذن استحالة تاريخية أن يكونا شخصا واحداً . وقد كان القمى أكثر دقة من صاحب سياسة نامه فقد اعتبر المباركة فرقة شيعية غير غالية ، ولكن افترق عنها فرقة غالية تسمى القرامطة ، وإنما سميت بهذا برئيس لهم من أهل السواد من الأباط كان يلقب قرمطويه (٣) .

والجلسى في بحار الأنوار يؤيد أيضاً القمى . . فبرى أن فرقة قالت بوفاة إسماعيل في حياة أبيه ، وهؤلاء القرامطة وهم المباركية وسمى القرامطة برئيس لهم من أهل السواد يسمى قرمطويه ، أما المباركية فبرجل يدعى المبارك مولى إسماعيل والقرامطة أخلاف المباركية والمباركية سلفهم (٤) .

قلنا إن الحسين الأهوازي أو الحسين بن عبد الله بن ميمون قد ذهب إلى مقابلة حمدان . وتذكر لنا قصة مقابلة الحسين الأهوازي لحمدان وكأنها مصادفة بحتة . وكان حمدان من أهل الكوفة ، وكان يميل إلى الزهد . فصادفه أحد دعاة الباطنية في فريق ، وهو متوجه إلى قرية وبين يديه بقر يسوقها . فقال حمدان لذلك الداعى وهو لا يعرفه : أين مقصدك ؟ فذكر قرية حمدان فقال له : اركب بكرة

(١) الطبرى : ٢١٢٢-٢١٣٢ .

(٢) رينارد لويس : أصول الإسماعيل ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) القمى : كتاب المغالات ص ٨٣ ، والتونيقى : فرق الشيعة ص ٧٢ .

(٤) المجلسى : بحار الأنوار ١٧/٩ وانظر لويس : أصول ص ١١٢ .

من هذه لثلاث تعب . فقال ؛ إني لم أؤمر بذلك . فقال ؛ وكأنك لا تعمل إلا بأمر . قال : نعم . قال .  
وبأمر من تعمل ؟ قال . بأمر مالكي ومالكك ومالك الدنيا والآخرة . فقال : ذلك إذن هو رب  
العالمين . قال : صدقت . قال . فما غرضك في هذه القرية التي تقصدها ؟ فقال : أمرت أن أدعو  
أهلها من الجهل إلى العلم ومن الضلالة إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة . وأن أستقذهم من ورطات  
الذل والفقر وأملكهم ما يستغنون به عن الكد . فقال حمدان : أنقذني أنقذك الله وأفض على من العلم  
ما تحبني به ، فما أشد احتياجي إلى مثل هذا . فقال : ما أمرت أن أخرج السر المخزون إلى كل أحد إلا  
بعد الثقة به والعهد إليه فقال : اذكر عهدك ، فإني ملتزم به . فقال له : أن تجعل لي وللإمام على  
نفسك عهد الله وميثاقه ، ألا تخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك ولا تنفش سري أيضاً ، فالترم حمدان  
عهده ، واندفع الداعي في تعليمه فنون جهله ، حتى استغواه ، فاستجاب له ، ثم انتدب للدعاء ،  
وصار أصلاً من أصول هذه البدعة ، فسمى أتباعه القرامطة والقرمطية (١) .

وهكذا صور المؤرخون مقابلة الحسين الأهوازي لحمدان قرمط وتحوله إلى الإسماعيلية . ولكن من  
الثابت أن دعوة حمدان قرمط إلى المذهب الإسماعيلي كانت أخطر من هذا بكثير ، إذ أن عبد الله بن  
ميمون وضع ابنه علي بن عبد الله في الطالقان ليكون نقطة الاتصال بينه وبين حمدان وعينا في الوقت  
نفسه عليه . يقول ابن رزام : « بعث عبد الله بن ميمون الدعاة إلى سواد الكوفة ، فأجابه من هذا  
الموضع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ، ويلقب بقرمط ، لقصر كان في مته وساقه ، وكان قرمط  
هذا أكاراً بقراراً في القرية المعروفة بقس بهرام ورأى قرمط ، وكان داهياً . ونصب لدعوته عبدان  
صاحب الكعب المصنفة ، وأكثرها منحول ، وفرق عبدان الدعاة في سواد الكوفة . وأقام قرمط  
بكلوداي ونصب له عبد الله بن ميمون رجلاً من ولده يكتبه من الطالقان (٢) .  
أما السبب في هذا ، فهو أن حمدان قرمط لم يأخذ بالدعوة الإسماعيلية كاملة . وإنما أخذها في  
صورة كيسانية .

كانت الكيسانية في عهد حمدان قرمط تؤمن بمهدية أحمد بن محمد بن محمد بن الحنفية وتوقفت فيه ،  
وآمنت أنه المسيح المنتظر . فلما اتصل حمدان قرمط بالإسماعيلية قدم نفس المذهب ، غير أنه استبدل  
أحمد بن محمد بن محمد بن الحنفية بمحمد بن إسماعيل والقسم وهو من أدق من يحدثننا عن عقائد الشيعة يقول  
إن القرامطة خالفوا المباركية الإسماعيلية في أنهم قالوا « لا يكون بعد محمد النبي ﷺ إلا سبعة أئمة :  
علي بن أبي طالب وهو إمام رسول والحسن والحسين وعلي بن الحسين . ومحمد بن علي وجعفر بن محمد

(١) ابن الجوزي : تليس ص ١٠٤-١٠٥ .

(٢) ابن التميمي : الفهرست ص ٢٧٩ .

ومحمد بن إسماعيل بن جعفر «وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول» وزعموا أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب عليه السلام للناس بفدري خم ، فصارت الرسالة في ذلك اليوم في علي بن أبي طالب واعتلوا في ذلك بقول رسول الله ﷺ وآله «من كنت مولاه فعلى مولاه» وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوّة وتسليم منه في ذلك لعلي بن أبي طالب بأمر الله عز وجل ، وأن النبي ﷺ بعد ذلك كان مأموماً لعليٍّ محجوجاً له ، ولما مضى عليه السلام انتقلت الإمامة إلى الحسن ثم إلى الحسين ، ثم إلى علي بن الحسين ، ثم في محمد الباقر ، ثم كانت في جعفر الصادق . وانقطعت الرسالة عن جعفر في حياته ، كما انقطعت عن النبي ﷺ ، في حياته ، ثم إن الله بدا له في إمامة جعفر وإسماعيل «فصيرها في محمد بن إسماعيل» وزعموا أن محمد بن إسماعيل حتى لم يمت وأنه في بلاد الروم . وأنه القائم المهدي ، وأنه يبعث برسالة وشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ ، وأن محمد بن إسماعيل من أول العزم وأولو العزم عندهم سبعة ، (وهذا ما أخذوه من الإسماعيلية) نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي ومحمد بن إسماعيل ، على معنى أن السموات سبع وأن الأرضين سبع . . . إلخ . ويذكر النوبختي أنهم آمنوا بالقائم إيماناً تاماً وأنهم أوردوا الأخبار عن الصادق في هذا «لوقام قائمنا علمتم القرآن جديداً» (١) .

هنا تتبين لنا صورة العقائد القرمطية الأولى ، وهي توازي تماماً عقائد الكيسانية أو الخنفيه التي أوردناها من كتابهم في أول هذا الفصل ، فلما ظهر عبيد الله المهدي حجة الإمام ، مدعياً أنه المهدي المنتظر ، ثار حمدان قرمط وداعيته عبدان . ولم يتبناه معظم الباحثين - إن لم يكن كلهم - إلى أن إسماعيلية القرامطة كانت مختلفة عن إسماعيلية المركز الرئيسي في سلمية ، كان المركز يعلم أن هناك إماماً حياً ، وأن هناك حجة له فلما تنازل الإمام الحسين عن الإمامة لسعيد بن الحسين بن عبيد الله القداح ليكون سترًا أو مستودعاً لابنه القائم ، كما سنفسر هذا فيما بعد ، انتقض قرامطة السواد وعلي رأسهم حمدان قرمط ، أول زعيم للقرامطة وصهره عبدان المؤلف والداعية القرمطي المشهور ، وسافر عبداً لمقابلة سعيد المعروف بعد ذلك بعبد الله المهدي . وسأله عن الحجة وعن الإمام من بعده فقال سعي أي المهدي لعبدان : ومن الإمام ؟ فرد عبدان بعقيدة القرامطة «محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبي وهو من ولد ميمون بن ديصان وأنا أقوم مقامه» (٢) .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن قرامطة السواد كانوا لا يؤمنون سوى بمحمد بن إسماعيل مهدي؛

(١) القمي : كتاب المقالات ص ٨٣ ، النوبختي : فرق الشيعة ص ٧٣-٧٤ .

(٢) نقل هذه النصوص إلينا الدكتوران حسن إبراهيم ، وطه شرف عن النويري : نهاية الأرب المخطوط : ص ٧٨٥ .

الأمة . وستبقى هذه العقيدة مدة طويلة بعد عند بعض طوائف قرامطة البحرين ، كما ستبقى الحنفية أى موالاة محمد بن الحنفية وأولاده لديهم منتشرة بعنف .

وقد حاول الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أن يستنتجا من انتفاض حمدان وعبدان على سعيد القداح نتيجة هامة وهى أن الإمام المستور لم يكن معروفاً للقرامطة ، على حين أن الذى كان يتراسل معهم هو الحجة الذى كان يقر فى مكاتباته معهم بأنه نائب عن الإمام لا الإمام . وهذه النتيجة غير صحيحة بإطلاق ، بل تحتاج إلى تعديل كبير وهى : أن قرامطة السواد لم يعرفوا أبداً إماماً مستوراً ، بل كانوا يعرفون إماماً واحداً غائباً ، إماماً مهدياً ، هو محمد بن إسماعيل .

أما القسم الثانى من دعوة حمدان بن الأشعث ، فكان التنظيم النقابى أو التنظيم الاجتماعى لحياة أتباعه ، ففرض عليهم عدة ضرائب وجبايات تصاعدية أو متدرجة . ثم فرض عليهم الألفة وهو أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا أسرة واحدة ، لا يفضل واحد منهم صاحبه وأخاه فى ملك يملكه وتلا قوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً » وتلا عليهم قوله تعالى « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال لهم : هذه محتكم التى امتحنتم بها ، لنعلم كيف تعلمون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده وذلك فى سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام الدعاة ، فى كل قرية ، رجلاً مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال قريته من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . فكان يكسوغاريهم ، وينفق عليهم ما يكفيهم . وأخذ كل رجل منهم بالانكفاء على صناعته والتكسب بجمده ، كيلا يكون له الفضل فى رتبته . وكانت المرأة تجمع إليها كسبها من مغزها والصى أجر نظارته الطير . فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه . فلما استقام له ذلك كله ، وصبوا إليه ، وعملوا به . أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ، ويختلطن بالرجال . وقال : إن ذلك من صحة الود والألفة منهم (١) .

وقد عدد المقرئى هذه الضرائب ، ضريبة الفطرة ، وضريبة الهجرة وضريبة البغلة ثم ضريبة الخمس (٢) .

وقد أراد حمدان بهذه الاشتراكية المالية نشر السلام بين أتباعه ، وأن يكون « دولة الله » أما الاشتراكية الاجتماعية فقد نسبها أهل السنة إلى القرامطة والإسماعيلية ، فقد ربطوا بين المزدكية وبين القرامطة والإسماعيلية . وقد ذهب نظام الملك - مؤلف سياسة نامه - إلى أن الإسماعيلية هى استمرار

(١) النويرى : نهاية الأرب - مقتطفات عن لويس فى أصول لإسماعيلية ص ٢٠١ .

(٢) المقرئى - اتعاظ الحنفا ص ١٤ .

للمزدكية في العصر الساساني . ويرى أن خرمة امرأة مزدك هي التي أنشأت الفرقة الزرديشية في أواخر الدولة الأموية ، وأن عمار بن بديل المعروف بخدش - وهو داعية العباسي في فارس - كان من أتباعها ، وأن آراءه الإباحية لم تنته بقتله ، بل ظهرت لدى الفاطمية أتباع فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني وابنها فيروز ، ثم لدى فرق الأبي مسلمية أتباع مسلم نفسه . بل إن أبا مسلم في رأى كثيرين من أهل السنة كان خرميا ، مزدكيا ، ثم سنباذ المجوسى ، وقد قام بثورته المشهورة ، كان خرميا وكذلك يستفاد أو المقنع الخراساني . ثم ظهر بابك الخرمي مؤسس الخرمية أو الزرديشية الأواخر ، محدداً لآراء الخرمية الأوائل أتباع خرما .

وقد بقيت آراء مزدك الاشتراكية في العصر الأموي كامنة ، ثم ظهرت في العصر العباسي الأول ، لدى فرق الأبي مسلمية ، وفي العصر العباسي الثاني نفذت إلى أعماق المذهب الإسماعيلي عامة والقرمطي خاصة . ومن المؤكد أن مزدكا نادى باشتراكية المال ، ولكن من المشكوك فيه أنه نادى باشتراكية النساء . ولا يوجد نصوص واضحة تؤكد هذا . ومن المشكوك فيه أيضاً أن ينادى حمدان ابن الأشعث بهذه الاشتراكية الاجتماعية ، أى اشتراكية النساء . إنه ينبغي أن نعرف أن النظام المالي الاشتراكي الذي أقامه حمدان قرمط نجح أكبر نجاح في سواد الكوفة ، كما نجح في البحرين فيما بعد . وأقام مجتمعاً قوياً أقلق الدولة العباسية التي كانت غارقة في الملذات ، وفي القوضى ، وكاد أن يقضى عليها .

ومن الخطأ البالغ أن يقال إن هذا النظام الاشتراكي كان من صنع الأئمة في سلمية - إنه لم يكن إسماعيلياً على الإطلاق . لقد كان قرمطياً فقط ، وضعه حمدان قرمط ، ثم انتشر في البحرين ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد انتشر في اليمن ، بعد أن شق على بن فضل عصا الطاعة على عبيد الله المهدي - وأنشأ مجتمعاً قرمطياً بحتاً .

أخذ حمدان بن الأشعث يرسل الدعاة إلى البلاد القريبة منه - فأرسل أبا سعيد الجنابي « وكان من مستجيبة حمدان كما يذكر البغدادي - إلى البحرين <sup>(١)</sup> وتغلب عليها كما أرسل زكرويه بن مهرويه الدنداني إلى شمال العراق « وكان من تلامذة حمدان » وظهر مأمون أخو حمدان بأرض فارس - وقرامطة فارس يقال لهم المأمونية لأجل ذلك <sup>(٢)</sup> .

أما أهم دعائه ، فقد كان صديقه وصهره الداعي عبدان . وقد أنشأ سوياء « دار الهجرة » حين تحولوا إلى المذهب الإسماعيلي القطعي - أى القطع بإمامة محمد بن إسماعيل . وكانت دار الهجرة أو مدينة الله « مثلاً من أكبر الأمثلة في إدارتها واشتراكيها . وكان أمر الدعوة إلى عبدان ، صاحب الكتب

(٢) نفس المصدر : ص ١٧٠ .

(١) البغدادي : الفرق ١٦٩ .

المصنفة كما يسميه ابن رزام . ويذهب ابن رزام أيضاً إلى أن الدعاة إلى اليمن وقارم والأحساء صاروا من جهة عبدان خليفة قرمط وصهره . وقد كتب عبدان كتباً كثيرة . ويذكر ابن النديم أن لعبدان فهرساً يحتوى على ما صنّفه من كتب علاوة على أن « كل من عمل كتباً نخله إياها » وهذا يدل على أن الرجل كان داعية القرامطة الأول .

ويذكر له ابن النديم من الكتب - كتاب الرحا والدولاب ، كتاب الحدود والإسناد ، كتاب الزاهر ، كتاب الميدان ، ومن كتبه الكبار - كتاب النيران وكتاب الملاحم ، وكتاب المقصد . ويقول ابن النديم إن هذه الكتب هي الموجودة والمتداولة - أما باقى ما فى الفهرست ، فقل ما رآه أو عرفه إنسان أنه رآه . ثم يذكر كتاب البلاغات السبعة . ويذكر أنه قرأه ، ورأى فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها <sup>(١)</sup> . ولكن ابن النديم لا ينسب إلى عبدان ، بل ذكره بين قاعة كتب عبدان منسوباً للإسماعيلية .

وحين انتفض حمدان على عبيد الله المهدي صديقه عبدان كما قلنا لسلمية ، ثم يسرع على ابن عبد الله بن ميمون إلى سواد الكوفة ، ليلقى عبدان ، ويدور الحديث بينهم فى شدة واحتداد - ويخبره عبدان أنهم قطعوا الدعوة الإسماعيلية وأنهم لا يعودون فيها ، وأن أباه كان قد غرهم ، وادعى نسبه إلى عقيل بن أبى طالب كذباً ، ودعا إلى المهدي ، فكنّا نعمل لذلك ، فلما تبينّا أنه لا أصل له ، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان ، وأنه صاحب الأمر ، تبنا إلى الله مما تحملنا ، وحسبنا ما كفرنا أبوك ، فتريد أن تردنا كفاراً ، انصرف عنا إلى موضعك <sup>(٢)</sup> .

ولكن هل عاد القرامطة فى سواد الكوفة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة ، كما تساءل الدكتور حسن إبراهيم إنه يقول : لو أنه فعل ذلك لما سكّت المؤرخون السنيون . والرأى الصحيح عندى أن أتباع حمدان وعبدان عادوا إلى الكيسانية المسالة إلى عقيدة مهديّة أحمد بن محمد بن الحنفية . ولكن على بن عبد الله بن ميمون قداح الطالقان أسرع إلى الميدان ، وأتى بذكرويه بن مهرويه داعية حمدان قرمط وعبدان حوالى سنة ٢٨٦ هـ وقتل حمدان أو اختفى ، ولعله أراد أن يتغيب ، كما تغيب إمامه القديم مهدي الزمان محمد بن الحنفية وأبناءؤه ثم قتل عبدان بيد أبناء ذكرويه . وبالرغم من تخلى حمدان وعبدان وأتباعهما عن الإسماعيلية ، وعودتهما إلى الكيسانية ، فقد بقيت مجموعة من القرامطة تدين بالولاء لحمدان ولعبدان ولكنها تؤمن بمحمد بن إسماعيل فترى الداعى بن مليح يبقّى موالياً للإسماعيلية وقد قام هذا الفريق الموالى بثورة على العباسيين بسواد الكوفة فى سنة ٢٨٧ ، ٢٨٩

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١-٢٨٢ .

(٢) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٣ ، ورقة ٧٠ ، وانظر الدكتور حسن إبراهيم : عبيد الله المهدي ص ٩٥ .

تحت قيادة أبي الفوارس وكان من أخلص دعاة حمدان وصهره عبدان ، كما قام أبو حاتم البوراني - زعيم البورانية الإسماعيلية وخليفة أبي الفوارس بثورة عامة في سواد الكوفة على العباسيين .  
قرامطة الشمال : دفع قدامح الطالقان زكرويه بن مهرويه إلى قتل ميده عبدان ، وقد كان زكرويه من دعاة عبدان المباشرين ، ثم عينه على بن عبد الله رئيساً لقرامطة السواد ، ولكنه اضطر إلى الفرار واختفى في قرية من قرى السواد . وقد رأى أن أعداءه يحيطون به من كل جانب فالعباسيون في أثره ، وأنصار حمدان وعبدان وراءه يتبعونه ، والمهدي في سلمية لا يريد ، فقد عين بغير أمره . علاوة على أن استتاره كان يخفى وراءه غاية أخرى - وهو إعلان إمامته هو . وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ، كما انتسب أولاده ، وأن يحاول إنشاء دولة فاطمية في سوريا .

اختفى أبو محمد زكرويه داعي الكوفة عام ٢٨٦ هـ . وتقدم أولاده الثلاثة للعمل وهم أبو القاسم يحيى : صاحب الناقة ، وأبو مهزول الحسين صاحب الشامة وأبو العباس . ولما عزلهم أبو الحسين بن الأسود داعي المهدي سعيد القدامح من دعوة الكوفة اجتمع الإخوة الثلاثة وتعاهدوا على الذهاب إلى سلمية لقتل ابن البصري - أي المهدي « هذا الذي كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ولا نتركه . وقالوا : حتى يقطع ذكر علي بن أبي طالب من هذه الدنيا . ونقتل بعده أبا الحسين » .  
أما عقائد زكرويه وأولاده ، فيبدو أنها قريبة جداً من آراء قرامطة السواد . ولا غرابة في هذا فقد كان زكرويه من دعاة عبدان : وهذه الآراء هي إمامة محمد بن إسماعيل ونبوته أي أنهم توقفوا فيما بعده من الأئمة ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن سعيداً الخير هو حجة الإمام الغائب ، فلما أعلن سعيد إمامته هو ، انضم إليه زكرويه وأولاده طمعا في المناصب وأملا في أن يخلفوا هم حمدان وعبدان ، وقتلوهما ، فلما عزلهم سعيد الخير بواسطة أبي الحسين بن الأسود داعيه ، عادوا إلى مذهبهم القرمطي ، وانتسبوا هم أنفسهم إلى محمد بن إسماعيل . وأعلن يحيى بن زكرويه أو القاسم بن محمد عام ٢٨٩ أنه صاحب الزمان وأنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه مهدي آخر الزمان ، وأن ناقته مأمورة ، فإن تبعوها ظفروا - فسمى بصاحب الناقة ، وأن أباه المعروف بأبي محمود داعية له . ودعاه أتباعه « بالشيخ » (١) . وألاحظ هنا أنه يستخدم مصطلحاً كيسانياً حقيقياً وهو مصطلح صاحب الناقة . وقد رد هذا المصطلح في كتاب الحنفية الذي أوردنا بعض عبارته من قبل .

وهكذا نرى أن مهدي الزمان قد ظهر في الكوفة . ثم انتقل إلى بادية الشام ، وكانت إسماعيلية ، محاولاً إنشاء الدولة الفاطمية في سوريا . ظهرت أسرة أخرى منافسة لعبيد الله المهدي سعيد القدامح وأسرة القدامح في ادعائها حجة الأئمة المستورين . فهم إذن كيسانية إسماعيلية ، أي آمنوا بمحمد بن



إسماعيل على طريقة الكيسانية ، أى أنه القائم الذى سيعود ، ثم حين ادعى سعيد الخير القداحى الإمامة وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ادعوها هم أيضاً وقيل وصول إناؤه زكرويه إلى سورية ، غادر المهدي سلمية عام ٢٨٦ مع الإمام المستقر أبى القاسم ، الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد سعيد الخير فيها بعد .

أعلن أبناء زكرويه آراءهم فى شمال سوريا ، وأباحوا أيضاً الأموال لأتباعهم « وحملوا بنى العليص على صريحيهم ، فقتلوا جماعة منهم واستذلوهم . وضرب يحيى بن زكرويه نقوداً نقش على وجه منها « قل جاء الحق وزهق الباطل ، وعلى الوجه الآخر « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القرنى » ويقول المسعودى إن دعوته نالت كثيراً من النجاح حتى تفرمط أكثر من كان حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوها » (١) .

وقد أورد برنارد لويس عن ثابت بن سفيان الصائغ الخطبة التى ألقيت فى حمص بعد أن احتلها يحيى الشيخ سنة ٢٩٠ هـ . وها هى نصها « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت أمير المؤمنين المهدي . اللهم املأ الأرض به عدلاً وقسطاً ودمر أعداءه - اللهم دمر أعداءه » (٢) . وظن لويس أن هذه الخطبة إسماعيلية خالصة وبخاصة أن أبناء زكرويه أعلنوا فى سوريا أنهم فواطم كما يذكر الطبرى (٣) . وهذا خطأ . فأبناء زكرويه أتوا إلى سوريا لقتل عبيد الله سعيد القداح الذى ادعى المهدي ، فالخطبة قطعاً ليست له . علاوة على أن التأمل الذاتى أو النقد الباطنى للخطبة ، إنما يدل على روح كيسانية أو حنفية وهى التى تؤمن بانتظار المهدي الغائب ، وهو محمد بن الحنفية أو أبنائه من بعده ، ثم صبغت بصبغة إسماعيلية . أما الإسماعيلية الخالصة فهى لا تنادى بغائب على مر الأجيال ، وإنما بمشتر حتى ، لم يأن أوان ظهوره بعده . فالخطبة ذات أساس كيسانى حنفى فى الباطن ، مع مسحة إسماعيلية ظاهرة .

أما انتساب أبناء زكرويه إلى الفاطميين وتسمية الحسين بن زكرويه باسم محمد أو أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل وابن عمه باسم عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل ، فقد فعلوا هذا فقط كسباً للأنصار فى منطقة سلمية وبقية المدن السورية ، وكانت الدعوة الإسماعيلية منتشرة فيها ، وبخاصة أحياء كلب فى بادية الشام ومحاربة المهدي عبيد الله الذى فر منهم هارباً إلى الرملة وادعى أيضاً نسباً لمحمد بن إسماعيل وقد أخطأ لويس مرة أخرى حين قال « أما زكرويه وأبنائه - فإما أن يكونوا قداحين أو

(١) المسعودى : التنبيه ص ٣٢٢ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) الطبرى : تاريخ .. ص ٢٢١٩ ، ٢٢٥٧ .

أن الآئمة - وهى الأرجح - قد خولوا لهم التسمى بالإمامة ليجسوا النبض ويميطوا العقبات الأولية» ومن الثابت أن زكرويه كان من دعاة عبدان وعلى صلة مباشرة به ، ثم انقلب عليه بإيحاء قداح الطالقان ثم انقلب على القداحية كلها حين عزل هو وأبناؤه من دعوة الكوفة وأرسل أولاده لقتل عبيد الله المهدي أو سعيد القداح في سلمية . وتجمع المراجع الإسماعيلية على لعن زكرويه وأبنائه ، واعتبارهم خونة . ونرى النيسابورى الإسماعيلي يقول في كتابه «استتارة الإمام» إنه لما اتصل خبر عزم انتقال أبناء زكرويه إلى بادية الشام بدعوة سعيد القداح - عبيد الله المهدي - في بغداد «كتبوا إلى المهدي عليه السلام أن بنى أبى محمد (أى أبناء زكرويه) قد عزموا على قتلك وقتل أهلكت . فإن كنت قاعداً فإنهم زحفوا إليك ، وهم عازمون على قتلك . فإن لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وشوا بك إلى هارون بن أحمد بن طولون وهم يقولون إنك مخالف للمذهب وبشهرت أمرك ، فاعمل على خلاص نفسك ولا تقم ساعة واحدة» (١) . وإذن أعلن زكرويه وأبناؤه أن المهدي مخالف للمذهب ، أى أنه خرج على ما عرفوه من المذهب الإسماعيلي ، وهو أن محمد بن إسماعيل هو الإمام الأخير المهدي ، فلا يحق لإنسان أن يدعى نفسه إماماً ، وأعلن أبناء زكرويه أنهم عازمون على أن يشهروا أمر «سعيد الخير» أى أنه ليس هو المهدي ، بل هو من ولد القداح .

وقتل يحيى الشيخ على أبواب دمشق ، وتولى زعامة القرامطة أخوه حسين أبو مهزول . وقد اتخذ الحسين حمص عاصمة له . وأنشأ الدولة الفاطمية الأولى قبل إنشاء الدولة الأخرى في المغرب . وولى أقاربه ، فجعل ابن عمه قائد الجيوش وولى عهده : وسماه المدثر . . وخطب الحسين على منابر دمشق باسم أمير المؤمنين وهذا دليل آخر على أن أبناء زكرويه لم يكونوا إسماعيلية خالصة . ثم قتل الحسين بن زكرويه داعي الدعوة أبا الحسين ، ثم قتل أهل عبيد الله المهدي جميعاً .

ولا يهمننا حروبه بعد ذلك في الشام ولا حروب أخيه بعده . ولا قتله على أيدي العباسيين عام ٢٩٤ . وإنما يهمننا أن نذكر أن قرامطة الشمال لم يكونوا على الإطلاق إسماعيلية خالصة ، بل كانوا أولاً وبالذات حنفية كيسانية ، آمنت في فترة بالمذهب الإسماعيلي على طريقة كيسانية أيضاً ، ثم انتهى بهم الأمر إلى الارتداد عن المذهب ، وحاولوا بكل الوسائل القضاء على الإمام الإسماعيلي المستودع - كما سئرى بعد - عبيد الله المهدي . وأنهم لم يكونوا من أحفاد ميمون بن ديصان كما ذكر البغدادي (٢)

أما نهاية زكرويه بن مهرويه نفسه ، فإن المقدسي في البدء والتاريخ يذكر أن زكرويه خرج في أيام المعتضد بالله في قبيلة كلب على الحاج «فقتلهم وسباهم وقصد الكوفة ، فأنهض إليه السلطان جيشاً

(١) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور طه شرف : عبيد الله المهدي ص ١٠٦

(٢) البغدادي : الفرق ١٧٤

فارسهم خمسة أشهر ، ثم ظفروا به فحملوه إلى بغداد على طريق الشهرة والنكال ، فأتى في الحبس ، ثم أخرج فصلب ، فسرقه القرامطة عن خشيته (١) وهذا يدل على أن زكرويه نفسه لم يتوقف عن الحركة وهو مستتر ، بل حاول أن يشغل جيوش الخليفة في الجنوب في الوقت الذي كان يحارب فيه أولاده في الشمال ، وتدل سرقة جثته على أيدي قرامطة بغداد أن للقرامطة كانوا أيضاً منتشرين في عاصمة العباسيين ، وأنهم كانوا على إيمان مطلق بعقائدهم ، وعلى استعداد للتضحية في سبيلها .

### قرامطة البحرين :

وبدو أن حمدان بن الأشعث أو حمدان قرمط كان أكبر شخصية باطنية في أواخر القرن الثالث ، وأن القول بأنه كان جاهلاً أكاراً أو يقاراً ليس من الصحة في شيء ، كان الرجل منظماً من الدرجة الأولى ، وقد قام - كما رأينا بتنظيم ما يقال له حركة القرامطة في سواد الكوفة على أساس عقائدي أولاً ثم على أساس نقابي أو اقتصادي ، وأنه هو وعبدان قد أرسلوا الدعاة لشمال العراق ، كما أرسلوا الدعاة لجنوبي فارس والبحرين . ومن العجب أن يذكر بعض المؤرخين أنه كان صائياً يقول البغدادي « ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية . واستدل أيضاً أن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم . والباطنية أيضاً لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم بعد إخلاصهم إياهم على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم » (٢) ومع شكى في أن يكون حمدان قرمط صائياً حرانياً ، إلا أن هذا دليل على أن الرجل كان على علم بمذاهب الصابئة الحرانية ونحن نعلم أن هذا المذهب مذهب أفلاطوني فلسفي مع عناصر غنوصية . ثم إن نص البغدادي يذكر أن حمدان قرمط كان صاحب الدعوة بعد ميمون بن ديصان ، وبهذا جعله البغدادي موازياً لعبد الله بن ميمون ومن أصحابه . وقد تصرف الرجل تماماً كمستقبل حتى بعد تحوله من الكيسانية الخالصة إلى نوع من الإسماعيلية . يهتما بوجه خاص هنا أن نشير إلى مجهوداته في الأحساء والقطيف والبحرين .

كان أول داعية باطني للبحرين هو يحيى بن المهدي ، وبدو أن يحيى هذا كان هو علي بن عبد الله ابن ميمون - قداح الطالقان ، وقد تسمى - على عادة الباطنية - بأسماء مختلفة منها أبو زكريا الطامى ، ويحيى الطامى ويحيى بن علي . وأرسل حمدان قرمط في الوقت عينه داعياً آخر هو أبو سعيد الجنابي ،

(١) المقدسي : البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٧٦

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٧٧ .

ومن مدينة جنابة على الخليج الفارسي شرقاً ، وظهر بعده (بعد حمدان قرمط) في الدعوة إلى البدعة أبو سعيد الجنابي وكان من مستجبيه حمدان وتغلب على ناحية البحرين ودخل في دعوته بنونبر<sup>(١)</sup> وحين انتقض حمدان على عبيد المهدي ، تابعه أبو سعيد الجنابي وقتل يحيى بن المهدي - قداح الطالقان ، واستولى على الإمارة - وبخاصة بعد اختفاء حمدان وقتل عبدان - « وأعلن أنه يمثل الإمام المهدي الذي وعد بظهوره عام ٣١٠ هـ وهو الإمام محمد بن عبد الله بن الحنفية »<sup>(٢)</sup> وبهذا عاد أبو سعيد الجنابي إلى عقيدة الكيسانية أو عقيدة الحنفية ، كما فعل أستاذه وزعيمه حمدان قرمط حين عرف هذا الأخير بخديعة عبيد الله المهدي - ابن القداح - وكما فعل أيضاً زكرويه بن مهرويه حين رأى أن عبيد الله المهدي قد خدعهم ، ولم يبقهم حتى في مركز الدعوة بالكوفة - فالمستشرق - كازاتوفا كان على حق ، حين ذكر الإمام الذي قاتل لأجله القرامطة الأولون كان إماماً حنفياً من سلالة محمد بن الحنفية ، ولكنه لم ينتبه إلى أنهم صباؤا إلى إسماعيلية خاصة مقيدة ، ثم ما لبثوا أن رجعوا عنها جميعاً ، حمدان بن الأشعث وأبو سعد (الحسن بن بهرام) لأسباب عقائدية ، وزكرويه (الفرج بن عثمان القاشاني) وأولاده لأسباب مادية . وأياً ما كان الأمر ، فقد أعلن أبو سعيد الجنابي استقلاله عن الدعوة الفاطمية . وقد رأينا من قبل أن علي بن فضل الجدي قد ذكر في خطابه لابن حوشب أنه ينهج نهج أبي سعيد الجنابي في خلعه طاعة ميمون وابنه من بني القداح ويؤيد ذلك قول ابن حوقل « وكان حمدان قرمط وأبو سعيد إذ ذاك في دعوة السلطان حذاء أمير المؤمنين المهدي بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفاً ذلك . وجرت خيوط وتغاليط كثيرة في بعض الروايات »<sup>(٣)</sup>

أما المسعودي فيسمى قرامطة الكوفة بالبقلية ويقول إنه اسم ديانى عندهم<sup>(٤)</sup> . فالحركة القرمطية إذن عادت إلى الحنفية في سواد الكوفة وفي شمال العراق وكذلك في البحرين . وفي نص ابن حوقل نفسه ، وهو إسماعيلي ، ما يثبت أن أبا سعيد الجنابي قد رجع عن معتقداته الإسماعيلية . وأقام مجتمعاً قرمطياً خالصاً ، سواء في معتقداته أو في نظامه المالي فطبق اشتراكية كاملة لا في المال وحده ؛ بل في نظام العمل والمجتمع كذلك . وقتل أبو سعيد الجنابي عام ٣٠٠ هـ . وتولى إمارة القرامطة ابنه سعيد ، وصرعان ما أعلن عودته إلى حظيرة أهل السنة والجماعة في خطابه

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٩ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٠ عن نص للقاضي عبد الجبار ولم يستند لويس بهذا النص استفادة حاسمة .

(٣) ابن حوقل : السالك والمالك ص ٢١٠-٢١١ .

(٤) المسعودي : التبيين ص ٣٩٨ .

إلى علي بن عيسى وزير المقتدر «إنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ونسأله أن يصلي على سيدنا محمد . فأما ما ذكره عنا من انفرادنا عن الجماعة فنحن - أيدك الله - لم تنفرد عن الطاعة والجماعة بل أفردنا عنها وأخرجنا من ديارنا . واستحل دمنا . . . كان قديم أمرنا أنا كنا مستورين مقبلين على تجارتنا ومعاشنا . نتره أنفسنا عن المعاصي ، ونحافظ على الفرائض . فنقم علينا سفهاء الناس وفجارهم ممن لا يعرف بدين ، وأكثروا التشيع علينا بيننا بالسوية وأنا لا نحرّم حراماً ولا نحل حلالاً . فخرجنا هارين ، ومن بقى منا جعلوا في رقابهم الحبال والسلاسل . فألجأونا إلى جزيرة ، فأرسلنا في طلب أموالنا وحریمنا ، فقتلونا ، وعزموا على حربنا ، فحاكمتناهم إلى السيف . قال تعالى «ومن عاقب مثله ما عوقب به ثم يغى عليه لينصرنه الله» فنصرنا الله عليهم . وأما ما ادعى علينا من الكفر وترك الصلاة . فنحن ناثبون مؤمنون بالله» هذا ما أرسله سعيد بن أبي سعيد إلى وزير الخليفة يعلن تبرؤ القرامطة من أي مذهب إباحي أو اشتراكي اجتماعي .

ولكن حكم سعيد السني لم يطل أكثر من أربع سنوات ، ويذهب النويري في نهاية الأرب <sup>(١)</sup> إلى أن سعيداً سلم الأمر إلى أخيه الأصغر أبي طاهر بناء على وصية والده «أوصى إليهم : أي أبو سعيد- إن حدث . أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر . وكان سعيد أكبر سنّاً من أبي طاهر فإذا كبر أبو طاهر كان المدير لهم . ولما قتل - أي أبو سعيد - جرى الأمر على ما وصاهم به وكان أبو طاهر سبّ سعيد ، وكان أبو سعيد قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبي طاهر . فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه إلى ستة خمس وثلاثمائة . ثم سلم الأمر لأخيه أبي طاهر - فعمل أشياء موه بها على أصحابه - فقبلوه وعظموا أمره» .

أما ابن خلدون فيذكر «ثاربه - أي سعيد - أخوه الأصغر أبو طاهر ، فقام بأمرهم - وبايعه العقدانية - وجاءه كتاب عبيد الله المهدي بالولاية» <sup>(٢)</sup> والروايتان متعارضتان إلى حد ما . فبينما تذكر الرواية الأولى أن سعيداً سلم بنفسه الأمر إلى أخيه ، وكان هو بلغة الباطنية إماماً مستودعاً لأبي طاهر وكان أبوه أبو سعيد قد تنبأ له بالسلطان - وسرى صورة من الأساطير والتنبؤات التي أحيطت بقيام أبي طاهر - تذكر الرواية الثانية أن ثمة ثورة حدثت وأن «العقدانية» أي كبار مشيخة المذهب قد بايعوا أبا طاهر ، ثم التأييد من عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالقيروان .

ويستنتج الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أنه كان هناك فريق من القرامطة ما زال يؤمن بالمذهب الإسماعيلي . وأن هذا الفريق قام بالثورة على سعيد ووضع أبا طاهر أميراً على القرامطة عام

(١) النويري : نهاية الأرب . وحسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٢١٦ . ٢١٧ .

(٢) ابن خلدون : المعراج ٥ ص ٨٨-٨٩ .

٢٠٥ هـ . ولكن الدكتور حسن إبراهيم وزميله ، أخطأ (كما أخطأ دوزي معها) حين يقولان «ومن ثم استمرت علاقة الفاطميين بالقرامطة منذ سنة ٣٠٥ حتى نهاية حكم أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ على خير ما تكون . ونعتقد أن أبا طاهر كان على صلوات طيبة مع عيد الله ، كما كان موضع احترامه وتبجيله ، أضف إلى ذلك أنه كان - كما يقول دوزي - على اتصال سرى بعيد الله ، يقر له بالزعامة المطلقة ، ويفرد له من دخل جماعة القرامطة - خمس الإمام ويطيعه ولا يعصى له أمراً» (١) .

وهذا خطأ كبير وتغال في وصف طبيعة العلائق بين أبي طاهر وبين عيد الله . ولا شك أن أبا طاهر حاول في الظاهر فقط أن يقيم علاقات ود بينه وبين عيد الله ، ولعله فعل هذا إرضاء لمجموعة من أتباعه بقوا على ولائهم للإسماعيلية . ولكنه نهج في الحقيقة منهج والده أبي سعيد . وستبين لنا هذا من سياق الحوادث ، كما ستبين لنا أن أبا طاهر الجنابي - سليمان بن الحسن - بقى ، بالرغم من ادعائه الظاهر أنه يؤمن بالمهدى عيد الله - مخلصاً لآراء الكيسانية أو الخنفة ومخلصاً لمذهب أبيه أبي سعيد . الحسن بن بهرام وأستاذه حمدان قرمط وعبدان . ولم يبحث مؤرخو هذه الفترة من دولة القرامطة حقيقتهم في ضوء عقائدهم ، بل أهملوا هذه الناحية ، مع أنها هي التي تحدد لنا حركتهم : جوهر مبادئها وأغراضها .

أما عن اتصالات عيد الله بن الحسين (أى عيد الله المهدى) بأبي طاهر . فيقدم لنا البغدادي صورة منه ، وهي صورة رسائل أرسلها عيد الله إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي ، ويقول إنه قرأها في كتابهم المترجم «بالسياسة والبلاغ الأكيد» .

يقول عيد الله - فيما يذكر البغدادي : ادع الناس ، بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه . وأوهم كل واحد منهم . فمن آتست منه رشداً ، فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به . فعلى الفلاسفة معولنا . وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدوم العالم ، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مديراً لا نعرفه» .

ثم يذكر البغدادي أن هذا الكتاب يبطل بعد ذلك القول بالميعاد والعقاب . ويعلن أن الجنة هي نعيم الدنيا . وأن العذاب هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد ثم يورد الفقرات الآتية من الرسالة أو من كتاب عيد الله «إن أهل الشرائع يعبدون إلهاً لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم . وأكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم» .

ويشير البغدادي أن هذا تحقيق لنسبة الباطنية إلى الدهرية ثم يقارن بين الاثنين من خلال هذا الخطاب الذى يدعو فيه عيد الله إلى محاولة جذب أصحاب المذاهب الفلسفية من الناس كما يحاول

أيضاً جذب الدهرية . فيقول « إن المجوس يدعون نبوة زرادشت وتزول الوحي عليه من الله تعالى . وإن الصابئين يدعون نبوة هرمس وواليس (طاليس) وذريثوس وأفلاطون وجاعة من الفلاسفة . وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مقرون بتزول الوحي من السماء على الذين أقرؤا بنوهم . ويقولون إن ذلك الوحي شامل للأمر والنهي والخبر عن عاقبة بعد الموت ، وعن ثواب وعقاب وجنة ونار يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة .

ثم يرى البغدادى أن الباطنية يرفضون المعجزات ، وتزول الملائكة من السماء بالوحي والأمر والنهي ، بل ينكرون أن يكون في السماء ، وإنما يتأولون الملائكة على دعائهم ، ويتأولون الشياطين والأبالسة على مخالفتهم ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العالم بالنواميس والحيل بدعوى النبوة والإمامة ، وأن كل نبي فيهم صاحب دور مسبق ، إذا انقضى دور سبعة ، تبعهم سبعة في دور آخر .

ويفسرون النبي والوحي : بأن النبي هو الناطق ، والوحي أساسه الفائق . وإلى الفائق تأويل نطق الناطق ، على ما تراه يميل إليه هواه فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة الأبرار ، ومن عمل بالظاهر ، فهو من الشياطين الكفرة وأنهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلاً ، يخرجونه عن حقيقته ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة الإمام ، والحج زيارة وإدمان خدمته والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام والزنا عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وزعموا أن من عرف معنى العبادة ، سقط عنه فرضها وتأولوا في ذلك قوله « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، وحملوا اليقين على معرفة التأويل .

ثم يقدم لنا البغدادى - بعد هذا الشرح للفقرة التي ذكرها من رسالة عبيد الله المهدي لأبي طاهر ، فقرة أخرى من هذه الرسالة يقول فيها عبيد الله المهدي : إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال الميعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجن في الأرض . وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقديم العالم .

ويلحق البغدادى بأن في هذا إثبات لفكرته هو أن في الباطنية دهرية يؤمنون بقديم العالم وينكرون الصانع ويطلون الشرائع .

ثم يقدم إلينا البغدادى فقرة أخرى من الرسالة عن متناقضات الأنبياء وينبئ أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومتناقضاتهم في أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبت ، وأباح العمل في السبت ، وأبدل قبله موسى بخلاف جهتها ، ولهذا

قتله اليهود لما اختلفت كلمته . ثم قال : ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة ، حين سألوه عن الروح . فقال : الروح من أمر ربي ، لما لم يعلم ولم يحضره جواب المسألة . ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرفة بحسن الحيلة والشعبذة ولما لم يجد الحق في زمانه عنده برهاناً . قال : لمن اتخذت إلهاً غيري . وقال لقومه . أنا ربكم الأعلى ، لأنه كان صاحب الزمان في وقته .

« وقال في آخر رسالته : وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العقل . ثم يكون له أخت أو بنت حسناء ، وليس له زوجة في حننها ، فيحرمها على نفسه ، وينكحها من أجنبي ، ولو عقل العاقل ليعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي . ما وجه ذلك إلا أن أصحابهم (أي محمدًا عليه الصلاة والسلام) حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لا يعقل ، وهو الإله الذي يزعمونه ، وأخبرهم بكون مالا يروونه أبداً من البعث في القبور والحساب والجنة والنار ، حتى استعبدتهم بذلك عاجلاً ، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولاً ، واستباح بذلك أموالهم بقوله « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذلك أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج .

« وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس . وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتسكين بشرائع أصحاب النواميس ، فهيناً لكم ما نلتم من الراحة في أمرهم » . وينتهي البغدادى إلى القول « وفي هذا الذى ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذاهب الدهرية واستباحة المحرمات وترك العبادات (١) » .

هذا هو نص الخطاب الذى أورده البغدادى منسوباً إلى عبيد الله المهدي القيروانى ، ويؤكد البغدادى أن عبيد الله أرسله إلى أبى طاهر الجنائى . ومن الواضح أن الرسالة باطنية وأنها مأخوذة من هذا الكتاب الذى عرفه ابن النديم وهو كتاب « البلاغات السبعة » . وقد قال ابن النديم كما ذكرنا من قبل « قد قرأته ، فرأيت فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها » (٢) . ويبدو أنه كتاب باطنى يتحدث عن عقيدة الباطنية الفارسية وهى منفصلة تماماً عن الباطنية الإسماعيلية ، وإن كانت هناك عناصر مشتركة ، غير أن الإسماعيلية لا تقدر في النبوات ، ولا تهاجم الرسول محمدًا ﷺ وذريته ، وكذلك القرامطة ، وإنما هذا الكتاب - وهو ينسب إلى عبدان - إنما هو تعبير عن آراء الفرس الشعوبيين الذين تمثلوا في فرق الخرمية والخرميدية وبقايا المانوية والمزدكية والماندائية والكثير من الفرق الغنوصية الخالصة التى لا تتصل بالإسلام أى اتصال .

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٧ - ١٧٩ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٢ .



ولم يكن عبيد الله المهدي من السذاجة بمكان أن يرسل لأبي طاهر خطاباً يربطه بالمجوسية الفارسية عامة ، ويإنكار للحق الإلهي الذي أضفاه هو على نفسه وأصفاه أتباعه عليه ، بانتائمه للبيت الإسماعيلي العلوي ، وهذا البيت ينتهي آخر الأمر إلى محمد ﷺ . والرسالة تهاجمه أشد هجوم ، كما تهاجم الأنبياء من قبله . فالرسالة رسالة مجوسية واضحة ، تشترك بعض عناصرها الجزئية مع جزئيات للمذهب الإسماعيلي ، ولكنها ليست إسماعيلية قطعاً ، ولم تصدر من إمام القميروان إلى أمير القرامطة . ومن الخطأ البالغ أن يقال : إن أبا طاهر الجنابي خالف سياسة أبيه أبي سعيد ، فعمل للفاطميين ، إنه ادعى في الظاهر فقط موالاتهم ، أما في حقيقة الأمر ، فقد كان يعمل لنفسه ، وكما باتت حملة الفاطميين الأولى على مصر (عام ٣٠٠ - ٣٠١ هـ) بالفشل - لأن أبا سعيد الجنابي لم يفعل من ناحيته على نجاحها ، فأرسل حملة شكلية إلى الكوفة ، فلم يشغل جيوش الخليفة العباسي ، وبهذا خلا للعباسيين الأمر وفتكوا بجيش المهدي الزاحف على مصر ، فعل أبو طاهر نفس الشيء عام ٣٠٧ فقد وصل القائم (ابن المهدي - وأول الخلفاء الفاطميين على الحقيقة) إلى مصر «واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره» على حد ما يقول ابن خلدون في العبر <sup>(١)</sup> . ولكن أبا طاهر لم يحضر ، وإنما قام بحملة شكلية فاشلة على جنوب العراق كحملة والده تماماً وهزم مؤنس الخادم قائد الخليفة القائم وأعاده إلى المغرب .

وفي عام ٣١٢ هـ يتبين لنا تماماً أن أبا طاهر الجنابي كان يعمل لنفسه في الحقيقة للمهدي القميروان ، فقد بدأ حملات مريعة على قوافل الحجاج ، يقتل ويسبي ويهدم المساجد السنية <sup>(٢)</sup> ، وقد ارتاع الخليفة المقتدر من هذا العمل الجريء ، وأقلقته أن يحدث لأول مرة في تاريخ الإسلام فكتب إلى أبي طاهر الجنابي عام ٣١٣ هـ «يتوعده على ما استحل فأجابه أبو طاهر بالخطاب الآتي ، وستبين منه إلى أي حد تتضح عقائد الرجل .

«بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين - من أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي الداعي إلى تقوى الله ، القائم بأمر الله ، الآخذ بآثار رسول الله ﷺ إلى قائد الأرجاس المسمى بولد العباس .

أما بعد : عرفك الله مرشد الأمور ، وجنبك التمسك بحبل الغرور . فإنه وصل كتابك بوعيدك وتهديدك ، وذكرك ما وضعته من نظم كلامك ، وتمت به من فخامة إعظامك من التعلق بالباطيل - والإصغاء إلى فحش الأقاويل ، من الذين يصدون عن السبيل . فبشرهم بعذاب أليم ، على حين

(١) المسعودي : التنبيه ص ٣٣٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٨٩ .

زوال دولتك ، ونفاذ منتهى طلباتك ، وتمكن أولياء الله من رقبتك ، وهجومهم على معاقل أوطانك صغراً ، وسيهم حرمك قسراً ، وقتل جموعك صبراً . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ، وجند الله هم الغالبون .

« هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، كالأسد الغضنفر ، في سرايل الظفر ، متقلداً سيف الغضب ، مستغنياً عن نصر العرب ، لا يأخذه في الله لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . قد اكتشف الغز من حوالبه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها ، وانقضت طغا الظلمة ودجنة الضلالة ، وغاضت بحار الجهالة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .

« تالله ، غرتك نفسك وأطعمتك فيما لست نائله ، وسولت لك ما لست واصله . فكنت لي بما أجمعت عليه أذهان كتابك ، ذكرتنى بالعيوب الشنيعة وقذفتني بالمثالب السمجة . تالله لتسألن عما كنتم تخلصون .

« فأما ما ذكرت من قتل الحبيج وإخرا ب الأمصار وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس . وادعى طوائف منهم أنهم أبرار ، ومعانئى منهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

« أخبرنى أيها المحتج لهم ، والمناظر عنهم ، فى أى آية من كتاب الله أو أى خبر عن رسول الله ﷺ إباحة شرب الخمر ، وضرب الطنبور ، وعزف القيان ، ومعانقة الغلمان ، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام ، واحتووها من وجوه الحرام .

« وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأى مساجد أحق بالحرا ب من مساجد إذا توسطتها ، سمعت الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بأسانيد عن مشايخ فجرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة .

« وأما تخوفك لى بالله وأمرك بمراقبته ، فالعجب من بهتك وصلابة حدقتك أترى أنى أجهل بالله منك ، وصرفك أموال المسلمين للصفاعة والضراطين ومنعها عن مستحقها . يدعى على المنابر للصبيان ، ويخطب للخصيان . آله أذن لكم أم على الله تفترون ؟

« وأما ما ذكرت أنى تسميت بسمه عدوان ، فليس أعظم من تسميك بالمغيث لله ، أمير المؤمنين ، أى جيش صدمك فاقتدرت عليه ، أم أى عدو ساقك فابتدرت إليه . لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين ، وإنك لتقلد بعض خدامك شيئاً من أمرك ، فيكا تبه الشريف والرئيس بالسيد

والمول ، فأى الأمرين أقرب للتقوى ، أو ما علمت أنه من انقاد له نفر من عشيرته وعصابة من بني عمه وأسرته ، فقد سادهم وعلا فيهم .

«وبعد - فإلك وللوعيد ، وللإبراق والتهديد . اعزم على ما أنت عليه عازم ، وأقدم على ما أنت عليه قادم ، والله من ورائي ظهير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله وصلى الله على خير برته وآله وعترته » (١) .

وقد أوردت النص الكامل لخطاب أبى طاهر لىكى أين أنه لا يحتوى على عقيدة غير إسلامية ، بل إنه يهاجم الخليفة لفساده وفساد حاشيته ، ثم يبرر ما يفعله هو ، بأنه يهاجم مساجد لا يذكر فيها اسم الله . أو بمعنى أدق إنه يتكلم - كشيعة خارجي ينكر أسانيد الشيوخ - ونحن نعلم أنها أسانيد السنة ويرى أنهم يخفون الحق بفعلهم هذا . ثم ينكر فجور الناس وتهتكهم وخمرهم وزناهم ولواطهم . وعجباً أن يفعل هذا وأن ينقله إلينا الحمادى الجمانى ، وهو الذى اتهمهم بالتحلل والتبثك والزنا واللواط . ولقد كان المسعودى - شاهد عيان لحركتهم ، بل كان فى هيث ، حين حاصرها أبو طاهر . ويذكر المسعودى أنه «كلم غير واحد من دعائهم ، وذوى المعرفة منهم . فلم أر مثله دراية وتحصيلاً وتديناً بما هو عليه» وحسن إتقان للسياسة التى تكون مع الدعاة (٢) .

ولم يذكر أبو طاهر فى خطابه شيئاً من عبادة الله ، ومن الخطأ الكبير أن يتصور باحث ممتاز كالذكور حسن إبراهيم حسن أن أباً طاهر إنما يشير بفقرته «وقد خرج عليك الإمام المنتظر كالأسد الغضنفر» إلى عبادة الله المهدى . ولم يتنبه الذكور حسن إبراهيم وزميله الذكور طه شرف إلى أن أباً طاهر ، إنما يقصد نفسه هو : وأنه هو هذا الإمام ، أو حجة الإمام وسينين هذا بوضوح أكثر - بعد قليل .

كانت الأساطير تتناقل فى هذا الوقت بظهور المنتظر ، ويذكر المقدسى أنه سمع الجوس يذكرون واحداً منهم يخرج ، فيرد الملك إليهم (٣) ويذكر البغدادي أنه لم يجد على ظهر الأرض مجوساً إلا وهو موال للباطنية منتظر لظهورهم وظفرهم على البلاد الإسلامية «يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك . وبما استدل أغمرهم على ذلك بما يرويه الجوس عن زرادشت أنه قال - لكشتاسف : إن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ، ثم يعود إلى الفرس ، ثم يزول عن الفرس إلى العرب . ثم يعود إلى

(١) الجمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٣ ، ٢٥ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٣ .

(٣) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٢ ص ١٩٤ .

الفرس : وساعده جاماسب المنجم على ذلك . وزعم أن الملك يعود إلى العجم لتقام ألف وخمسمائة سنة من وقت ظهور زرادشت « (١) »

وقد أورد البيروني هذه الأسطورة أيضاً . فقال « ولئن كان هذا الوقت هو الذي عناه جاماسب وزرادشت فقد أصابا في الوقت . فقد كان ذلك في آخر سنة ألف ومائتين وأربعين للإسكندر . وقد تم لزرادشت ألف وخمسمائة سنة . ولئن أخطأ في عودة الدولة للمجوس » (٢) . ويذكر البغدادى أنه كان في الباطنية رجل يعرف بأبي عبد الله العردى - ويسميه البيروني العدى - يدعى علم النجوم ويتعصب للمجوس . وقد ألف كتاباً ذكر فيه أن القرآن الثامن عشر من مولد محمد ﷺ يوافق الألف العاشر وهو نوبة المشتري والقوس وأنه عند ذلك يخرج إنسان يعيد الدولة المجوسية ويستولى على الأرض كلها . وادعى أنه يملك مدة سبع قرانات ويستند في هذا على نبوءة لزرادشت وجاماسب في زوال ملك العجم إلى الروم واليونانية في أيام الإسكندر . وقد تحقق هذا ثم عاد إلى العجم بعد ثلاثمائة سنة . ثم زال بعد ذلك ملك العجم إلى العرب . وسيعود إلى العجم لتقام المدة التي ذكرها جاماسب وقد وافق الذي ذكره أيام المكنى والمقتدر ولكن أخلف مواعدهم . وما رجع الملك فيه إلى المجوس ثم كانت القرامطة قبل هذا الميقات يتواعدون فيما بينهم ظهور المنتظر في القرن السابع في المثلثة التالية . وخرج منهم سليمان بن الحسن من الإحساء على هذه الدعوى (٣) .

وهذا يثبت تمام الإثبات أن أبا طاهر خرج داعياً لنفسه لا لعبيد الله . وأن القرامطة كانوا ينتظرون خروج الإمام . وأن أبا سعيد نفسه قد قرأ بعض هذه الأساطير واعتبرها منطبقة على ابنه أبي طاهر « فأخبرهم أنه سيملك الأرض . وقد ذكر الحمادى أن أبا سعيد كان فيلسوفاً ملعوناً ملك البحرين والنجامة والإحساء . وادعى فيها أنه المهدي القائم بدين الله » (٤) .

أما البيروني . فقد ذكر أيضاً رواية عبد الله العدى فقال « أخطأ أبو عبد الله العدى المتعصب للمجوسية جهلاً ، والراجح لخروج القائم دهرأ . وذلك أنه صنف كتاباً في الأدوار والقرانات ، ذكر فيه أن القرآن الثامن عشر من مولد محمد عليه الصلاة والسلام يوافق الألف العاشر وهو للمشتري والقوس . فحكم على أنه يخرج إنسان يعيد دولة المجوسية . ويستولى على الأرض كلها ويزيل ملك

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٢ .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ١٧٣ .

(٤) النجاشي : كشف أسرار . . . ص ٢٠ .

العرب وغيرهم ، وجميع الخلق على دين واحد وأمر واحد ، ويزيل الشر ويملك مدة سبع قرانات ونصف ، ونص على أنه لا يملك من العرب ملك بعد الذي يجلس في القرن السابع عشر ، وليس يقتضى الوقت الذى أشار إليه إلا المكتنى والمقتدر ، ولم يف بالموعود بعدهما (١) .

ويرد البيرونى أن عقيدة القرامطة كانت مزيجاً من بعض مذاهب أهل الباطن والتشيع لآل البيت عليهم السلام ، ويتواعدون ظهور المنتظر في القرن السابع في المثلثة النارية ، ثم يذكر أن أبا طاهر اعتقد أنه هو هذا المنتظر وهذا دليل على أنه لم يؤمن أبداً هو وبمجموعة القرامطة الكبرى بعبيد الله إماماً منتظراً . ولقد أخطأ برنارد لويس ، كما أخطأ حسن إبراهيم خطأ كبيراً في اعتبارهما للقرامطة إسماعيلية أو أتباعاً لهم . وكذلك ماسينيون الذى اعتبر الحركتين واحدة .

وفى عام ٣١٧ هـ هجم أبو طاهر على مكة ، وقتل وسبى ، واقتلع الحجر الأسود وحمله من مكة إلى الإحياء وقال :

ولو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا  
لأنا حجبنا حجة جاهلية مجللة لم نبق شرقا ولا غربا  
وإنا تركنا بين زمزم والصفاء جناز لا تبغى سوى ربهاربا  
ولكن رب العرش جل جلاله لم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا (٢)

وضرب أحد كبار رجال أبى طاهر الحجر الأسود وقال «كم تعبد في الأرض وآل محمد لا يظهرون» وهنا يتبين لنا بوضوح وجلاء أن القرامطة هاجموا الكعبة وحملوا الحجر الأسود لاعتقادهم أن الحج باطل بدون ظهور الإمام من آل محمد ، ومعنى هذا أنهم لم يعتبروا عبيد الله مهدى الزمان بل كانوا في الانتظار بعد .

ومن المهم أن نلاحظ أن عبيد الله المهدي أعلن هو نفسه تبرؤه من أبى طاهر ومن أخذه للحجر الأسود وقتل الحجاج . فبعث إليه منكرأ لاعناً قائلاً : «قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت . وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة . فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة» (٣) .

ولم يستجب أبو طاهر لهذا الأمر ، بل بقى الحجر الأسود في هجر عاصمة أبى طاهر اثنتين وعشرين سنة ، أى بقى بعد موت أبى طاهر بسبع سنوات وبعد موت عبيد الله المهدي نفسه بسبع عشرة سنة .

(١) البيرونى : تحقيق . . . ص ٢١٤ .

(٢) البهائى : كشف أسرار . . . ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٧١ .

ثم نقل إلى الكوفة حيث رده عام ٣٣٩ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى (١) .  
وقد حاول بعض المؤرخين القدامى والمحدثين أن يثبتوا أن اقتلاع أبي طاهر للحجر الأسود إنما كان بأمر عبيد الله وإيجائه . وأنه إنما أرسل رسالتين لأبي طاهر - إحداها ظاهرية ينكر عليه فعله والثانية سرية يأمره فيها بعدم إعادة الحجر الأسود إلى مكانه (٢) . ولكنني أشك كل الشك في هذا . فلم يكن اقتلاع الحجر الأسود مما يفيد في شيء ، بل على العكس كان يثير عليهم نائرة العالم الإسلامي كله وبخاصة مصر ، وكان الفاطميون على وشك معاودة الكرة على العباسيين فيها ؛ بل إن اقتلاع الحجر الأسود سبب فعلاً إثارة نوع من الجهاد المقدس ضد عبيد الله نفسه ، وتسبب أيضاً في فشل حملته الثالثة . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية العقائدية ، فليس في عقائد الإسماعيلية هدم الكعبة . ولو أرادوا الاعتداء على الكعبة لأمروا على بن فضل أو ابن حوشب أن يقوموا بهذا العمل . حقاً إن الدرور يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله سيهدم الكعبة ، وينقل القبة إلى بيت المقدس ؛ ولكن العقائد الدرزية ليست عقائد إسماعيلية معتلة وهى متأخرة عن هذا العصر الذى نعيش فيه .  
وهنا نتساءل : ماذا كانت غاية أبي طاهر الجنابى من اقتلاع الحجر الأسود ؟ يذهب مؤرخو السنة إلى أنه فعل هذا تديعماً للفكرة الباطنية المجوسية من إبطال الحج ، وهدم الكعبة ، وإظهار عبادة النار ، وأنهم لما لم يتمكنوا من إظهار هذه العبادة ، احتالوا وقالوا للمسلمين « ينبغي أن تبحر المساجد كلها . وأن تكون في كل مسجد بحجرة يوضع عليها الند والعود في كل حال .

وكانت البرامكة قد زينوا للرشد أن يتخذ في جوف الكعبة بحجرة يتبخر عليها العود أبداً . فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار (٣) » وما يؤيد هذا الرأى ظهور ذكرى المجوسى عام ٣١٧ وتوليته أمر القرامطة . غير أنه من البعيد أن تكون هذه غاية أبي طاهر . فلم نسمع أنه أقام في الكعبة شعائر أو طقوساً مجوسية ، كما أنه لم يفكر في هدم البيت الحرام . بل إننا نرى أنه بعد أن حمل الحجر إلى هجر ، نقله إلى مسجد الكوفة الجامع وعلقه به . فكان غاية أبي طاهر إذن أن يوقف فريضة الحج ، وأن يعرقلها ، ذلك لأن الحج إنما كان يؤدي على طريقة أهل السنة . وباسم الخليفة العباسى عدو آل البيت . وكان أبو طاهر وأتباعه على يقين من أن دور الإمام المنتظر ، سواء أكان هو أو أحد أفراد البيت العلوى ، قد أطل زمانه .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٥ .

(٢) الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٢٢٤ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ١٧٢ .

والحج عند الشيعة - وكل اجتماع خطبة وصلاة جمعة - إنما باسم الإمام ، ولما كان الإمام لم يظهر بعد . فلا حج ولا جاعة .

هذا هو السبب الحقيقي لنقل الحجر الأسود إلى هجر ثم إلى الكوفة . وإن كان هذا السبب لا يمنع من أن عدداً لا يستهان به من أتباع أبي طاهر كانوا مجوساً وكانوا يرون في نقل الحجر الأسود انتقاماً من الإسلام ونبه ، ومحاولة للقضاء عليه وعلى طوقسه ، ولكن لم تكن هذه أبداً غاية أبي طاهر . ولقد أفرغ اقتلاع الحجر الأسود من مكانه في الكعبة العالم الإسلامي كما قلنا شيعة اثنا عشرية وسنة بل فاطمية إسماعيلية . واستنكره عبيد الله في خطاب شديد اللهجة إلى أبي طاهر .

وفي عامي ٣١٥ - ٣١٦ بدأ أبو طاهر الجنائي مهاجمته للعراق . وسار حتى شباهها . ولكنه ارتد منهزماً حتى عاصمة ملكه هجر . فكتب لأهل العراق قصيدة يقول فيها :

|                               |                                            |
|-------------------------------|--------------------------------------------|
| أغركم منى رجوعى إلى هجر       | وعما قليل سوف يأتيكم الخبر                 |
| إذا طلع المريح في أرض بابل    | وقارنه النجمان فالخذر الخذر                |
| فمن مبلغ أهل العراق رسالة     | بأنى أنا الموهوب في البدو والحضر           |
| فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة    | يساقون سوق الشاة للذبيح والبقرة            |
| ألت أنا المذكور في الكتب كلها | ألت أنا المنعوت في سورة الزمر              |
| سأملك أهل الأرض شرقاً ومغرباً | إلى قيروان الروم والترك والخزر             |
| أكيل لهم بالسيف حتى أبيدهم    | فلا أبقي من نسل أنثى ولا ذكر               |
| أنا الداعى للمهدى لاشك أننى   | أنا الضيفم الضرعام والفارص الذكر           |
| ولكنه حتم علينا مقدر          | فثنى ويبقى خالق الخلق والبشر               |
| وأعمر حتى يأتى عيسى بن مريم   | فيحمد آثارى ويرضى بما أمر                  |
| ففى جنة الفردوس لاشك مربي     | وغيرى يصل فى الجحيم وفى سقر <sup>(١)</sup> |

ويبدو أن كثيرين من المؤرخين المحدثين لم يتيقنوا حقيقة هذه الأبيات وظنوا أنها إشارة إلى عبيد الله المهدى . وهذا خطأ فاحش .

فالقصيدة كيسانية أو حنفية بحتة . وقد تنبه البغدادي إلى هذه الحقيقة وإن كان لم يوضحها - فقال « أراد بالنجمين زحل والمشتري . وقد وجد هذا القرآن في سنى ظهوره . ولم يملك سبع قرانات ،

وما ملك سبع سنين . بل قتل بهيت رمته امرأة من سطحها بلبنة على رأسه فدمغته ، وقتل النساء أخس قتيل وأهون فقيد (١) .

ومن الواضح أن البغدادي يشير إلى أن أبا طاهر إنما يرمز إلى نفسه ويعلن أنه الداعي إلى المنتظر أو المنتظر ذاته . وكذلك البيروني يذهب إلى نفس الأمر فيقول إن القرامطة كانوا يتواعدون ظهور المنتظر في القرن السابع ، وأنهم اعتقدوا أنه أبو طاهر . وقد قلت إن أباه أبا سعيد كان يشير إليه أيضاً على أنه المنتظر . بل إن أبا طاهر نفسه فيما يرى الجاهل الجاني « كان فليسوفا ملعونا ملك البحرين والأحساء وادعى فيها أنه المهدي القائم بدين الله ، واستفتح ودخل مكة وقتل الناس في المسجد من الحج واقتلع الركن ، وراح به إلى الأحساء (٢) » .

وإذا تأملنا شعره - من ناحية النقد الداخلي للنص - لثين لنا أنه يعلن نفسه المبعوث المنتظر مستنداً على ظواهر فلكية ، ثم على تفسيرات باطنية للكعب المقدسة عن المهدي ، ثم يذكر أنه المبعوث أو المبعوث في سورة الزمر . والآية الثامنة من السورة تتكلم عن القائم وقد أولها أبو طاهر - فيما يبدو - بأنه هو هذا السجاد القائم « أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة به . قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الالباب » ثم الآية « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين » وقد حول كل هذه الآيات التي خص الله بها الرسول إليه هو .

أما أنه سيملك الأرض فهو يستمدّها أيضاً من تفسيره الباطني للآية « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نبياً من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين » أما أن مربعة جنة الفردوس وغيره في سفر فتاويل للآية « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا - قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

يبدو أن أبا طاهر مزج كل هذه التأويلات بأقوال المنجمين والمجوس وآمن بها عن يقين ، ولكن هناك شاهد أواضحاً حاسماً في قصيدته يثبت أنه حنفي . إنه يذكر أنه داعية للمسيح ، وأنه سيعمر حتى يأتي ويشهد له . ونحن قد ذكرنا من قبل هذا الكتاب الحنفي الوارد عن أحمد بن محمد بن الحنفية ،

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٣ .

(٢) الجاني : كشف . . ج ١ ص ٢٠ .



والذى انتشرين قرامطة السواد ثم حملته بدون شك معه أبو سعيد الجنابى والد أبى طاهر ويبدأ الكتاب بأنه «داعية للمسيح عيسى بن مريم». فهو إذن الفار قليط الآئى من روح القدس والذى بشر به الإنجيل وهذا ما يحسم الأمر فى أن عقائد القرامطة الرسمية كانت كيمانية حنفية.

ونلاحظ أيضاً أن أباً طاهر حارب يوسف بن أبى الساج - القائد العباسى الكبير - وكان هذا القائد على عقيدة فاطمية مستنرة وقد أسره أبو طاهر - وقتله - مع علمه الكامل بأنه فاطمى ، يدين بالولاء لحاكم القيروان . فأبو طاهر لم يكن يأبه بعبيد الله ولا بأوامره - اللهم إلا إذا حققت له وللقرامطة مأرباً خاصاً .

وما لبث أن قام أبو طاهر بحركة من أعجب الحركات فى تاريخ القرامطة بل فى تاريخ الإسلام « فقد ظهر فى البحرين فى ظروف غريبة مريبة فى أول شهر رمضان عام ٣١٩ هـ . ابن أبى زكريا الطامى - كما يدعوه البيرونى<sup>(١)</sup> . أو زكريا الأصفهاني المحبسى أو الدجال الفارمى كما يقول ابن الأثير<sup>(٢)</sup> أو الغلام المعروف بالذكري من أبناء ملوك الأعاجم من بلاد أصبهان كما يقول المسعودى<sup>(٣)</sup> وقد دعا إلى ألوهيته . يقول البيرونى « وكان غلاماً فاجراً ، فدعا إلى ربوبيته وسن لهم هذا الغلام أن تشق بطون الموتى وتنسل وتغشى خمراً . وقطع يد من أطفأ ناراً بيده ، وقطع لسان من أطفأها بنفخة ، ثم أمرهم بالفجور بالغلمان . . . وأمرهم بعبادة النيران وتعظيمها ولعن من مضى من الأنبياء وأصحابهم » ويذكر القاضى عبد الجبار « أن أباً طاهر رجب بالدجال زكريا الأصفهاني وثار معه على الفاطميين وفضح أسرارهم المذهبية ، وأن الدعاة أمثال أبى القاسم عيسى بن موسى وأبى مسلم بن محمد الموصلى وأبى بكر وأخيه حاتم بن حمدان الرازى الكلاعى وآخرين قد ماتوا أسفاً وحرزاً على فضح أبى طاهر للدعوة » بل يذهب عبد الجبار إلى أن « القرامطة أعلنوا أثناء حكم زكريا بأن جميع تعاليمهم السابقة عن المهدي والنسب النبوى ما هى إلا لغو وكشفوا عن أسرار فرقهم كلها ، ونشروا لأول مرة قصة عبد الله بن ميمون ودنان وغيرهما ، وخططهم فى خداع المسلمين ، وطعنوا فى جميع الأدیان . وأحرقوا الكتب الدينية كلها ، ونادوا بابن زكريا إلهاً . واستحلوا المحرمات<sup>(٤)</sup> . وقد أثار هذا الدعاة كما قلت وقتل زكريا داعية القرامطة الكبير . أباً حفص بن زرقان ، وكان زوج أخت أبى طاهر ، وكان يدعى الشريك وكان أكملهم عقلاً وأحسنهم علماً .

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ج ٨ ص ٢٦٣ .

(٣) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .

(٤) لويس : أصول . . . ص ١٨٦ .

وهذا دليل آخر أكثر حمياً على أن أبا طاهر لم يهتم بالإسماعيلية اهتماماً حقيقياً . وأن كل ما اهتم به هو تدعيم سلطانه هو وسلطان القرامطة ، فلما هزم في العراق ورجع إلى هجر ، أصابه بعض اليأس ، فضعف أمام المجوس الفرس من شيعته ، ورحب بأبي زكريا المجوسى ، وأطلق له الأمر ، ومكث زكريا هذا ثمانين يوماً يحكم القرامطة « إلى أن سلط عليه من كان تولى إظهاره فذبحه » (١) . أى قام أبو طاهر نفسه بقتله ، ورجع القرامطة إلى عقيدتهم القديمة . ويذكر المسعودى « أن رأى زكريا أظهر في العسكر من المذاهب الشيعية والسير الفبيحة التى لم تعهد ، ولا عرفت في عسكر هؤلاء القوم منذ استولى أبو سعيد على هذه البلاد وولده » وبعد قتله زالت ورجعوا عنها ، واعتذروا أشد الاعتذار (٢) . وفي عام ٣٢١ هـ . قام أبو طاهر بحملته الأخيرة ، على جنوبى غرب فارس وقد فشلت حملته أيضا . ومات أبو طاهر الجنازى عام ٣٣٣ هـ . أى بعد عشرة أعوام من وفاة عبيد الله المهدي (المتوفى عام ٣٢٢) وعاصر حكم القائم (المتوفى عام ٣٣٤ هـ) ، ولم تكن بين الاثنين علاقات . ولم يستطع القائم أن يجعل أبا طاهر يعيد الحجر الأسود إلى مكانه .

تولى زعامة القرامطة بعد أبي طاهر أخوه أحمد ، على أن يكون ولى عهده سابور بن طاهر . وقد سار أحمد بن أبي سعيد على سياسة أبيه وأخيه . العمل لخير القرامطة وحدهم ، فما غزا الشام عام ٣٥٨ ، وعرض عليه الحسين بن عبيد الله بن طغج الأخشيذ والى الشام الصلح ، قبل فورا بدون مراعاة لصالح الفاطميين ، وهم على وشك الانقراض على مصر . ويبدو أن سابور بن أبي طاهر كان على ولاء للفاطميين ، فلما توفى عمه عام ٣٥٨ ، وحاول سابور تولى رئاسة القرامطة ، لم يقبل معظمهم . وقاموا بثورة عليه ، وقتلوه ونفوا أنصاره إلى جزيرة أوال . وكان يقود الثورة الحسن بن أحمد الأعظم .

وسرعان ما انقض الحسن الأعظم على دمشق وقتل جعفر بن فلاح القائد الفاطمى الكتامى (٣٦٠ هـ) وقام الحسن الأعظم على منبر جامع دمشق ولعن الخليفة الفاطمى وأعلن أن هؤلاء من ولد القداح ، كذابون ممخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم . ومن عندنا خرج جدهم القداح (٣) . وهكذا نرى الحسن الأعظم يسير على سياسة أبيه وعمه وجده لا يؤمن بالفاطميين ، بل يباريهم أشد حرب ويعلن أنهم كذابون ممخرقون ، وأن عبد الله بن ميمون إنما خرج من عندهم ، أى أنه لم يكن متسبباً للبيت العلوى . بل إن الحسن الأعظم يحاول بكل الوسائل التقرب من الخليفة العباسى

(١) البيهقي : الآثار الباقية ٢١٤ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .

(٣) أبو الحسن : التاج الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

المنطعم ، ويحاول العودة كما فعل عمه سعيد إلى حظيرة السنة . وحارب الحسن الأعصم الفاطميين . وكاد أن يفتح مصر ، لولا أن قام العزيز ، الخليفة الفاطمي على رأس الجيش لمحاربه وانتصر على الحسن الأعصم في عام ٣٦٦ هـ . وقد حالت وفاة الحسن الأعصم عام ٣٦٧ هـ من معاودة القرامطة الكرة على مصر .

أما أن المعز قد أرسل إلى الحسن الأعصم خطاباً طويلاً ملاءة بالاصطلاحات الإسماعيلية ، والتعابير الغنوصية ، وذكره فيه بسنة آبائه وأسلافه ، وأنهم كانوا عبيداً للفاطميين وخولا لهم ، فإنه من نوع المراء الذي جبل عليه المعز وأصحاب الدعوات السرية جميعاً ، علاوة على أن أبا سعيد على الأقل لم يكن أبداً فاطمياً أو مخلصاً للفاطمية ، وكذلك أبو طاهر . إنما استخدم المعز هذا الأسلوب للتأثير في بعض أتباع الرجل من الإسماعيلية . وقد رد الحسن الأعصم على خطاب المعز حينئذ « من الحسن بن أحمد الأعصم - بسم الله الرحمن الرحيم . وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله ، وقل تحصيله . ونحن سائرون على أثره والسلام . وحسبنا الله ونعم الوكيل <sup>(١)</sup> .

فالقرامطة ، في مجموعهم لم يكونوا إسماعيلية ، وإن كان البعض منهم قد بقي مؤمناً بها بعد اعتناق حمدان قرمط لمبادئها مدة من الزمن - بل إننا نجد داعياً من أقرب الناس إلى عبدان - وهو عيسى بن موسى ابن أخته ، وحريث بن مسعود تلميذه يبقيان على عقيدتهما الإسماعيلية المقيدة ، وهى الإيمان بمحمد بن إسماعيل فقط ويذهب عيسى بن موسى إلى بغداد ، ويعيش فيها . ويذكر النويرى أن عيسى ابن موسى نظم الدعوة في بغداد ، وأخذ يؤلف الكتب وينسبها إلى عبدان ، وقد جمع في هذه الكتب ولفق المذاهب حتى توهم الناس أن عبدان أعلم أهل الأرض . وقد حاول برنارد لويس جاهداً أن يثبت التشابه بين القرامطة والإسماعيلية مستنداً على أخبار متأخرة في رسالتين درزيتين نقلهما دى ماسي : أولاهما : السيرة المستقيمة بشأن القرامطة لحمزة الأصفهاني .

ويبدو أن هذه الرسالة قد كتبت سنة ٤٠٩ هـ . ويتكلم حمزة في هذه الرسالة عن تأسيس الدعوة في هجر على يد رجل اسمه شاتنيل بن دانيال « ويذهب أهل الإحساء عادة إلى صرنا - هجر - ليبيعوا ويشترؤا . فجاء إلى صرنا رجل من علماء الإحساء اسمه صرصر ، فأدخله أحد الدعاة مذهبه ، وأخذ عليه اليهود والمواثق ، وجاء به إلى آدم الذى هو شاتنيل ، فعينه آدم داعية للإحساء وما جاورها ، فانطلق صرصر إلى الأحساء وما يتبعها ، وأخذ اليمين من قوم كثيرين ، وأوصاهم أن يخلصوا لعقيدة وحدانية مولانا وعبادته ، ويعترفوا بشاتنيل وإمامته ، ويكفروا بإبليس وأتباعه ، وقال لهم : إذا دخلتم

هجر ، فقرمطوا أنوفكم على أهلها ، لأن فيها رجلا اسمه الحارث بن طرماح الأصفهاني له أتباع كثيرون ناثرون جميعهم على مولانا العليم ، ولا يعتقدون بأفضلية الإمام ولا تحدثوا أحداً من أهلها عن الدعوة إلا الذين معكم في حضرة الحكيم شانتيل . فاستجابوا بصرصر وأطاعوا ما أمرهم به ، وتظاهروا كما قال لهم بالقرامطة ، فسموا بالقرامطة واتسموا بها إلى الآن .

وهذه رواية جديدة عن ظهور اسم القرامطة ، وتعني أنه ظهر في أوائل القرن الخامس ثم انتشر هذا الاسم في أهالي خراسان وفارس ، وصاروا إذا وصفوا رجلا بالتوحيد . قالوا : هذا قرمطي . وقد كان أبوطاهر وسعيد وآخرون كثيرون دعاة مخلصين لمولانا ، خدموه وعرفوا وحدانيته وإجلاله وعظموه ، واعتقدوا أنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه . وقد انضم إليهم المولى بلقب سيد ، وعملوا ما لم يعمله غيرهم من الدعاة في نشر عقيدة التوحيد ، وقتلوا من المشركين أكثر مما فعل غيرهم . ولكن مولانا لم ير إظهار نفسه بينهم ، لعلمه أن ذلك يوقع الخلاف بينهم حتماً ، وتضيق عقيدة التوحيد ، فينتشر الضلال ، ويتبع أطفال بني عباس أهواءهم ، فيسقطون في الخطيئة والغواية .

«ولكن يوم الظهور قريب ، وساعة إشارة السيف والثورة وتقتل الكافرين وإبادة قواتهم آتية تكاد تظهر . ولا شك في أن أهل الإحساء وهجر وفارس سيعودون إلى معرفة مولانا وعبادته - كما كانوا من قبل - سيخرون سجداً لمولانا وعظمته ، وسيؤمنون بأنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه وسيصبحون حياة عقيدة التوحيد ، كما كان آباؤهم من قبل وسأبعث فيهم دعاة التوحيد ، وأجمع بقايا الأصدقاء والعبيد ، وسوف أنتصر بسيف مولانا على كل ناثر» .

أما الرسالة الثانية التي استند عليها لويس برنارد فهي رسالة للمقتنى أبي الحسن علي بن أحمد السموقى المكنى بالمقتنى بهاء الدين . أحد أصحاب حمزة وقد دعاه حمزة نفسه جناحه الأيسر . واسم الرسالة رسالة السفر إلى السادة في الدعوة لطاعة ولي الحق الإمام القائم المنتظر ، وفيها يخاطب الداعي المقتنى شيوخ البحرين - وهم ما يسميهم السادة ، ويطلب منهم العودة إلى حظيرة التوحيد - أي إلى عبادة الحاكم بأمر الله الإسماعيلي ، ويلومهم على ردتهم .

وينتهي لويس إلى القول بأن «شهادة هاتين الرسالتين الدرزيين تعززهما بينة المصادر السنية ، لا تترك شكاً في امتزاج القرامطة والفاطميين برهة من الزمن على الأقل ، وليس من الصعب أن نعرف بما جاء في رسالة حمزة بصدد نشوء القرامطة من البحرين ، وإن كان بأسلوب خرافي» (١) . ومن العجب أن يستند برنارد لويس على كتب الدرور في توضيح العلاقات التاريخية الصحيحة بين القرامطة والإسماعيلية . إن الكتب الدرزية لا يمكن أبداً أن تكون أساساً علمياً للحقائق التاريخية ،

فقد كُتِبَ - وقد لاحظ هو نفسه ذلك - بأسلوب أسطوري . ثم ينبغي أن نلاحظ أن حمزة هوداعى الحاكم بأمر الله ، ومتكلم عصره . ونرى بوضوح من مضمون رسالته أن يدعو عبادة مولانا فهو إذن يتكلم عن محاولة جديدة لإدخال الحاكمية أو ما عرف فيما بعد باسم مذهب الدرّوز إلى البحرين . لم تكن الإسماعيلية تؤمن بعبادة مولانا ووحدانيته ، ولم تعرف هذه المصطلحات إلا في عهد الحاكم وعلى يد داعية حمزة ثم الدرّوز فيما بعد .

ونحن نعلم أن القرامطة في البحرين عادوا إلى التشيع العلوى على طريقة كيسانية بعد وفاة الحسن الأعصم - فيما يقول ابن خلدون في العبر (١) . فحاول الحاكم أن ينشر بينهم الدعوة إلى ألوهيته ، واستخدم داعى دعائه حمزة ، وأرسل المقتنى أحد الأركان ، ويبدو أنه بدأ دعوته هناك ، ولم ينجح ، فكتبها حمزة في صورة رمزية .

ومن الدلائل القاطعة على أن شيوخ البحرين لم يتابعوا المذهب الفاطمى رسالة تحتفظ بها المكتبة الأهلية بالقاهرة في مجموعة مخطوطات حمزة ، هذه الرسالة - هي صورة كتاب أرسله زعيم القرامطة إلى الحاكم بأمر الله يتهده ويتوعده ويطلب إليه الخضوع للقرامطة . فالعلاقة إذن بين القرامطة والفاطمية لم تكن أبداً علاقة مودة في جوهرها ، واستمر النزاع العقائدى بين الاثنين أمداً طويلاً . وقد أحس لويس بأن القول بالتشابه بين الاثنين لا يمكن قبوله على إطلاقه ولكنه - وهو يحاول تدعيم فكرة التشابه رأى أن القرامطة - كانوا حنفية ، ثم صباؤا جميعا إلى الإسماعيلية وهذا وضع خاطئ للمسألة : إن القرامطة بقوا دائماً حنفية كيسانية إلا في آثات تحولوا فيها ظاهرياً للمذهب الإسماعيلى ، أو استخدموه ثم عادوا إلى الحنفية أو الكيسانية .

ولقد وصف ناصر خسرو في كتاب سفرنامه مجتمعهم ، لا صيام ولا صلاة ولكن مع إيمان بنبوة محمد ﷺ . وتحريم للخمر مهما كان نوعها . وحياة نقاية كاملة ، ثم افترقوا دويلات ، حتى قضى عليهم المذهب السنى عام ٤٧٠ وانتهى من الأرض انتهاء كاملاً .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ .

## الفصل الخامس

### أحمد الكيال

#### فيلسوف الإسماعيلية الكبير

تكلمنا في الفصل السابق عن مجهودات الدعاة الإسماعيليين - وبخاصة الحسين الأهوازي - بين القرامطة . ورأينا أنه انبثق عن هذه الدعوة التحام القرامطة حيناً بالإسماعيلية ، ثم افتراقها عنها في أغلب الأحيان . وليس بين أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نعرض لآراء مفكرى القرامطة بالتفصيل وبخاصة عبدان ، على كثرة ما ذكر اسمه في الأحداث السياسية بين القرامطة وبين الإسماعيلية ونحن الآن هنا في هذا الفصل نعرض لفيلسوف من فلاسفة الإسماعيلية ، لم يترك عنه إلا شذور غامضة ، وأخبار قليلة نادرة : وهو أحمد الكيال .

لم يذكر مؤرخو الفرق شيئاً على الإطلاق عن تاريخ مولده أو وفاته . غير أنه من الممكن أن نصل على وجه التقريب إلى عصره خلال النقد الخارجى والداخلى لبعض النصوص التى بين أيدينا . فنصل خلال النقد الخارجى إلى أنه كان معاصراً للفيلسوف الملحد المشهور محمد بن أبى بكر الرازى (المتوفى في عام ٣١٣ هـ) . إن ابن النديم يذكر في قائمة كتب الرازى «كتاب النقض على الكيال في الإمامة»<sup>(١)</sup> . ويذكر هذا النص نفسه ابن أبى أصيبعة<sup>(٢)</sup> . فالرجل إذن شغل المجامع الفكرية الإسلامية في عصره . ومن المرجح كثيراً أن يكون قد عاصر الرازى ، بحيث عنى هذا الفيلسوف الكبير الملحد بكتاب الكيال ، فكذب في نقضه وفي الرد عليه . وأما النقد الباطنى - لفقرات الكيال التى حفظها لنا الشهرستانى من كتاب هذا الأول - فيرجع أن صاحبها عاصر إخوان الصفا . ذلك أنه يتضح في هذه الفقرات مشابهة كبرى بينها وبين رسائل إخوان الصفا .

أما الشهرستانى<sup>(٣)</sup> - وهو أكثر المفكرين كتابة عنه - فقد أدرج فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة ، وأوردها بعد الخطائية أتباع أبى الخطاب الأندى . وذكره تحت اسم أحمد بن الكيال أحياناً . وأحمد الكيال أحياناً أخرى . ويقول عنه «وكان من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٣٣ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون ... ج ١ ص ٢١٩ .

الصادق - وأظنه من الأئمة المستورين» ويبدو أن عبارة «من الأئمة المستورين» إنما تتعلق بواحد من أهل البيت لا بالكيال - فالعبارة في ظاهرها إذن تعني أن أحمد الكيال كان من دعاة واحد من أهل البيت من الأئمة المستورين بعد الإمام الصادق . ولكن من الممكن تخريج العبارة بأن أحمد الكيال نفسه كان من المستورين . وقد يقوى هذا التخريج إلى حد ما ما ادعاه الكيال بعد ذلك أنه الإمام ثم أنه القائم . والنص يحدثنا أنه عاش بعد جعفر الصادق وفي نطاق الأئمة المستورين ، أى ينبغي أن يوضع في فلك الأئمة الإسماعيلية - في دور السر - منذ أن أعلن الإمام محمد بن إسماعيل استتاره . وهذا يقللنا إلى احتمال آخر : هل أحمد الكيال هو الإمام الإسماعيلي المستور أحمد بن عبد الله بن محمد إسماعيل ، وقد عرف هذا الإمام بتضلعه في الفلسفة اليونانية ، حتى إن بعض المؤرخين ينسبون إليه رسائل إخوان الصفا . وحيثذ يقرأ نص الشهرستاني السالف الذكر على الوجه الثاني الذي ذكرته : وهو أن أحمد الكيال كان هو نفسه من الأئمة المستورين . ولكن ينقض هذا الرأي ما يذكره الشهرستاني نفسه «ولعله سمع كلمات علمية ، فخالطها برأية القائل ، وفكره العاطل ، وأبدع مقالة في كل باب علمي على قاعدة غير مسموعة ولا معقولة . وربما عاند الحس في بعض المواضع ، ولما وقفوا على بدعته ، تبرأوا منه ولعنوه ، وأمرؤا شيعتهم بمنابدته وترك مخالطته ، ولما عرف الكيال ذلك ، صرف الدعوة إلى نفسه ، وادعى الإمامية أولاً ، ثم ادعى أنه القائم ثانياً» (١) فإذا كان المستورون قد تبرأوا منه فهو ليس إذن الإمام أحمد .

وهنا يقابلنا نص قد يكشف القناع عن حقيقة أحمد الكيال «يقول الداعي إدريس : كان حجة ثالث الخلفاء - أى الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل - أحمد الملقب بالحكيم - من ولد مولانا الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، تسلم مرتبته من عبد الله بن الميمون - قدس الله روحه - وهو أحمد الحكيم ، الحجة الجليل قدرها ، العظيم خطرها ، وأرفع الحجج وأمهاها ، وأبطنها وأعلاها» (٢) ولم يتنبه الباحثون في تاريخ الإسماعيلية إلى حقيقة هذا الحجة «أحمد الحكيم» وظنوا أنه أحمد بن عبد الله بن ميمون . ولو كان هذا صحيحاً ، لذكر الداعي إدريس أن عبد الله بن ميمون سلم مرتبة الحجة قبل وفاته إلى ابنه أحمد . ولكن النص لا يذكر هذا علاوة على أنه يقرر أن أحمد الحكيم هذا هو من نسل الحسين بن علي . ونحن نسأل : من هو أحمد الحكيم هذا ؟ إن الاحتمال الأكثر صواباً أنه أحمد الكيال ، وأنه كان حجة للإمام الحسين لمدة من الزمن ، ثم اختلف معه ، وانفصل عنه ، وكون فرقة هو ، وبخاصة أنه كان يدعى الانتساب للعلوين أو أنه كان واحداً منهم . ولما انفصل عن الإمام الحسين ، عاد هذا الأخير إلى التماس حججه من أولاد القداح ، فعين كحجة له - محمداً أباً

(٢) الداعي إدريس : زهر المعاني ... ٦٤ .

(١) الشهرستاني : الملل : ج ١ ص ٣٠٤ .

الشلمع ويلاحظ أن كتب الإسماعيلية قد أهملت ذكر أحمد الحكيم إماماً تاماً . والسرفى هذا اختلافه مع الإمام وإعلان نفسه إماماً وقائماً . وبهذا تكون وجهه النظر الثانية وجهة أقرب إلى الصحة . وهنا نقابلنا مشكلة أخرى : وهى اسم الكيال نفسه ، وقد أطلق على أتباع هذا الرجل أيضاً فقيل لهم الكيالية ، ماذا يعنى هذا الاسم ؟ هل هو اسم صنعة كالقдах والعلاف والإسكافى . . إلخ . أم أنه كيال الحكمة أى الذى يكيل الحكمة للناس ؟ وقد رأينا تفسيراً مثل هذا لاسم القдах نفسه ، فقيل إنه سمي بهذا : لأن الحكمة تنقدح فيه ومنه .

غير أننى أقترح قراءة أخرى للاسم : وهى الكبال بدلا من الكيال ، وتكون الفرقة اسمها الكبالية لا الكيالية . والكبالية أو القبالية - هى فرقة يهودية صوفية نسبة إلى الكبالا .

والكبالا : فرقة غنوصية يهودية ، وقد انتشرت فى العالم الإسلامى ، ويعرفها فيدا بأنها تشوق إلى معرفة العالم ، معرفة أصله ، معرفة الحكومة الكونية التى تحكمه ، ثم غاية هذا العالم . ولكن هذه المعرفة لا تكون عن طريق البحث المنهجى للواقع المحسوس ، ولا يستند على جدل تصورى . إنها تتحقق متجاوزة المعقول ، متخذة طريق التأمل والإشراق . وقد اتخذت الكبالا طرقاً متعددة لتدشين المريدين .

وفى أساس الكبالا ، وإذا نظرنا إليها من داخل ، نجد الغرابة العجيبة فى تجاوز فكرة الذوق وفكرة السنة . إنها تنعكس إذا حللنا اسم الكبالا لغوياً . إن معنى الكبالا : السنة (١) .

وقد أصبحت الكبالا تحتوى - بجانب مذهبها الصوفى - الطلاسم والسحر والنيونجات . والاعتقاد فى قيمة الحروف والأرقام ، واستخدام القيم العددية للحروف الأبجدية . وقد انتشر القباليون فى العالم الإسلامى ، وعرفت الكبالا معرفة تامة . ويبدو أن ميمونا القдах نفسه كان على معرفة تامة بها . وقد أوردنا من قبل أن الحماذى الإمامى يتهمة بأنه كان يهودياً صائفاً يخدم أولاد إسماعيل ابن جعفر ، وأنه كان يعيش فى سلعية . ويوجد لا شك عنصر يهودى فى هذه التأويلات الكثيرة التى وضعها الإسماعيليون للقرآن ، وهناك اتجاه كبالى واضح إلى أقصى حد فى اعتقادهم فى الحروف والأرقام فى استخدام القيم العددية للحروف الأبجدية . وأكبر مثال لكل هذا أو أول مثال : هو أحمد الكيال ، ثم إخوان الصفا ، ثم كتب الدعاة الإسماعيليين جميعاً . ولكن إن صحت هذه القراءة ، هل يمكن أن نفترض أن أحمد الكيال أو الكبال كان يهودياً ، ادعى الانتساب إلى البيت الحسينى ؟ من المحتمل هذا ، ومن المحتمل أنه لم يكن وأنه كان يدعى فقط فى درجات الدعوة العليا بالكبال ، لبراعته فى علم الطلاسمات ومعرفته لحقايا ولزاياء القيم العددية للحروف ، كما ستراه واضحاً فى مقاله .



وأنا أميل إلى القول بأنه لم يكن يهودياً ، وإنما لقب بالكيال لمعرفة بعلم الكبالا . ولم يذكر الشهرستاني عنه أنه كان يهودياً . وكذلك فخر الدين الرازى بل كان ما ذكره هذا الأخير هو «أحمد الكيال الملحد ، وكان ضالاً مضلاً . وقد صنف كتاباً في الضلالة والزهات (١)» .

أما ابن طاهر المقدسى فقد ذكر في كتابه الهام «البدء والتاريخ» فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة (٢) وسكت عنها بعد ذلك فلم يذكر شيئاً إطلاقاً لا عن الكيال ولا عن عقائد الكيالية . وهنا نتقل إلى كتاباته . كتب أحمد الكيال كتاباً في «الإمامة» وهو الكتاب الذى نقضه عليه محمد بن أبى بكر الرازى . كما ذكر فخر الدين الرازى هذا الكتاب أيضاً . أما الشهرستاني فيذكر أنه «أبدع مقالة في كل باب علمي» ثم يذكر أيضاً «وبقيت من مقالته في العالم تصانيف عربية وعجمية» ويبدو من هذا أنه كتب بالعربية والفارسية ويبدو أن الكثيرين قد آمنوا بدعوته بحيث يذكر الشهرستاني «وإنما قبله من انتهى إليه أولاً على بدعته ذلك ، أنه الإمام ثم القائم (٣)» .

#### فلسفة أحمد الكيال :

يبدأ أحمد الكيال فلسفته بفكرة العلم الغنوصى الذى يحققه القائم في نفسه . وقد سبق أن قلنا إن هذه الفكرة ظهرت أول الأمر منسوبة إلى محمد بن الحنفية ، أو أن الهاشمية نسبوها إلى محمد بن الحنفية . وقد قرروا أن محمداً أفضى بأسرار العلوم إلى ابنه هاشم ، وأطلعه على «تطبيق الآفاق على الأنفس» ، وتقدير التزويل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن . وأن لكل ظاهراً باطناً ولكل تزويل تأويل ، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم ، وأن كل ما ينشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني . وترى الهاشمية - كما قلنا قبلاً - إن هذا العلم كان لعلى بن أبى طالب ، وأنه خص به ابنه محمداً ، ثم أفضى محمد به إلى ابنه أبى هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام . أخذ أحمد الكيال فكرة الهاشمية أو الحنفية القديمة أو بمعنى أدق الفكرة الغنوصية المنتشرة في أوساط الكوفة عن الإمام ورددها بقوله «إن كل من قدر الآفاق على الأنفس وأمكنه أن يبين مناهج العالمين أعنى - عالم الآفاق - وعالم الأنفس وهو العالم السفلى ، كان هو الإمام وهذه أول مرحلة من مراحل العلم الغنوصى السرى - يعقبها مرحلة أكبر وأدق وهي مرحلة القائم «إن من قرر الكل في ذاته وأمكنه أن يبين كل كلى في شخصه المعين الجزئى ، كان هو القائم» فالإمام إذن أدنى من القائم ، الأول

(١) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٦١ .

(٢) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٤ .

(٣) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣٠٤ .

يبين مناهج العالمين ، أما الثاني فهو يحقق في ذاته الجزئية كمالات العالم العلوى . وسيعلم أحمد الكيال - كما سنرى فيما بعد - أنه أعظم مثال لهذا التقرير أو هذا التحقق ، وأنه استطاع أن يحقق في نفسه تحققاً كاملاً كل ما في هذا العالم العلوى من كمالات ، بل إنه حقق في هذا المضمار ما لم يحققه أحد قبله من القائمين<sup>(١)</sup> .

ويقسم الكيال الكون إلى عوالم ثلاثة : العالم الأعلى والعالم الأدنى والعالم الإنسانى .

### ١ - العالم الأعلى :

وفى العالم الأعلى عنده خمسة أماكن . الأول : مكان الأماكن : فارغ لا يسكنه موجود ولا يديره روحانى ، وهو محيط بالكل ، أى أنه خلاء ممتد يحيط بالكون في عوالمه المختلفة ، وكنهه غير معروف لنا ، وهو ما يسميه أهل الشرع بالعرش . والثانى : مكان النفس الإنسانية الأعلى وهو بلى مكان الأماكن ، ثم بالترتيب ، والثالث : مكان النفس الحيوانية . ومن الواضح أن هنا أفلاطونية محدثة مختلطة بعقائد إسلامية . ولكنه ما يلبث أن يطويه غنوص الأفلاطونية المحدثة طياً كاملاً . فيقدم لنا معراجاً للنفس ، أفلاطونياً محدثاً بحتاً .

تشوقت النفس الإنسانية إلى الصعود إلى عالم النفس الأعلى ، فصعدت وخرقت المكاين : مكان الحيوانية ومكان الناطقية ، وحين قاربت الوصول إلى عالم النفس الأعلى ، كان الكلل والتعب والملل قد حل بها ، ذلك أنها لم تكن قد اكتملت بالعلم وتحققت بالمعرفة ، فنعفت واستحالت أجزاءها ، فهبطت إلى العالم الأسفل ومضت عليها أكوار وأدوار ، وهى فى حالتها تلك من عفونة واستحالة - وأخيراً ساحت عليها النفس الأعلى وأفاضت عليها النفس نوراً من أنوارها ، جزءاً من هذا النور . وحدثت التراكيب فى هذا العالم ، حدثت السموات والأرض والمركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، ووقعت النفس الإنسانية فى بلايا هذا التركيب تارة سروراً وتارة غماً ، وتارة فرحاً ، وتارة ترحاً ، وطوراً سلامة وعافية ، وطوراً بلية ، ومحنة أى مرت عليها أدوار وأكوار مرة أخرى ، وهى لم تتمكن من التوصل إلى جزء هذا النور بأكمله ، ووصلت إليها تلك التراكيب التى فيها الخير والشر ، وهى فى كل مرة تحاول التخلص من عالم الشرور والباطل إلى عالم السعادة والحق ، ولكن دون جدوى .

ثم ظهر القائم وكان عليه أن يردها إلى حال الكمال ويحل التراكيب الباطلة من غير الباطلة ، وأن يظهر طبيعة المضادات ، ويبين أن الضد لا ينبغى أن يلحق بالضد وكان وجود القائم لإظهار الروحانى

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٤ .

على الجسماني ، وتغلب أحدهما على الآخر (١) .  
القائم إذن هو الغنوص بأجلى مظاهره وأوضح معانيه ، وقد ظهر هذا الغنوص في قائمين من قبل حتى انتهى إلى أحمد الكيال . أما العلة في أنه انتهى إليه فهو سبب حروفي كباتي .  
لجأ الكيال إلى الفكرة الحرفية الكبالية لكي يدلل دلالة قاطعة على أنه ذلك الغنوص أو ذلك القائم الذي ظهر ليهدى الإنسان إلى الحقيقة . أو بمعنى فلسفي لكي يعيد النفس الإنسانية إلى عالم النفس الأعلى . وتفصيل ذلك أن أحمد عنده يطابق العوالم الأربعة : الألف من اسمه يقابل النفس الأعلى . والحاء تقابل النفس الناطقة ، والميم تقابل النفس الحيوانية . والدادل تقابل النفس الإنسانية . والعوالم الأربعة هي المبادئ والبسائط ، ويتوافق أحمد الكيال مع مذهبه حين يقول إن مكان الأماكن لا وجود فيه ألبة . إذ أنه خلاء مطلق ثم أثبت في مقابلة العوالم العلوية العالم الأدنى (٢) .

## ٢ - العالم الأدنى :

يضع أحمد الكيال نظاماً يتقابل فيه هذا العالم بالعالم الآخر . ولكل قسم من أقسام هذا النظام صفات تشابه تمام المشابهة صفات ما يقابلها من العالم الأعلى تشابهاً مشابة عرضية . ولكنها في الجواهر تختلف عنها ، وأول هذه الأقسام السماء ، والسماء خالية تقابل مكان الأماكن ثم تليها النار . فالهواء فالأرض ، فالماء وهذه الأربعة أجزاء في مقابلة العوالم الأربعة ، الإنسان في مقابلة النار ، والطائر في مقابلة الهواء ، والحيوان في مقابلة الأرض ، والحوت في مقابلة الماء ، ويستخلص من هذا أن مركز الماء أسفل المراكز ، والحوت أخص المركبات .

## العالم الإنساني :

ثم قابل الكيال العالم الإنساني مع الآفاق التي ذكرها من العالمين الروحاني والجسماني . فحواس الإنسان خمس ، كل واحدة منها في مقابل أفق من آفاق العوالم السابقة ، فالسمع في مقابلة مكان الأماكن من العالم الروحاني والسماء في العالم الجسماني ، وذلك لأن السمع خلاء فارغ كمكان الأماكن والسماء والبصر ، في مقابلة النفس الأعلى من العالم الروحاني وفي مقابلة النار من العالم الجسماني وفي البصر إنسان العين ، وهذا الإنسان مختص بالنار . والشم في مقابلة الناطق من الروحاني والهواء من الجسماني ولأن الشم من الهواء يتراوح وتنسم ، والذوق في مقابلة الحيوان من الروحاني ، والأرض من

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل نفس الجزء والصحيفة .

الجسماني ، « والحیوان مختص بالأرض . والطعم بالحيوان » واللمس في مقابلة الإنسان من الروحاني والماء من الجسماني . والحوت مختص بالماء واللمس بالحوت . وربما عبر عن اللمس الكناية .

ثم حاول مطابقة اسمه على هذه العوالم فاعتبر اسمه : أحمد : ألف وحاء وميم دالا في مقابلة العوالم الثلاثة السابقة متخذاً كما قلت الكيالا منهاجاً له .

أما عن الروحاني ، فقد تكلمنا عن مقابلات حروف اسمه أحمد لآفاق هذا العالم . أما في مقابلة العالم السفلي الجسماني . فالألف يدل على الإنسان . والحاء على الحيوان ، والميم على الطائر والدال على الحوت . فالألف يشبه الإنسان من حيث استقامة القامة في كل منها ، والحاء كالحيوان لأنه معوج محدودب منكوس ، واسم الحيوان يبدأ بالحاء ، والميم يشبه رأس الطائر « والدال يشبه ذنب الحوت .

ويرى الكيال أن الله خلق الإنسان على شكل اسم أحمد ، فالقامة مثل الألف ، واليدان مثل الحاء والبطن مثل الميم ، والرجلان مثل الدال . وهي فكرة كبالية واضحة .

ويرى البيروني أن الكيالا اليهودية وشعباتها انتشرت بين المسيحيين والمسلمين أيضاً . فحاول المسيحيون الغنوصيون أن يحققوا فكرة الصليب من أشكال النجوم وأوضاعها ، فذكروا أن كواكب الدلفين اجتمعت على شكل صليب إبان صلب المسيح .

ويعجب البيروني من هذا . ويقول « والعجب منهم حيث لا يتدبرون ، حتى يعرفوا أن في العالم أمة من شأنهم رصد الكواكب وامتحان أساليبها منذ أحقاب ودهور ، يتوارثون فيما بينهم خلقاً عن سلف : أن كواكب الدلفين من الثوابت التي وجدها أسلافهم المعتنون بأمرهم على هذه الهيئة » ويرى البيروني أن الكيالا أيضاً انتشرت عند المسيحيين وكثيراً ما تستعمل هذه الفرق الكبالية من النصارى لصنوف التوقيعات والهوس في تعظيم الصليب كاستدلالهم بما أمر الله به نبي إسرائيل من عمل حية من نحاس ، وتعليقها من خشبة منصوبة لدفع أذى الحيات لما كثرت عندهم في التيه ، فيقولون إنه بشارة على الصليب وذكر له . كما ادعوا أن آية موسى كانت عصاه - والعصا خط مستطيل ، فلما جاء المسيح طرح عصاه عليها فحدث منها صليب . وقد كملت شريعة موسى بمجيء المسيح ، والدليل على ذلك ، أنه لو ألقى عصاً ثالثة على الصليب من أي جهة كان ، صار منه حرف لا - أي لا زيادة ولا نقصان .

ثم يرى البيروني - ولعله يشير إلى أحمد الكيال - أن هذا التهوس من النصارى - مثل ما يتهوس به الفرقة من المسلمين المشتغلة بالتأويلات من تشبيه اسم محمد (وأحمد بالتالي) بصورة الإنسان وقولهم : إن الميم نظير رأسه والحاء نظير بدنه والميم الثاني نظير بطنه ، والدال نظير رجله . ويعلق البيروني على هذا بقوله : وأظن هؤلاء جاهلين بالتساوير في تسويتهم بين مقدار الرأس والبطن وكمية الأعضاء الناتئة

من حملة البدن ، ونسيانهم ما به قوام النسل ، ولعلمهم قصدوا الإثبات دون الذكران ثم يعلق على هذه التفسيرات كلها بأنها أشبه بالمزاج والسخرية (١) .

ثم يضع الكيال بعد ذلك الفكرة المشهورة التي ترددت في كتب الإسماعيلية وهي أن القائم خير من النبي ، وأن الأنبياء قادة أهل التقليد ، وأهل التقليد عميان ، والقائم قائد أهل البصيرة ، وأهل البصيرة أولو الألباب والعقول وإنما يحصلون البصائر بمقابلة الآفاق والأنفس . ثم يدخل في الفروع فيقابل بين الفرائض الشرعية والأحكام الدينية وبين موجودات عالمي الآفاق والأنفس . ويقول الشهرستاني « إنه ادعى أنه متفرد بها ، وكيف يصح له ذلك وقد سبقه كثير من أهل العلم بتقرير ذلك لا على الوجه المزيف الذي قرره الكيال » ويذكر الشهرستاني أنه أول الميزان بالعالمين ، والصراط بنفسه والجنة بالوصول إلى علم القائم ، والنار بما يضاد هذا الوصول (٢) .

وبعد : فهذه صورة من فلسفة أحمد الكيال مزيج من الأفلاطونية المحدثة والقبالة اليهودية . وتفسير حروفى لاسمه . ومن العجب أن يعتقد عقائده مجموعة من الناس ، ولولا هذا ما غنى مؤرخ العقائد الكبير الشهرستاني من إيرادها وهو يخاطب القارئ ، فيقول « والمقالة - كما سمعتها - من أحسن المقالات وأوهى المقابلات ، بحيث لا يستجيز عاقل أن يسميها . فكيف يرضى أن يعتقدوها » ولكن اعتنقها مجموعة من البشر . وعاشت زمناً طويلاً ، ومازال الإسماعيلية يؤمنون بنفس العقائد ، أو بما يشبهها .

(١) البيهقي : الآثار الباقية ص ٢٩٧ .

(٢) الشهرستاني : اللال والنحل ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٧ .

## الفصل السادس

### النظريات الإسماعيلية في الإمامة

(١) نظرية التنبى الروحى :

كان من أهم نظريات الإسماعيلية «نظرية التنبى الروحى ونظرية الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة» وقد وجه أنظارنا إلى أهميتها في تاريخ الإسماعيلية الفلسفى والسياسى الأستاذان ماسينيون ورنارد لويس ، وسنرى كيف استغلا هاتين النظريتين في إلقاء حل جديد لمشكلة الفاطميين الكبرى وهى نسبهم ، وقد تغالى لويس وماسينيون على الأقل في توضيح هاتين النظريتين وتأكيد أهميتهما في التراث الإسماعيلى .

أما نظرية التنبى الروحى أو الأبوة الروحانية أو النكاح الروحى . فيعبر عنها لويس بما يأتى : إن الحركة الباطنية ، بما لها من ميول غنوصية قوية وتمويلها الشديد على النواحي الباطنية للأشياء دون المادية للتظاهرية منها بلغت بسهولة وبشكل طبيعى جدا اعتبرت فيه العلاقة المادية بين الأب وابنه . . وهى التى تتصل بالبدن النافه الزائل وحده - أقل أهمية وحقيقة من العلاقة الروحانية بين المعلم والتلميذ ، المنبعثة من النفس الخالدة . ويتج عن هذه العقيدة أن التلميذ أخرى بأن يكون الابن والوارث الحقيقى من النسل الطبيعى للإنسان . حتى لقد ارتأى بعضهم أن كلمتى أب وابن في الأعلام الإسماعيلية إنما استعملتا بهذا المعنى أحيانا (١) .

وقد كتب ماسينيون مقاله الهام عن «سلمان» - وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال من قبل - يحاول فيه تدعيم فكرة التنبى الروحى ممثلا في سلمان عن طريق الحديث المشهور «سلمان منا أهل البيت» . ومن ثم أصبح سلمان بن محمد عليه السلام أو ابن الإسلام جميعا . والنظرية غنوصية واضحة ، إن من ينتقل إليه الغنوص ، سواء أكان ابنا جسديا أو غير ابن لسالفه صاحب الغنوص ، يكون هو الابن الحقيقى ، حامل الغنوص الجديد ، وخليفة السالف . ولكن إذا كان سلمان الابن الحقيقى لمحمد عليه السلام عن طريق الغنوص - فلم لم يدع الأمر بعده ؟ ثم إنى أتساءل : ألا تهدم نظرية التنبى الروحى آراء الشيعة جميعا في الإمامة ، حتى الفاطميين منهم ؟

من يكون إذن أحق بالخلافة بعد على - إذا كانت التلمذة الروحية على أساس العلم الغنوصى

(١) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٧ .

المنتقل أسماً للإمامة - هل يكون الحسن إذن أم الحسين ، أم هذا العدد الكبير من تلاميذ الإمام على الذين نبغوا في العلم الباطن والظاهر وفاقوا الحسن والحسين ؟ بل إن المصادر تجمع على أن محمد بن الحنفية كان أعلم من أخويه ، وأن أباه أطلعه على العلم اللدني الباطني ، وأنه سلمه إلى ابنه أبي هاشم وأن أبا هاشم نقله إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . إن نظرية التثني الروحي تقضى على حق أولاد فاطمة في الإمامة وهم لم يستحقوها في نظر الشيعة القديمة والحديثة إلا لخروجهم من صلب فاطمة ، وأن أمر ولايتهم مقررة أزلاً « وجعلها كلمة باقية في عقبه » .

وهنا نتقل إلى الغلاة ، ونحن نعلم أن من بين الغلاة من ادعى أنه صاحب الأمر - فعل بيان هذا وأبو منصور المعجل ثم أبو الخطاب الأمدي ، ثم إن أبا الخطاب ادعى بعد أنه هو « أبو إسماعيل » ثم إن عبد الله بن ميمون هو الابن الروحي لمحمد بن إسماعيل ، فنشأه . وعلمية التنشئة عملية خطيرة في المذهب الإسماعيلي ، ثم دعا إلى نفسه ولم تعترض الشيعة . وليس معنى هذا أن عبد الله بن ميمون هو الابن الوحيد لمحمد بن إسماعيل ، هو الابن الروحي فقط ، بينما كان هناك ابن روجيه وجماهي هو عبد الله الرضا ، كما أن هناك أبناء جسيدين لاروجيين ، ونقل إلينا إيفانوف عبارة عن نصير الدين الطوسي ويذكر أنها موجودة في كتب إسماعيلية أخرى : أن ذرية الإمام على أربعة أنواع : روحانية أو دار معنى مثل سلمان الفارسي - وجمانية أو بالشكل مثل المستعلي أو روحانية وجمانية معا مثل الحسن إمام الشيعة الثاني - وجمانية وروحانية ودار حقيقة مثل الإمام الحسين (١)

ويرى الإسماعيليون أن المسيح كان ابن يوسف النجار فعلاً جسدياً ، وأن قول القرآن « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » أي إنكار أن يكون ولداً جسدياً لله ، بل هو ولد على سبيل التعليم (٢) .

ولكن ليس معنى هذا أن المذهب الإسماعيلي الشيعي قد احتضن فكرة التثني الروحاني أو عرفها في هذا العصر الأول ، إن من المؤكد أنها تكونت في أوائل العصر الفاطمي لتبرير حالة معينة أو حالات معينة . أما أن النصيرية والدروز قد نادوا بها ، فذلك أيضاً لتبرير تولي أحد أولاد القداح عرش الفاطميين الأول كان نادوا أيضاً - وبخاصة الدروز - لادعاء حمزة والدروزي بعده أنها ابنتان روحانيان للحاكم المحتق . إن حمزة بن علي داعي دعاة الحاكم بأمر الله يعلن في مواطن متعددة في رسالته السيرة المستقيمة بشأن القرامطة أن الحاكم استخلفه حجة له ، وأنه أخذ تعاليمه من الحاكم ، فهو الابن الروحي له ، فلما قتل الحاكم أعلن حمزة أنه استر ولم يقتل ، وأنه هو نائب عنه . وقد أداه هذا

(١) ماسبيون : سلمان شخصيات قلقة في الإسلام - ص ١٦ .

(٢) لويس : أصول ص ١٢٠ .

إلى بحث غريب وهو أن لآدم الأول . آدم صف - أول الأوادم في عالم البشر أباً وأماً . ولكن نحن لا نبحث في هذا الكتاب في عقائد الدرود فهي عقائد ونظريات متأخرة عن العصر الذي حددناه لهذا الكتاب .

إن نظرية التنبى الروحى - في إيجاز تعلن أن الإمام يستطيع بواسطة عملية رفع روحى - أن يسمو بتلميذه أو تابعه أو مریده إلى درجة أو مقام قريب من درجته أو مقامه ، بحيث يستطيع أن يترك له وديعته - وديعة علمه الخاص وأن يدهو هذا المستخلف لنفسه .

والنظرية - هكذا كما عرضها ماسينيون - خاطئة تماماً . إن ماسينيون ومن أخذوا بفكرته خلطوا النظرية الصوفية ، نظرية الشيخ والمريد ، بالآراء الإسماعيلية . إن النظرية الصوفية «الشيخ والمريد» تقوم فعلاً على فكرته التنبى الروحى فالمريد يعتقد تماماً أنه ابن للشيخ . يلزمه ويخدمه ويأخذ عنه معالم الطريق . ويؤمن المريد بأن من «لا شيخ له ، فلا دين له» حتى إذا تمكن المريد من مقامه ، وانتقل الشيخ ، حل المريد مكانه في رئاسة القوم . ولم نسمع إلا في القليل النادر أن ابناً لصوفى من صوفية الإسلام العظماء أخذ مكانة أبيه الصوفية أو اشتهر شهرة أبيه في هذا العلم اللدنى . فنظرية التنبى الروحى صحيحة من هذه الناحية ، ثم ما لبثت أن انهدمت حين أخذ أبناء شيوخ الصوفية الجسديون يتوارثون إمامة طريق آبائهم ، وتكونت شياخات الطرق الصوفية على أساس التنبى الجسدى . أما النظرية للشيعة عامة فتقوم على التنبى الجسدى أولاً وبالذات ، وأن أولاد على أو فاطمة بالذات هم أصحاب الحق الشرعى في الإمامة يتوارثونها باصطفائهم أولاً على العالمين لهذه المهمة السامية والنظرية الإسماعيلية واضحة تماماً في هذه الناحية ، بل إنها جعلتها في عقب إسماعيل فقط . ففرق كبير بين «من لا شيخ له لا دين له» وبين «من مات وليس في عتقه ييعة إمام مات كافراً» إن ييعة الإمام هنا - في منطق المذهب الإسماعيلى - هو إمام من نسل فاطمة ، وإسماعيل بالذات ، إمام جسدى لا شك في ذلك . أما أن الأئمة قد تبنا بعض أتباعهم ، فلا ينكره أحد أما أنهم تركوا لهم وديعة العلم ، فكان هذا استخلاقاً لهم بالإمامة . فهذا خطأ ، إنما تركوا لهم - وهذا ما لم يتبينه ماسينيون «وديعة الولد أى وديعة الولد الجسدى - للمحافظة عليه والنود عنه ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، إما أن يكبر الولد ويعقب أولاد الآخرين ، وإما أن يصل إلى الإمامة . فالإمامة حق جسدى ، لمن فيه دم فاطمة الزهراء ، هذا الدم الغالى للقدس . وفي الحقيقة إن أبناء القداح فعلوا هذا بكل وسيلة ، منذ أن ترك جعفر الصادق ميموناً القداح ، وهو أحد مرديه وتلامذته حجة لابنه أو حجاباً أو ولياً أو خادماً . وحافظ ميمون على الوديعة ، هو وأولاده من بعده ، بل ارتكبوا في سبيل المحافظة عليها أشنع الجرائم وأكبر الآثام ، وفي سبيل هذه المحافظة ، تخلوا عن كل معاني الصدق والحق والخير ، فخذعوا



مجموعات هائلة من البشر ، وشوهوا عقائد الملايين ، وأثاروا النزاع والشر في أرجاء العالم الإسلامي ، بإخلاص حاسم فد لأبناء فلفمة من إسماعيل . حتى وضع آخر أبناء القداح عبيد الله المهدي القائم بأمر الله خليفة على القيروان . ثم انتقل إلى جوار ربه - محتسماً عمل أسرة القداح من الوجود ، بل محتسماً ذكرهم إلى الأبد .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن نظرية التنبى الروحى قد اخترعها متأخرو الإسماعيلية لتبرير عمل عبيد الله فى توليه العرش الفاطمى فى القيروان - وهو من أولاد القداح ، بينا القائم الفاطمى فى كنفه «فهى نظرية متأخرة من نظريات الإسماعيلية ، لم تعرفها الإسماعيلية الأولى ولم تحتضنها ، ولم يترك إمام علوى وديعة بمعنى علمه وبالتالي أحقية الإمامة لابن غير علوى . بل تركوا أحياناً الوديعه - الابن الجسدى - لتابع مخلص من أتباعهم ، سواء أكان هذا التابع علوى أو غير علوى وللمحافظة على الوديعه الجسدية . وهذه هى نظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . وليس معنى هذا أن فكرة الإمام المستقر وفكرة الإمام المستودع قد ظهرت فى وقت مبكر كنظرية ، ولكن لا شك أنها تحققت فى صور ساذجة ، أو بمعنى أدق فى صورة المحافظة على الابن اليتيم الذى فقد أباه فى صورة مؤلة حزينة . فقد بدأت الفكرة إذن بنوع من الوصاية الإسلامية المعروفة من عم على ابن أخيه كوصاية محمد بن الحنفية على ابن أخيه على زين العابدين ، أو كتاب أمين كميون القداح حين أمره سيده جعفر الصادق بالمحافظة على حفيده محمد بن إسماعيل وسنعرض الآن لتطور الفكرة أو نشأتها عند الشيعة .

#### (ب) نظرية الاستيداع والاستقرار :

قدم لنا الأستاذ لويس نصاً هاماً إسماعيلياً عن التفريق بين الإمام المستودع والإمام المستقر الإمام المستودع هو ابن الإمام وأكبر أبنائه ، إن كان له كثيرون والعارف بأمرار الإمام كلها ، وأعظم أهل زمانه مادام قائماً بالأمر إلا أنه لاحق له فى تفويض الإمامة إلى ذريته الذين يكونون سادة ولا يكونون أئمة أبداً . أما الإمام المستقر فهو الذى يتمتع بامتيازات الإمامة كلها . وله الحق فى أن يفوضها لأخلافه (١) .

والنص هنا واضح فى أن الإمام المستودع لابد وأن يكون من صلب الإمام أى لابد وأن يكون ابناً جسيماً له .

وفى هذا النص هدم لنظريات ماسينيون وللويس نفسه : الأول فيما يخص نظريته عن سلمان والثانى فيما يخص نظريته عن عبيد الله المهدي . إذن علينا أن نعدل تعريف الإمام المستقر والإمام المستودع .

(١) لويس : أصول ... ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

إن الإمام المستودع : هو الإمام الذى يتلقى الإمامة ويزاولها - وله كل حقوقها ، ولكنه لا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه ، والإمام المستقر فهو الإمام الذى يتلقى الإمامة ويزاولها ، ثم ينقلها إلى أبنائه من بعده ولكن نلاحظ أن الأئمة المستودعين فى قائمة الشيعة الإسماعيلية كانوا جميعا علويين - اللهم إلا إذا وافقنا من يذهب من المؤرخين إلى أن عبيد الله المهدي كان قداحيا ولم يكن علويا . ولنعرض الآن فى إيجاز لقوائم الأئمة المستودعين .

يرى الإسماعيلية أن مرتبة الاستيداع هى مرتبة النبوة والرسالة ، أما مرتبة الاستقرار فهى مرتبة الإمامة والوصاية والولاية وأن أول مستودع هو النبي إبراهيم ، وقد اؤتمن على مرتبة الاستقرار . وقد أورث إبراهيم ابنه إسحق مرتبة الاستيداع وإسماعيل مرتبة الاستقرار وتوالى المرتبتان فى أولاد كل منهما حتى انتهت مرتبة الاستقرار إلى عبد المطلب واستودع أيضا مرتبة الاستيداع فهو إذن إبراهيم الثانى . ويورد الإسماعيلية حديثا عن الرسول ﷺ « لم أزل أنا وأنت يا على من نور واحد نتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية كلما ضمنا صلب ورحم ، ظهر لنا قدرة وعلم ، حتى انتهينا إلى الجدد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب ، فانقسم ذلك النور نصفين فى عبد الله وأبى طالب ، فقال الله تعالى - كن يا هذا محمداً ، وكن يا هذا عليا .

وقد مات عبد الله ، فاستودع عبد المطلب مرتبة النبوة والرسالة لمحمد ، واستودع أباً طالب مرتبة الوصاية والإمامة ، فلما مات أبو طالب ، اجتمعت كل هذه المراتب لمحمد ﷺ ، فكان إليه جباة الرتب جميعها : النبوة والرسالة والإمامة والولاية والوصاية ، فهو أكمل البشر جميعا ، وأسمى الموجودات كلها ، فهو محمد الأعلى ، وهو محمد الأسمى ، وهو أول البشر ، وهو آدم الأول ، وفى يوم غدیر خم سلم الرسول محمد مرتبة الاستقرار إلى على بن أبى طالب ولأولاده الأئمة من بعده ، ولإمام الاستقرار كل صفات صاحب الاستيداع إلا فى الرسالة والنبوة . وستجتمع المرحلتان نهائيا ، وفى قائم القيامة ، فيكون محمدا الثانى .

ولكن ماذا كانت حقيقة على قبل غدیر خم . كان محمد الإمام الناطق وعلى الإمام الصامت . وحين أعلن محمد ﷺ استقرار الإمامة فى على أصبح على الإمام الناطق . وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى . وترك إمامين إماما صامتا هو القرآن وإماما ناطقا هو على واستندوا فى هذا إلى أن عليا كان يتلو فى المصحف حتى قرأ « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » فوضع المصحف على رأسه وصاح ثلاث مرات « يا كتاب الله انطق » (١) « معلنا أنه الكتاب الناطق وأن القرآن الكتاب الصامت ، أو بمعنى أدق أن عليا هو التأويل ، والقرآن هو التزويل والتزويل كلام الله ، والتزويل روح الله ، أليس

(١) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (مقدمة الدكتور محمد كامل حسين) ص ٧٥ ، ٨١ .

التزليل هو روح التأويل والتأطيق والمستقر نور الله «أنا ومحمد من نور الله ، ومحمد هو «القلم» هو السابق وعلى هو اللوح وهو التالى . وهو المسيح . وهو وجه الله . ويد الله . وفى إنجاز لقد انتهت إلى الإمام المستقر ، كل فضائل وصفات السابقين . ولكن الإسماعيليين أعلنوا فى حسم وإصرار أن مقام الوصى : مقام على ، مقام الإمام المستقر أدنى من مقام الرسول ﷺ .

وانتقل على إلى الآخرة ، واستودع الإمامة ابنه الحسن ، على أن يودعها فى الإمام المستقر وهو الحسين . وبهذا حرم الإسماعيليون الحسين من الإمامة .

واستشهد الحسين فى سهل كربلاء ، واستودع الإمامة أخاه محمد بن الحنفية لينقلها إلى على بن الحسين وبهذا حرم الإسماعيليون أيضا الحنفيين من الإمامة . وانتقلت الإمامة المستقرة إلى محمد الباقر . ولا نجد هنا ذكراً لإمام مستودع . وانتقلت الإمامة إلى جعفر الصادق .

ويرى الإسماعيليون أن نظرية الاستبداع والاستقرار وتطبيقها ظهر على أقوى صورة لدى الإمام جعفر الصادق .

فقد مات إسماعيل ومحمد ابنه فى حال الطفولة « ولم تكن الإمامة ترجع القهقرى منه كما لم ترجع من غيره ، فأودع حجته المنصوبة بين يديه ميمونا القداح مقامه لولده ، وأقامه متراً عليه ، وقدمه بين يديه واستكفله إياه إلى بلوغه أشده ، ولما بلغ أشده ، تسلم وديعته ثم جرى الأمر فى عقبه خلفاً عن سلف (١) .

ولكن يبدو أن عددا لا يستهان به من الإسماعيليين يرون أن الامام المستودع لم يكن ميمونا ، وإنما كان موسى الكاظم ؛ لأنه لا بد أن يكون المستودع من الدوحة العلوية . وبهذا يكون ميمون حجة فقط لمحمد بن إسماعيل لا إماما مستودعا .

وأيا ما كان الأمر ، فقد دخل محمد بن إسماعيل فى دور السر ، دور الخطر وحين أظهر الغيبة ، أى توفى ، تولى إمامة الإسماعيلية كما قلنا ابنه عبد الله ، وخلف أحمد عبد الله حتى انتهت الإمامة إلى الحسين بن أحمد .

وكان عهد الإمام الحسين بن أحمد الإسماعيلي فترة حاسمة فى تاريخ الإسماعيلية لقد قام هذا الإمام وحجته عبد الله بن ميمون القداح أولا ثم أبناؤه الحسين ومحمد أبو الشلعم وأحمد وعلى ثانيا بنشر الدعوة فى أرجاء العالم الإسلامى . وكان الحسين روح الدعوة العلمية والسياسية - كما قلنا . فكذب الجامعة - كما قلنا - ليشرح بها رسائل إخوان الصفا . وأخذ يث العلوم الشيعية ، ويعلم كبار الدعاة

منهج التأويل . ثم قام بحركة سياسية خطيرة - وهي إرسال الداعين ابن حوشب وابن فضل إلى اليمن كما اتصل بالكيسانية في الكوفة بواسطة الحسين الأهوازي ، وأرسل الدعاة إلى فارس . ومات الإمام الحسين بن أحمد . وتولى الإمامة ابنه علي بن الحسين .

وهنا ندخل في أعمق أدوار السر غموضا . لقد عمر الحسين بن أحمد الإمام الإسماعيلي كثيرا ، بحيث مات وابنه علي في سن متقدمة ، وفي عهد الإمام علي حدثت الأحداث الكبرى السريعة ، وأصبح النصر النهائي للإسماعيليين وشيك الوقوع ، ويبدو أن الإمام عليا أراد السفر إلى اليمن أو إلى المغرب فأتى في الطريق وقبل موته استخلف حجتة سعيدا إماما مستودعا لابنه محمد .

يقول صاحب كتاب غاية المواليد : إنه لما ظهر النور بأسقا باليمن وبلاد المغرب ، سار ولى الله في أرضه علي بن الحسين صلوات الله عليه يريد بلاد المغرب حتى كان في بعض الطريق ، فأظهر الغيبة ، واستخلف حجتة سعيداً الملقب بالمهدي بسلام الله عليه ، فثبت قواعد الدعوة ، وجرى عليهما من ضدهما بسجلماسة من العمال بالمغرب ما جرى . وولى الله عليه السلام الله عليه كيده . لما كان من زحف أبي عبد الله عليه وظفره . واستخراج ولى الله سلام الله عليه من سجنه فلما حضرت المهدي النقلة ، سلم الوديعة إلى مستقرها . وتسلمها محمد بن علي القائم بأمر الله تعالى ، وجرى الإمامة في عقبه ، حتى انتهت الإمامة إلى مستقرها ومعدنها ، وطمأنت بموضعها وبموطنها (١) . وهنا يظهر تطبيق آخر لنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . ويؤيد هذا النص السابق التحذير نص للداعى إدريس عماد الدين النجاشي : « إن الإمام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب ، والمهدي في كنفه فأظهر النقلة في سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير . وتسمى بالإمامة بأمر من نص عليه ، سراً على ولى الله وإخفاء لمقامه على أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره ، وطلوع نوره ، وأمر الحدود بذلك ، وأن يكونه بالشمس الطالعة ، سراً على ولى الله ولده القائم من بعده . ولما توطدت قوانين الدعوة الهادية - سلام الله على وليها - بالمهدية وظهر أهل الكهف من كهف التنقية وآن الأجل ، وانقضى المهل وسلم الإمام المهدي إلى ولده القائم رتبته وأدى إليه وديعته وأمانته وأظهر الغيبة ، وانتقل إلى جوار ربه والقدوم عليه (٢) .

لقد كان نشر هذه النصوص من مكانها في الهند ولدى طائفة البهرة حافزاً للباحثين على حل المشكلة العتيقة - نسب الفاطميين في ضوء النظرية الفلسفية الإسماعيلية - الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة .

(١) غاية المواليد : ص ٣٧ .

(٢) النجاشي : استار الإمام من ٦٦ - ٧١ .

وقد اختلف الباحثون في هذا . فبينما يذهب كثيرون من المؤرخين الإسماعيليين القدامى وإيفانوف من المحدثين إلى أن سعيد الخير هذا هو بن الإمام الحسين الإسماعيلي يذهب لويس وقلة من الإسماعيلية والدروز إلى أنه سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح كما يذهب بعض الإسماعيلية إلى أن عبيد الله هو الإمام الثاني عشر محمد المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشرية أو أخوه : أو بمعنى أدق أنه ابن الإمام الحسن العسكري .

يؤمن معظم المؤرخين الإسماعيليين بأن سعيد الخير أو عبيد الله المهدي هو الإمام المستودع الأخير من الأئمة الإسماعيليين وأنه ابن الإمام الحسين ، وأن الإمام علي بن الحسين قد أقامه سترًا على ابنه أبي القاسم القائم ، وليس في نص غاية المواليد ما يثبت أن سعيد الخير هو سعيد بن الحسن بن عبيد الله بن ميمون ، بل إنه يذكر فقط استخلاف علي بن الحسن لحجته . أما النص الثاني - نص الداعي إدريس - فهو يثبت أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين . وقد ذهب النيسابوري في كتابه استار الإمام (١) ، كما ذهب الداعي إدريس في زهر المعاني إلى أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين المستور . بل يصرح النيسابوري . ولد لأحمد بن عبد الله ، الإمام الحسين ، وهو ولد المهدي وسعيد الخير ، وأقام الحسين إلى أن ولد له المهدي عليه السلام . فلما أنه نقلته استودع له أخاه سعيد الخير . إذ كان ولده يومئذ في حال الطفولة . ويذهب إيفانوف موافقا للجمهور الكبير من الإسماعيليين إلى أن سعيد الخير هو ابن الحسين الإسماعيلي وشقيق علي بن الحسين وعم القائم . ويؤكد إيفانوف أنه لم يحدث قط أن الإمامة انتقلت إلى شخص ليس من سلالة علي ، علاوة على أن نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر لم تظهر إلا في القرن الخامس أو السادس أي أنها نظرية حديثة .

وفي الحق إن بعضاً من حجج إيفانوف باطلة وبعضاً منها صحيحة . أما الصحيحة منها فهو أن نظرية الاستقرار لم تعرف في التراث الإسماعيلي إلا متأخراً . ولكن لم يتنبه إيفانوف إلى أن ما يشبه هذه النظرية كان موجوداً ، وأن المتأخرين من الإسماعيلية عبروا عن أحوال المتقدمين في صيغ حديثة ، وكبر المتأخرون المسائل وضخموها ، وصبغوها بالغنوصية وغير الغنوصية . إن من المؤكد أن علي بن أبي طالب قد ورث عن رسول الله ﷺ علماً فقهياً وتراثاً دينياً . فاعتبر الشيعة عامة أن رسول الله ﷺ أطلعهم على أسرار الكون ومغيبات الأمور ، وأنه أباح له هذا السر وحده ، فكان العلم السري خاصة من خصائصه . وكبرت الصورة وكبرت ، فانطلقوا علماً بحكمة العرب والفرس والهند وفلسفة اليونان . وكان علي بن أبي طالب رباناً كبيراً وتلميذاً كبيراً لمحمد ﷺ ، ولكن في نطاق الإسلام فقط ، فأبى الغنوصيون من الغلاة ، والإسماعيليون المتقدمون والمتأخرون ، صبغوه بصورة المسيح وأفلوطين

وزرادشت وبوذا وديشان.. كل تبعاً لدرجة قربه أو بعده من الغلو.

واختلف المسلمون فيمن يكون الإمام ، علياً أو أبا بكر ووردت عن الرسول أحاديث وسنن فسرها الشيعة والسنة - كل على طريقته . . . لا بدع بعد ذلك أن يأتي الإسماعيليون المتأخرون وأن يقولوا إن الإمامة نقلها رسول الله إلى إمام تستقر فيه الإمامة ، وأن يورثها من يشاء من أولاده .

وقام محمد بن الحنفية بمحنة من أخطر الحركات في تاريخ الشيعة ، وهي الانتقام من قتلة الحسين على يد تابعه المختار بن أبي عبيد ، واختفى اسم علي زين العابدين أو عمل محمد بن الحنفية على إخفائه ، محافظة على نسل أخيه الحسين من الانقراض ، فكان إماماً حافظاً وعبر الإسماعيلية المتأخرون عن محاولته المحافظة على ابن أخيه ، وحفيد فاطمة الزهراء بأنه استودع الإمامة حتى نقلها إلى مستقرها . ومات إسماعيل ، أحب أبناء جعفر الصادق إليه ، فوكل جعفر الصادق بحفيده أحب أتباعه إليه - ميموناً القداح ، رجل على محبه ، وتشيع آل البيت وعلى علم وحكمة ، وكان محمد طفلاً صغيراً . وأتى الإسماعيليون المتأخرون - وقالوا إن ميموناً كان الإمام المستودع ومهدداً الإمام المستقر . وتنتهى الصفحة الأخيرة من الاستيداع والاستقرار بسعيد الخير والقائم ، عم وابن أخ عند غالبية الإسماعيلية . فالنظرية إذن إسماعيلية حديثة ، ولكن وجد ما يشابه عناصرها إلى حد ما في تاريخ الأئمة من قبل . بل إن جميع من قاموا بالمطالبة بالحق العلوي ، لم يذكروا اسم إمام معين . بل كانوا يعلنون أنهم يدعون إلى «الرضا من آل محمد» سراً على سلالة الرسول وحماية لهم . إن الدعاة العباسيين أنفسهم بدأوا الدعوة إلى الرضا من آل محمد . كان إيفانوف على حق في أن النظرية حديثة ، ولكنه لم ينتبه إلى تحققها في عصور مختلفة من تاريخ الأئمة . وإيفانوف على حق في أن كلمة الإمام لم تطلق في تاريخ الشيعة إلا على أفراد من البيت العلوي ، فكيف إذن يطلق لفظ الإمام والمهدي على عبيد الله إذا لم يكن فعلاً من نسل العلويين (١).

وأخيراً - نرى الإسماعيليين المتأخرين يؤمنون بنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع ، بل يحاولون استخراجها من الآيات القرآنية في محاولة تأويلية متعسفة وأهم الآيات التي تؤيد نظرياتهم هما : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين » فهنا المستقر والمستودع وهما يتحققان في كتاب مبين ، أي إمام واضح كفلق الشمس . والآية « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وهنا أيضاً في نظر الإسماعيلية إشارة إلى الإمام المستقر والمستودع ، وأنه لا يدرك ما يفصل بينها إلا من فتح الله بصيرته ، وما أعجب هذا التأويل ، وما أبعد عن حقيقة الآيتين .

أما القائلون بنظرية النبی الروحي ونظرية الإمامة المستودعة والمستقرة ، ومنهم لويس ، فيرون من نص الداعي الخطاب صاحب غاية المواليد أن عبيد الله المهدي هو آخر القداحين ، وأنه كان الابن الروحي للإمام علي بن الحسين ، والأب الروحي لابن علي - محمد بن علي القائم بأمر الله . فعبيد الله المهدي ، كان قداحا - أي الحفيد الأخير لميمون القداح - حمل إمامة الاستدعاء من إمامه وأبيه الروحي علي بن الحسين - ثم نقلها إلى الإمام المستقر أبي القاسم محمد بن علي ابنه الروحي .

كان للويس فضل التوصل إلى هذه النظرية الخطيرة وقد حاول إثباتها بكل ما لديه من حجج ، فأورد لنا نص غاية المواليد ، ثم يثبت نظرية بنصوص درزية منها : أن حمزة رئيس فرقة الدورز يذكر أنه كان لدى المهدي عبيد الله ، شيء مستودع ، وأن الحاكم (أي القائم) استرجعه ، ثم ينقل لنا لويس النص الآتي من رسالة تقسيم العلوم لحمزة بن علي - وهو يتكلم عن سعيد المهدي : « وهو الذي استودعه المولى المعل جل اسمه الوديعه وأمره بخدمة مولانا القائم جل اسمه ، وكان أول ظهور المولى للعالم بصورة أسماها القائم ، وأول ما ظهر بمملكة الدنيا في ذلك الوقت » كما أن رسالة تقسيم العلوم والدوائر ، وهي رسالة درزية تقول « لما ظهر الناطق سعيد المهدي ، وأعطاه المعل الوديعه الذي هو القائم بربه وهو في ظاهر الأمر طفل ، حاشاه من الأبوة والنبوة ، فلما ظهر القائم وأخذ الإمامة الظاهرة ، وهي السلطة ، والخلافة ، وهي دين التأويل ، والإمامة المجازية التي تظاهر الرب بها وهي بالحقيقة لقائم الحق - ﷺ . قيل إن المهدي مات » .

ويستنتج دي ساسي ويوافق لويس أن المهدي لم يظفر بقداسة إلهية في كتب الدورز ، بينما أضنى الدورز الإلهية على « المولى المعل جل اسمه » وهو علي بن الحسين ، ثم على ابنه القائم جل اسمه ، وهو محمد بن علي القائم بأمر الله وثاني الخلفاء الفاطميين . بينما احتل سعيد المهدي ، أي عبيد الله المهدي ، مرتبة أدنى من المعل والقائم وينتهي لويس إلى القول « وهكذا يتضح لنا أن هناك فرعين لنسب الأئمة : أحدهما العلويون المستقرون وثانيهما القداحون المستدعون - وذلك خلال عهد الغيبة المبتدئ بمحمد بن إسماعيل وعبيد الله بن ميمون القداح والمنتهى بسعيد الخير والقائم الخليفة الفاطمي الشرعي الأول »<sup>(١)</sup> وينبغي أن نقرر أنه خلال التحليل البارع الذكي الذي قدمه لنا لويس ، تكاد تكون مشكلة النسب الفاطمي قد حلت إلى حد ما ومن المحتمل أن عبيد الله المهدي كان قداحياً ، وأنه تولى حجابة الإمام وحجته ، ثم أعلن مهاديته أيضاً ، وأنه احتمل المخاطر في سبيل إقامة الدولة الفاطمية ، سواء فعل هذا لنفسه هو أو لابن الإمام علي الصغير الذي أخذه معه - دون أهله - حين فر من سلمية ،

ولكنه لم يفعل هذا تطبيقاً لنظرية الإمام المستودع والإمام المستقر فلم تكن النظرية قد عرفت ، ولم تكرر عناصرها قد توضحت .

إن الحل الصحيح للمسألة ، أن عبيد الله المهدي أعلن مهاديته ، لكي يحمي الإمام الصغير الذي كان يعيش في كنفه ، وقد اشتد الخطر به . ثم خرج به من سلمية ومضى به متنقلاً من مكان إلى مكان ، محافظاً على وديعة جده الأكبر ميمون ، الوديعة التي تسلمها من إمام الشيعة « والد الأئمة جميعاً جعفر الصادق ، أعلن إمامته سراً له ، وتولى الخلافة لكي يمهّد الأمر للقائم ، ووضعه على رأس الجيوش ، لكي يخلق منه زعيماً من الطراز الأول . ولم يعرف في هذا الوقت نظرية استقرار أو استبداد . كان عبيد الله أول من ادعى الإمامة من غير العلويين ، فعلها مرة واحدة في تاريخ الشيعة ، حين كان المذهب الإسماعيلي في دور الخطر . ولم يضع القائم على عرش القيروان حتى يمهّد له الدولة وتسكن الفتنة .

كان أولاد القداح وآخرهم عبيد الله المهدي فرساً ، ولكنهم لم يقيموا دولة للفرس ، وانتهوا بأنهم يدينون بالمجوسية أحياناً وبالديصانية أحياناً ، ولكنهم لم يقيموا دولة للمجوس أو لديصان « وإنما أقاموا دولة لبني القواطم من نسل إسماعيل ، واستخدموا لتنفيذ غايتهم كل وسيلة ممكنة - كما قلت . وأخيراً - نسب بعض الإسماعيليين المتأخرين عبيد الله المهدي إلى موسى الكاظم ، واعتبروه الإمام الثاني عشر - مهدي الزمان عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، بل أنطقوا موسى الكاظم بالحديث الآتي « سئل موسى الكاظم بن جعفر الصادق عن ظهور القائم متى يكون ؟ فقال : « إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور ، سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب وأسفله بالمشرق » وقد وضعت هذه الأحاديث لإثبات نسبة عبيد الله للعلويين عن طريق النسب الموسوي . فذكر أنه ابن الحسن العسكري الإمام الحادي عشر ، وقيل إنه محمد المنتظر ، الإمام الثاني عشر .

وهذه النظرية أيضاً متأخرة . ولعلها محاولة من محاولات الإسماعيليين المتأخرين للتوفيق بين المذهب الإسماعيلي والمذهب الاثني عشري وإدماج الفرقتين سوياً .

وأخيراً - دخل عبيد الله المهدي أرض المغرب ، حيث كان المذهب الإسماعيلي يسود ظاهراً في كثير من أرجائها على يد الداعي أبي عبد الله الشيعي - وسرى في الفصل التالي - كيف نشر أبو عبيد الله الفلسفة الشيعية ، وأنشأ دار هجرة إسماعيلية ، وبني لبني فاطمة ملكاً شامخاً خلال دعوته إلى آل رسول الله .



## الفضل السابع

### دور الظهور

كانت الدعوة الإسماعيلية في دور السر ، دور الخضر ، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى دور الظهور ، دور الأمان ، في بلاد المغرب البعيدة . فكيف حدث هذا ، وهل سادت الفلسفة الإسماعيلية حقاً هذه البلاد ؟

إن قيام دولة شيعية يحكمها أحد أبناء فاطمة كان الحلم الذهبي لأجيال متعاقبة من المسلمين ، ولذلك نرى كثيرين من مؤرخي الفكر الإسماعيلي يحاولون حين تحقق الحلم الذهبي في بلاد المغرب أن ينسبوا إلى رجل الشيعة الأكبر جعفر الصادق أنه أول من أرسل الدعوة إلى المغرب ، واختار لهذا داعين عرفا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية باسم الحلواني وأبي سفيان . وتذكر المصادر أن جعفر الصادق علمها وسائل الدعوة السرية ، ثم ودعها إلى المغرب قائلا : « قولا لكل شيء باطن . واذها ، فالمغرب أرض بور . فاحرثاها واكرباها ، حتى يأتي صاحب البذر » (١) على أنه من الواضح أن جعفر الصادق (المتوفى عام ١٤٨ هـ) لم يناد بفكر الظاهر والباطن ، وأنها لم تعرف في عهده ، ثم إن فكرة صاحب البذر فكرة متأخرة .

وقد ثبت تاريخياً أن الإمام الحسين بن أحمد - وهو ابن حفيد جعفر الصادق ، والمتوفى بعد أكثر من قرن من وفاة جده الأكبر ، هو الذي أمر بإرسال الداعين - الحلواني وأبي سفيان إلى المغرب ليغرسا فيها غرسا ، وقد فعلا . ويبدو أن اتصالها المباشر كان بابن حوشب منصور اليمن . بل يبدو أنها تعلموا الدعوة في مدرسته ، وأتقنا فيها فكرة التأويل ، والتفسير الباطني والظاهري . وسارا إلى أرض كتامة بتونس ، وهي قبيلة بربرية ذات سطوة ونفوذ ، وهناك بشرا بظهور المهدي وقيام دولته . وكان كل منهما - تبعاً لتعاليم ابن حوشب يعمل منفردا . فلما ماتا اختار ابن حوشب - بموافقة إمامه الحسين وحجته محمد أبي الشلمغ - أبا عبد الله الشيعي لهذه المهمة الكبرى ، ليكون صاحب البذر . وقد كان ، كما سنرى بعد قليل .

نشأ الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الملقب بأبي عبد الله الشيعي ، بصنعاء باليمن ، وقد عرف باسم الصنعاني ، وكانت أسرته شيعية اثني عشرية ، وقد رحل أبو عبد الله الشيعي وأسرتة إلى العراق

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١ ، القرطبي : انعاظ الحنفا ص ٢١ .

إحدى مراكز الشيعة الاثني عشرية حينئذ ، وعاش في البصرة أو أحد أعمال بغداد ، وكان الرجل على تدبير كبير ويسير في زى الصوفية ، يرتدى الصوف الحشن ، والأردية الغلاظ ، بل ينسب عنه أنه كان يلبس المرقعة وهي وسم الصوفية كما نعلم ، ولذلك لقب بالصوفي ، وكان ينشر الدعوة الاثني عشرية ، ويعلمها فللقب أيضاً بالمعلم . هذه هي نشأة الرجل الأولى حتى قابله أحد دعاة الإسماعيلية وهو أبو علي - داعي مصر بعدئذ ، فحوّله إلى الإسماعيلية . والإسماعيلية - كما قلنا - قريبة من الاثني عشرية ، فكلاهما شيعة تؤمن الأولى بإمام مستور ، وتؤمن الثانية بإمام غائب . والأمل في إمام مستور أعظم من الأمل في إمام غائب . فكانت الإسماعيلية إذن « منحنى » ينحرف إليه الاثنا عشرى الطامح أو العجل الذي يتشوف إلى ظهور الإمام .

وكانت الإسماعيلية تعلن اقتراب الفجر ، ظهور المهدي كالشمس الواضحة ، أما أن أبا عبد الله كان صوفياً ، وأنه كان يلبس المرقعة . فنلاحظ ما يأتي : أن كثيرين من غلاة الشيعة : الجعفرية والبيانية والمغيرية والمنصورية كانوا يدعون التقشف والزهد ، فلا جرم أن يفعل هذا إمامي اثنا عشرى سواء أكان غالباً أم لم يكن ، علاوة على أننا قلنا من قبل إن عبد الله بن ميمون ، وقد تابعه أولاده على هذا ، استخدموا التصوف ، كما استخدموا الشعوذة ، والكيمياء والحيل الهندسية للدعوة للإمام الإسماعيلي .

ويذكر النويري هذا حين ينقل إلينا الحديث المشهور بين عبد الله بن ميمون القداح ومحمد بن الحسن بن جهار نجان المعروف بدندان وهو الشعوى المشهور فيقول : « كان من كبار الشعوية رجل يسمى محمد بن جهار نجان الملقب بدندان ، وهو بنواحي الكرج وأصهبان - له حال واسعة وضياح عظيمة وهو المتولى على تلك المواضع ، وكان يبغيض العرب ويذمهم ويجمع معايبهم . وكان كل من طمع في نواله تقدم إليه يذم العرب . فسمع به عبد الله بن ميمون القداح وما ينتحله من بغض العرب وصنعه النجوم ، فسار إليه . وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العيون ويقدرح الماء النازل فيها ، ويظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة وتقرباً إلى الله عز وجل بنواحي أصفهان الجبل . فأحضره دندان وفاتحه الحديث فوجده كما يحب ويهوى . وأظهر له عبد الله من مساوئ العرب والظعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال : مثلك لا ينبغي أن يطب ، وإن قدرك يرتفع ويحل عن ذلك . فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه ألقيه إلى النامس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما في نفسك إلى العرب ومن تعصب لهذا الدين . فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فاطبقه الروم ولا الترك ولا الفرس ولا الهند مع بأسهم ونجدتهم .

وقد علمت شدة بابل صاحب الحزمية وكثرة عساكره ، وأنه تنسك والترم التشيع والبكاء على أهل البيت ، فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ،

ويقول : هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام . فإنك إذا سببتها ، سببت صاحبها ، فإذا استوى لك الطعن عليها ، فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك في استئصال دينه . ومن خرج على ذلك فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك الأمر كما تريد . فقال دندان : هذا هو الرأي . ثم قال عبد الله : إن لى أصحابا وأتباعا أبشهم في البلاد ، فيظهرون النقشف والتشيع ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر . فاستصوب دندان ذلك <sup>(١)</sup> ومع شكى في كثير مما جاء في هذا الحديث ، فإنه من المؤكد أنه كان في منهج الدعوة الإسماعيلية إظهار النقشف والتشيع . وقد قلنا من قبل إن الداعية الحسين الأهوازي - أو بمعنى أدق الحسين بن عبد الله بن ميمون قد قابل حمدان قرمط في لباس متصوف زاهد قانت . وكذلك الأمر مع أبي عبد الله الشيعي ، فقد لقب بالصوفي سواء أكان صوفيًا حقيقة أم أنه اتخذ التصوف ادعاء . غير أننا نرى في حياة الرجل في ظروف قاسية في صحراء المغرب ، ما يدل على روح صوفية متمكنة ، وسراه أيضا ينكر على كثيرين من الإسماعيليين في المغرب خروجهم على قواعد الشريعة الإسلامية ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن سبب مقتله الحقيقي هو عدم رضائه عن خرق بعض التكاليف الإسلامية من رجال عبيد الله .

والصلة بين التصوف الفلسفي والإسماعيلية مجال لبحث ، لا نريد أن نقول فيه كلمتنا الآن ، ولكن من المؤكد أن هناك صلات بين الاثنين .

صحب أبو عبد الله الداعي - أبا عبد الله الشيعي إلى سلمية . وقد ذهبت بعض المصادر التاريخية إلى أن أبا عبد الله الشيعي اتصل بمحمد الحبيب أبي الإمام الحسين الإسماعيلي وأنه هو الذي أوقده إلى اليمن - إلى ابن حوشب - ليعده للدعوة في المغرب ، وذهبت بعض المصادر إلى أن محمد الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذي أرسله إلى هناك . وسواء أكان هذا أو ذاك فقد سافر أبو عبد الله الشيعي إلى بلده الأصلي اليمن عام ٢٧٨ هـ . وهناك صحب ابن حوشب لمدة عشرة أعوام وأصبح موضع ثقته . ونمى إلى ابن حوشب موت الداعي الثاني أبي سفيان ، ويدوان الحلواني الداعي الآخر كان قد مات قبلا . ورأى ابن حوشب أن يعهد إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة في المغرب . ويدوان هذا قد تم بموافقة الإمام الحسين وحجته محمد أبي الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون ، وقد

حفظ المؤرخون لنا كلمات ابن حوشب له «إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر ، فإنها موطأة ممهدة لك» .

وانتظر أبو عبد الله موسم الحج ، ثم غادر اليمن متجها نحو مكة . وسأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم . وكان الحلواني وأبو سفيان قد ملأ أرض كتامة بالأحاديث عن قرب ظهور المهدي ، وأن دولة العلويين ستقوم من بلاد المغرب . أي أنها حرثا الأرض لصاحب البذر . فلما قابل أبو عبد الله الشيعي الكتامين في مكة رآهم يتحدثون عن مآثر أهل البيت ، ويذكرون قيام المهدي في بلاد المغرب أفاض هو أيضا بعبارة الخلافة وحديثه الممتع في فضائل أهل البيت ، وقرب ظهور المهدي منهم ، وكان الرجل ذا شخصية ساحرة نفاذة . فدعوه إلى زيارة بلدهم وصحبهم أبو عبد الله الشيعي - في قصة طويلة لا تعنينا - إلى كتامة . وحين وصل أبو عبد الله أرض كتامة في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ . مع حجاج كتامة أقبل الكتاميون عليه ، وتنافسوا في إكرامه . لكن الرجل - في حركة مسرحية ، رفض ، وسألهم أين فج الأخبار ؟ فدلوه عليه . فقصده وسار إلى جبل إيكجان ، فتزل بفيج الأخبار . وهناك قال لهم «هذا فج الأخبار ، وما سمى إلا بكم . ولقد جاء في الآثار : للمهدي هجرة يتبوها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخبار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتان ، ولخرجكم من هذا الفج ، سمى فج الأخبار» . (١)

وتسامعت البربر به ، فآتته من كل مكان ، وهنا أعلن «أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني» ولم يكن البربر يدركون مدى تنظيم الدعوة الإسماعيلية في بلادهم . ولا تنسيقها على هاتين الدرجتين ، درجة الحرث والكراية ثم درجة صاحب البذر ، وإنما اعتبروا حضور أبي عبيد الله ، من المغيبات التي تعلو عن الأفهام ، وكانوا قوما على جانب كبير من السذاجة . فاعتبروا حضور أبي عبد الله ، وكما أعلن هو لهم - بشارات غيبية بظهور المهدي ، فتهافتوا على أبي عبد الله سابعين متغفلين «المخلص» الذي سيخلصهم من قسوة حكام البلاد العرب ، وقسوة الضرائب والمكوس ، وطالما شكوا إلى الخليفة العباسي في بغداد ، فلم يأبه لهم ، فكان الأمل الوردى : أن يخلصهم منقذ مستور من آل البيت .

اتخذ أبو عبد الله الشيعي «دار هجرته» في فج الأخبار ، وقد ذكرنا من قبل أن تلك كانت عادة الإسماعيلية مستندين سنة الرسول في اتخاذ المدينة «دار هجرة» بعد أن ضاق به الأمر في مكة . ثم استنبا للإسماعيلية محمد بن إسماعيل ، حين فر من المدينة متخذاً دار هجرة في قارم ، ثم الدعاة جميعاً في

مختلف عهود الأئمة المستورين .

تهاقت البربر على أبي عبد الله ، فما هي المبادئ التي كان يدعو إليها ، هذا الصوفي ، والمعلم ، والاثناعشرى القديم ؟ والداعية الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً ، بطون كتامة ، والرجل الذي قيل إنه لم يتجاوز في الدعوة - الدرجة السادسة فقط من درجاتها أي أنه لم يطلع على الدرجات السابعة والثامنة والتاسعة - الدرجات الأخيرة من الدعوة الإسماعيلية السرية .

أعلن أبو عبد الله الشيعي : أن الأمام - صاحب الزمان - من آل بيت رسول الله ﷺ ومن أبناء فاطمة حتى مستر ، وأنه المهدي المنتظر ، وقد أطل زمانه . وهنا نتساءل ، أي الأئمة كان يدعو إليهم ؟ والإجابة عن هذا السؤال أنه كان أولاً للإمام الحسين ثم لابنه الإمام علي . ثم نقل الدعوة للإمام القداحي ، أو الحجة والإمام : عبيد الله المهدي . ولكن كتامة لم تعرف أبداً أن عبيد الله لم يكن فاطمياً . ولم يكن أبو عبد الله الشيعي في حاجة إلى تفسير تولى حجة الإمام ، للإمامة ، سراً على صاحب الحق : القائم . كان أبو عبد الله - كابن حوشب - مخلصاً تمام الإخلاص للأئمة الإسماعيليين . وكان يعلم أن تولى عبيد الله للإمامة إنما كان حفظاً وسراً على ولي الأمر القائم بأمر الله . وأنه لا يمكن أن يوضع القائم على كرسي الخلافة حتى تستقر الأمور تماماً في المغرب . فكانت الدعوة إذن تلخص في إمام مستر ، على وشك الظهور ، لإقامة « دولة الله » الدولة التي طالما حلم بها المسلمون في بقاع الأرض ، حين افتقدوا على ابن أبي طالب في يوم نحس قائم . ومات أبناؤه من فاطمة واحداً بعد واحد تحت ظلال السيوف وبكأس السم . لإقامة دولة الله . كان الناس - والدولة العباسية تلفظ أنفاسها ببطء في انتظار المنقذ . وأعلن أبو عبد الله الشيعي للبربر من كتامة أن المنقذ على وشك الظهور .

ولكن ما هي حقيقة المنقذ عندهم ؟ لقد حاول كثيرون من الباحثين أن يثبتوا أن أبا عبد الله الشيعي لم يذكر حقيقة الفكرة الإسماعيلية في الإمام . وهذا خطأ . لقد أضنى عليه الرجل كل هالات القدسية بل وضح للكتاميين أنه مظهر محمد ، وجمع الأنبياء ، وظهور العقل الكلي ، وبجلى الله أو بمعنى أدق أعلن نظرية حلول العقل الكلي ، أو بصيغة أخف ، حلول صفات الله في الإمام .

ولما غادر عبد الله المهدي سلمية في طريقه إلى المغرب أذاع أبو عبد الله الشيعي بين الناس « المهدي يخرج في هذه الأيام ، ويملك الأرض ، فيأطوي لمن هاجر إلى وأطاعني » ويذكر حديث الإمام الحسين للمهدي : أنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة ، تنو بها عن الأوطان ، وتلاقي محناً شديدة » وفسرها أبو عبد الله الشيعي بأنها رحلة إلى المغرب . ولما وصل عبيد الله إلى سلجاسة ، وقبض عليه أميرها وسجنه ، كان أبو عبد الله الشيعي مؤمناً تمام الإيمان بأن « الله سيحفظ المهدي وبقه ، ويدفع

عنه حتى يظهره ويعز نصره» ولم يعلن أبو عبد الله اسمه - خوفاً عليه من أمير سلجاسة بل أمر فقط «بالصلاة على رسول الله ﷺ وعلى الحسين وفاطمة» وأخيراً - دخل أبو عبد الله الشيعي ظافراً إلى سلجاسة وأخرج المهدي وأبا القاسم - القائم بأمر الله .

وظهر الإمام المنتظر «والمؤمنون في فرح عارم ، يصيحون» يا خيل الله اركبي . وأبو عبد الله يمشي بين يدي المهدي يقول للمؤمنين «هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون» .

ظهر العقل الكلي إذن في الإمام ووقف محمد البديل كاتب قضاة - يقول للإمام وقد دخل مدينة

رقادة :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح  
حل بها أحمد المصطفى حل بها الكشي الذبيح  
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواء ربيع

وهذا يثبت تماماً أن البربر عرفوا المبادئ الإسماعيلية الفلسفية ، وأن أبا عبد الله الشيعي نشرها بينهم ، بل إن بينهم كانت «وحدق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة (١) .

ويقول ابن عذارى المراكشي إن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول مبادئ التشيع وعناصره ، والتبرؤ من الصحابة وأزواج الرسول ، ثم طبقوا الفقه الشيعي كاملاً (٢) . ويسرف مؤرخو أهل السنة في تصوير الفاطميين لإمامهم . فيذكر القاضي عبد الجبار أن البعض منهم كانوا يدعونه : المهدي بن رسول الله وحجة الله على الخلق ، وكان البعض الآخر يدعونه : رسول الله ، والبعض الثالث يذكرون «هو الله الخالق الرازق» (٣) .

ويذهب الإسماعيلية إلى العكس من ذلك ويقررون أن أبا عبد الله الشيعي لم يعلن قداسة الأئمة وتألبيهم وحلول روح الله فيهم ، وأنه إنما أراد فقط إقامة نظام ديني على رأسه إمام من أولاد فاطمة . وأن عبيد الله بعد ذلك أنكر الغلو وأعلن أنه لن يحكم بخلاف ما أنزل الله .

ظهر الإمام : فهل قبل عقائد التألبي ، ونظرية الحلول ؟ ولم يقبل عبيد الله المهدي ، وقد أصبح مسئولاً عن الدولة باسم آل البيت هذه العقائد أبداً : إنه لم يقبل «التشريق» أي الغلو في الأئمة ، وقد سجن كل من نادى به ، حتى ماتوا في سجنه مقيدين . وقد ذهب ابن عذارى إلى أن كثيرين من أتباع

(١) ابن حماد : أخبار بني عبيد وميرهم ص ١٦ .

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨-١٥٩ .

(٣) القاضي عبد الجبار : تبييت دلائل النبوة (كتاب غرر ميسر قريباً- وقد نقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين بعض

فقراته ج ١ ص ٢٠١) .

عبيد الله ، كانوا يعبدونه عن يقين وأن واحدا منهم كان يصلى إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها ، وهى منه فى المغرب ، فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة ، وهى فى الشرق ، صلى إليها وكان يقول : لست ممن يعبد من لا يرى . وكان يتصدى لعبيد الله ويقول : ارق إلى السماء . كم تقيم فى الأرض وتمشى فى الأسواق . وكان يقول القيروانى فى عبيد الله : إنه يعلم سركم ونجواكم» (١) .

ولكن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول تخليهم عن كل أفكار التأليه ، ولاشك أن هذه الأفكار لحقت بهم - وهم فى دور الاستار ، وكانوا يطلبون تأييد كل الطوائف ، ويجمعون إلى صفوف المذهب الإسماعيلي كل ما يمكن جمعه وجذبه من الفرق . فاحتضنوا كل الأفكار معتدلة وغالية ، حتى يتمكنوا من إقامة الدولة والانتقام من أعداء أهل البيت ، فاستخدموا التشيع البحث لآل البيت ، كما استخدموا الفلسفة والغنوص . فلما بدأت الدولة ، وانتصر حق آل البيت ، رأينا دولة إسلامية متشعبة معتدلة فى عقائدها إلى حد كبير .

أما القول بأن أبا عبد الله الشيعى ثار على المهدي حين أعلن هذا الأخير تأليه نفسه ، وأباح الخمر والغناء ، وأنه حينئذ قال : ما على هذا خرجنا . فقول مردود . إن أبا عبد الله الشيعى هو نفسه فى دور السر ، أضنى على الإمام كل صفات القداسة ، بل إنه اتهم بالقول بالحلول ، ومن المحتمل كثيراً أنه نادى به وكانت فكرة الحلول توافق عقيدته الصوفية .

لقد ثار أبو عبد الله الشيعى وأخوه أبو العباس حين سلب المهدي السلطة من أيديهما ووضعها فى يديه هو . وقد استغل المهدي فكرة القداسة التى أضفاها أبو عبد الله الشيعى عليه . فأمر عروبة بن يوسف - أحد تلامذة أبى عبد الله - ومن آمنوا بقداسة الإمام بقتل أبى عبد الله الشيعى نفسه ، وحين هم بقتله صاح به أبو عبد الله « لا تفعل . فأجابه : إن الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك (٢) . وقتله فى منتصف جمادى الآخر سنة ٢٩٨ هـ . كما قتل أخاه أبا العباس وهو الذى أثار أخاه أبا عبد الله على المهدي .

وأعلن عبيد الله أنه « المطهر » أنه يظهر بالسيف أخطاء الناس . إنه يعلن للإسماعيلية فى المشرق والمغرب أنه قتل أبا عبد الله ليظهره من الرجس الذى تردى فيه لاتباعه أخاه أبا العباس . وأن قتل أبى العباس كان لتخليص الدعوة من المستكبر المصر على الإيلاس (٣) ، فظهر المهدي منه دعوته ، وتبرأ منه . وترحم المهدي على أبى عبد الله وقال : رحمتك الله يا أبا عبد الله ، وجازاك فى الآخرة بقدم

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٧ .

(٣) الداعى إدريس : زمر العائى ص ٦٩ .

سعيك ، ولا رحمك الله أبا العباس ، فإنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك : « ثم قرأ المهدى الآية : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحبسون أنهم مهتدون » .

وكتب إلى شيعته بالمشارك يقول « قد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام . فاسترهما الشيطان ، وطهرتهما بالسيف والسلام » (١) .

إننا نعلم أن الأمويين من قبل قتلوا الحسين بن فاطمة وزيد بن علي وابنه يحيى لخروجهم على حكم بني أمية الجائر ، وحقق الأمويون بذلك قانوناً قبيحاً جاهلياً ، ثم أتى العباسيون ، وقتلوا في عهود مختلفة العرة الطيبة من آل رسول الله ، تنفيذاً أيضاً لهذا القانون القبلي ، الخروج على فخذ من قبيلة بني هاشم . ثم أتى عبيد الله ، فاتخذ في ضوء تعاليم أبي عبد الله نفسه - مبدأ غنوصياً ، تطهير الإنسان من الآثام بقتل الجسد - فقتل الخارج على سلطة الإمام المعصوم ، قتل جسده لتحيار روحه مطهرة من الآثام في عالم الروح الباقي . فعلى عبيد الله هذا ، واتخذ دور المطهر ، وهو الدور الذي آمن به المقتول نفسه ، أبو عبيد الله الشيعي .

وهذا الدور - دور المطهر ، يستلزم صفة أخرى من صفات الإمام - وهي العصمة . وقد آمنت الشيعة جميعاً اثنا عشرية وإسماعيلية وغلاة بعصمة الأئمة ، مثلهم في ذلك مثل الأنبياء ، فلا يصدر عنهم خطأ ، ولا يرتكب واحد منهم معصية . بل ذهب مجموعة من الإسماعيلية . إلى أنهم لا يخضعون للتكاليف الشرعية فإذا ارتكب واحد منهم معصية ، فلا ضرر ولا ضرار ولا جناح عليهم فيما فعلوا . ويبدو أن هذا بسبب الرواية الزائفة عن شرب إسماعيل للخمر ، ولكن الإسماعيلية في مجموعها - تنكر هذه الرواية ولا تقبلها ، كذلك معظم مؤرخي الإمامية ينكرون شرب إسماعيل للخمر ، ويعتبرونه من جلة أصحاب أبيه الإمام جعفر الصادق . وآمنت الإسماعيلية أيضاً بضرورة وجود إمام في كل عصر . يرجع إليه في أمور الدين والدنيا ، ويدين للناس ما استبهم من معضلات الدين .

وقد نشأ عن هذه القاعدة نظرية التعليم . أي أن الدين يؤخذ من الإمام لا من قياس ولا من رأى ويتشارك الإسماعيلية والاثنا عشرية في هذا الأصل فالإمام عنصر إستيمولوجي منه وحده المعرفة والعلم وقد نشأ عنه في القرن الخامس والسادس نظرية التعليم وقد أفاض في نقدها حجة الإسلام الغزالي وبين نهايتها ، ونظرية التعليم - نظرية متأخرة - وإن كانت بذورها قد نشأت في عصر متقدم . والإمام يعين بالنص . فالإمامة مستمرة مدى الحياة عند الإسماعيلية لا تتوقف عند إمام معين ، كما



يذهب الاثنا عشرية ، بل لا بد من إمام معصوم مستر أو ظاهر ، ولولا وجود الإمام ، لساحت الأرض بمن فيها ، فالإمام إذن عنصر وجودي كوزمولوجي ، خلق الكون لأجله ، ولا يوجد الكون بدون ، ولو لم يوجد ، لما وجد الكون ، فهو مركز الكون ونقطة الوجود .

والإمام - كما قلنا - إما مستر وإما ظاهر . سن الاستتار الإمام محمد بن إسماعيل ، وقد استتر كالليلة الظلماء ، وعبثاً حاول العباسيون الوصول إليه . وانتشر حجه وحججه يدعون إليه ، وبلغ التخفي مداه خوفاً من «الأضداد» الذين يناهضون إقامة دولة الله ، ويحاربون ظهور القائم المنقذ من بني فاطمة . فاتخذ الحجب والدعاة كل الوسائل الممكنة لإخفاء الإمام : «كان لشدة استتار الإمام عليه السلام ، إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولي العصر . ولا يفقه باسمه ، وإذا ترشح في العلم وعلت فيه درجته وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف اسم إمامه . ولا يدينه بإشارة ولا عبارة في كلامه إلا مجد قد بلغ الإطلاق ، واستحق كشف معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وجرى ذلك مدة الأئمة المستورين ، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأتارت آفاق الدين لكل مستمسك بالعروة الوثقى <sup>(١)</sup> .

وصيغة القسم الإسماعيلي نفسه غامضة «إن كان ما أقوله كذباً ولم أقل بانتقال الإمامة إلى السيد الحسين . ثم إلى بنيه بالنص الجلي موصلة إلى جعفر الصادق ثم إلى إسماعيل صاحب الدعوة الحادية والأثرية الباقية وإلا قدحقت القداح وأتمت الداعي الأول <sup>(٢)</sup> » . وكان الحجج يتسمون بأسماء الأئمة ، وكذلك كان يفعل كثير من الحدود ، فاختلف الناس في أسمائهم في دور السر - إمعاناً في المحافظة عليهم ، وعدم كشفهم للظلمة من ولد العباس . وكان هذا السر كما قلت - ذريعة ومدخلا للأسطورة ، التي حاكت حول الإمام المستور ميزات غيبية وصفات من قداسة ورموز كبالية . ثم استخدم الإسماعيليون لدور السر الاصطلاح الأرسططاليسي «القوة» فهو إمام بالقوة .

وأقبل دور الظهور - وبلغه أرسطو دور الفعل ، فكان للإمام في هذا الدور ما كان له في دور السر - دور القوة من ميزات وصفات وقداسة ، وكان المعز فيها بعد يعلن أن الأئمة عباد مربوبون وخلائق قانون ، ولكن الدعاة البعيدين يعلنون تأليه أو مشاركته للألوهية بنوع . ثم استتر الحاكم بأمر الله عند الدورز ، ولكن هذا استتار غلاة لا يسير في النسق الإسماعيلي لدور السر . إنما السر عندهم هو اختفاء إمام حي ، أو هونوع من التقية التي عرفت عن الشيعة عامة ، فلكن يتنقأ أعداءه ويحافظ على حياته ، يخفى الإمام ويستر حياً . وكان ابن حوشب يدعوا إلى الإمام المنتظر من نسل محمد بن إسماعيل

(١) الداعي إدريس : زهر المعالي ص ٩ .

(٢) شهاب الدين بن العمري : التعريف ص ١٥٧-١٥٨ .

ابن جعفر الصادق « أو إلى المهدي المنتظر فقط .

الإمامة مستقرة أبد الآبدين في الستر أو في الظهور . ويختلف أدوار الستر والظهور بين مختلف الفرق الإسماعيلية . على أن أهم أدوارها يعرف بالدعوة القديمة . بدأت الدورة الأولى فيها باستار محمد بن إسماعيل وانتهت بنشأة دورة ثانية بتولى عبيد الله المهدي عرش الفاطميين عام ٢٩٦ هـ . ثم تبدأ الدورة الثالثة دور الستر الجديد حين اختفى الإمام الطيب بن الأمر سنة ٥٢٦ هـ . وأنباع هذه الدعوة هم طائفة البهرة في الهند . أما كيف نشأوا - فقد تولى إمامة الإسماعيلية بعد المستنصر ابنه المستعلي ، وقتل خاله ووزيره الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الوريث الشرعي للإمامة نزاراً وابنه ، وسرعان ما تكونت الإسماعيلية التزارية على يد الحسن بن المصباح في قلعة ألموت ، وتكونت المستعلي في مصر ، ثم مات المستعلي وتولى الإمامة ابنه الأمر ، ولكن ما لبث التزاريون أن قتلوه ، فتولى المحافظ عبد المجيد بن المستنصر ليكون إماماً مستودعاً للطيب بن الأمر ، ولكنه ما لبث أن استبد بالأمر ، فأرسل أحد الدعاة الإمام الطيب إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن ، فأخفته هذه الملكة ، وأعلنت نفسها كفيالته وحجته ، واتخذت لنفسها لقب « كفيلة الإمام المستور الطيب ابن الأمر » ودخل الطيب بن الأمر دور الستر ، فيما يدعى الطيبيون . ثم انتقلت الدعوة إلى الهند بعد انتهاء الدولة الصليحية ، وداعبها الأكبر سلطان البوهرا ، ولكن ما زال يمثلها داع يميني .

أما الدعوة الجديدة ، وهي دعوة التزارية - وهي التي انتهت اليوم إلى كريم خان . وبحث طائفة البهرة وطائفة الخوارج الإسماعيلية الأغاخانية ليس في نطاق هذا الكتاب ، ونحن نبحث فقط نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام لا أواسطه ولا نهاياته ، ونؤجل الكلام فيه لبحث آخر .  
وأخيراً - أختتم هذا الفصل بأن الدعوة الإسماعيلية انتشرت في كتامة ، ثم في بقية بلاد المغرب ، بل إنها انتشرت أيضاً في الأندلس ، واعتنق الفيلسوف الباطنية الفيلسوف الصوفي ابن مسرة ومدرسته ، وانتقل إلى الفصل الأخير من هذا الباب ، وهو البحث في إيجاز في الدعوة في بلاد فارس .

## الفصل الثامن

### الفلسفة الإسماعيلية في فارس

كانت فارس أول بلاد فكر محمد بن إسماعيل في الاستتار بها . وأرسل إليها دعائه السريين . ونحن قد رأينا من قبل أن حجته وحافظه ميمون القداح كان فارسياً . ويدعى الانتفاء لسلطان الفارسي . ولا عجب إذن أن اتخذ محمد بن إسماعيل فارس دار هجرة له . ولا عجب إذن أن «دعائه السيارة» كانت قد غرست غرساً في هذه الجزيرة - أي في هذا الإقليم من أقاليم الدعوة . فأقيمت الدعوة أول الأمر باسم محمد بن إسماعيل في فارس فغمرت الأرض ، وانتشر الأمر ، وأقبل كثير من أتباعه على السياحة إليها لنصب دار هجرة لهم فيها .

وكان لمحمد بن إسماعيل - وتأثير أستاذه الفارسي ميمون - مزاج فارسي ، يتضح في منهجه التأويلي وفي إحاطته بالفلسفة . وكانت فارس مرتعاً خصباً لآراء الغلاة من الكوفة ، علاة على تمكن الغنوص في مختلف صوره منها ، كما تخلفت فيها ركائز الفلسفة اليونانية منذ عهد بعيد . وفي فارس كانت الإمامية تنتشر انتشار الهشيم . وفي فارس أيضاً ومن فرس صيغ الإسلام صيغة المعتزلية . وكان أعظم فلاسفة المعتزلة فرساً . وفي فارس أيضاً وعلى أيدي علماء فرس أخذ المذهب الأشعري - مذهب أهل السنة والجماعة صورته النهائية . فرنا ميمون القداح يعينيه إليها . وحمل ابن سيده محمد بن إسماعيل مستتراً فيها ، وهو يعلم أن عشيرته وأهله سيتقبلون المذهب الإسماعيلي أكثر مما يتقبله أهل المغرب ، سيفهمون فكرة النطقاء أكثر من غيرهم ، وسيقبلون على عقيدة تجمع بين فلسفة الإسلام وفلسفة اليونان وكثير من غنوصيات الفرس . والفرس يؤمنون بالحق الإلهي المقدس للملوك ، وقد طال انتظارهم للمنقذ والمخلص من سلطان الأمويين والعباسيين الجائر . وهذا هو المخلص من آل فاطمة ، ومن أبناء ابنة كسرى ، الناطق السابع وخاتم الأسبوع ، القائم الناسخ لشريعة صاحب الدور السادس ، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها . «ولي الأولياء» ، ابن محمد ﷺ ، لم يأت بإبطال قرآنه ، بل بتفسيره وتأويله ، وإضفاء روح جديدة عليه . تعطل به ظاهر شريعة محمد ﷺ ، فبين معانيها ويكشف أسرارها ويحللها ، ويزيل ظواهر التشبيه والتعطيل .

وكان محمد بن إسماعيل وتابعه الفارسي - وهو يعيش معه في صورة سلمان ومعلناً أنه من نسله ، أول

دعاة المذهب الإسماعيلي في فارس . واستقر محمد بن إسماعيل . ثم مات ومات ميمون - وتابع أئمة دور الستر وحججهم دعوتهم في أعماق فارس وفي عمق أكثر من أي بلد آخر من بلاد المسلمين . وكانت نيسابور حيث استقر محمد بن إسماعيل وميمون القداح من أهم مراكز الدعوة الإسماعيلية ، وفيها ولد الإمام عبد الله الرضا ونشأ وترعرع ، ثم انتقل عبد الله الرضا بعد وفاة أبيه إلى مازندران ثم الأهواز . وهو يغرس الدعوة حيناً ذهب . بل كانت دار هجرته الأولى في خوزستان - والأهواز بالذات . وتفرق إخوته وأولاده في نهاوند والري ونيسابور وخوارزم . ونحن نعلم أن العباسيين تتبعوا أفراد الأسرة الإسماعيلية بالقتل وانتقل الإمام عبد الله هو وحجته عبد الله بن ميمون إلى سلمية حيث توفيها هناك .

ولم تترك فارس أبداً بدون دعوة - بعد محنة آل إسماعيل فيها وقتل معظم أفراد الأسرة ، بل سرعان ما وجه عبد الله بن ميمون داعية من أهم دعائه هو الداعي خلف . ويبدو أن «أول من قدم من بني القداح إلى الري وأذربيجان وطبرستان رجل - يسمى حلاج القطن» وأن حلاج القطن هذا هو الداعي خلف ، وأنه كان يقوم بحياكة الملابس وحليج القطن ، وتمكن الرجل من إنشاء فرقة الخليفة الإسماعيلية في بلاد الري وقم وفاناشان (١) . ومات خلف فتولى رئاسة الخليفة ابنه أحمد بن خلف . ولما مات أحمد بن خلف تولى الدعوة الداعي غياث .

ثم أرسل عبيد الله المهدي الداعي أبا سعيد الشعراني (عام ٢٩٧) ويبدو أنه كان على قدر كبير من العلم ، فاستطاع أن يجذب إليه عدداً كبيراً من القواد وذوى الجاه في خراسان . يقول ابن رزام «كان عبيد الله قد أنقذ في سنة سبع وثلاثين أبا سعيد الشعراني إلى خراسان فوه على القواد بذكر التشيع واستغوى خلقاً كثيراً ثم قتل في ولاية أبي بكر بن الحجاج ، فخلفه الحسين بن علي المروزي» وكان الحسين بن علي المروزي أميراً وكان ذا نفوذ وسطوة في خراسان . فأقبل الناس على اعتناق المذهب الإسماعيلي (٢) .

ولكن نصر بن محمد الساماني - أمير خراسان وما وراء النهر - تنبه إلى خطر الأمير حسين المروزي فقبض عليه ومات في سجنه ، وكان أكبر تلامذة المروزي هو أبو عبد الله بن أحمد النسفي البرذعي (قتل عام ٣٣٠) بل كان النسفي أكبر دعاة المذهب الإسماعيلي في فارس ، ويكوفان هو وأبو حاتم الرازي أساس الفلسفة الإسماعيلية ، ويضعانها في صورتها النهائية في عهد عبيد الله . ونلاحظ أن الإسماعيلية في فارس لم تنجح كحركة حربية . وإنما سادت فقط كنوع من الفلسفة في بعض أوساط المسلمين

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٧٠ .

ولدى كثيرين من الأمراء وذوى السلطان ولكنها لم تؤثر في مجموعة البلاد ، التي بقيت سنة وإمامية حتى انتصر فيها المذهب الاثنا عشري الانتصار الحاسم حتى أيامنا هذه .

أما النسفي ، فقد تابع أستاذه حسين بن علي المروزي في نشر الدعوة بين كبار قواد وأمراء خراسان ، حتى إنه جذب نصر بن أحمد الساماني ، ولكن نوحاً بن نصر قتله في غضون عام ٣٣١ هـ . وهو المسمى بعام المحنة . ويذكر البغدادي أن له كتاب المحصول (١) . ونقل منه نصاً واحداً - هو : أن المبدع الأول أبدع النفس . ثم إن الأول والثاني مدبران للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبايع الأربع (٢) . وقد سبق أن أوردنا هذا النص من قبل ومحاولة البغدادي رده إلى أصل مجوسى . وقلت إنه متأثر بأصل أفلاطوني محدث . كما يذكر ابن النديم أن له من الكتب - كتاب عنوان الدين ، وكتاب أصول الشرع ، وكتاب الدعوة المنجية (٣) . ويذكر إيفانوف في كتابه A Guide to Ismailite Literature أن له كتاباً آخر هو «كون العالم» وهو في رأى إيفانوف محاولة لمزج العقائد الإسلامية بفكرة الأكوان والعوالم . ويبدو أنه محاولة لتفسير الآثار الفلكية في ضوء الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

وقد رأينا طرازاً من هذا لدى أحمد الكيال من قبل . وقد عثر إيفانوف على هذا الكتاب . وقد اختفت كتب النسفي الأخرى ولا نجد لها ذكراً لدى الإسماعيلية ، اللهم إلا ما استفاد به الكرمانى من كتاب المحصول في كتابه «الرياض» .

كان مقتل الفيلسوف - كما قلت - إيذاناً بيده المحنة الكبرى التي تعرض لها الإسماعيليون في فارس . وقد كادت الحركة الإسماعيلية أن تتوقف تماماً في بلاد ما وراء منذ ذلك الحين ، حتى أحيائها بعد قرن ونصف من الزمان الداعي الإسماعيلي المشهور ، والمؤلف الفيلسوف ناصر خسرو (المتوفى عام ٤٥٢ هـ أو ٤٥٣ هـ) وهو يمثل الدعوة القديمة ، وقد عينه المستنصر نائباً له وحجة ، وقام بنشر المذهب الإسماعيلي في إيران وكون فرقة الناصرية المشهورة . وقد مهد السبيل للحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس التزاوية في العراق والشام وإيران أما فيلسوف الإسماعيلية الهام في هذه المرحلة ، فهو أبو حاتم الرازي (المتوفى في عام ٣٢٢ هـ) وأما اسمه الكامل فهو أبو حاتم عبد الرحمن الرازي الوركاني ، وكان الداعي الإسماعيلي لعبيد الله في الرى .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٦ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

وقد احتل أبو حاتم الرازي مكانة كبرى في تاريخ الإسماعيلية . ويذكره المؤرخون والكتاب الإسماعيليون تحت اسم « سيدنا » . وقد عمل على نشر الدعوة أيضاً في شكلها الفلسفي لدى كبراء الرى وأمرائهم . ونجح نجاحاً باهراً . ويبدو أن أبو حاتم الرازي كان من أشد الناس على أهل السنة . ولذلك هاجموه هجوماً عنيفاً واعتبروه باطنياً خبيثاً .

يقول ابن رزام إن أبو حاتم الوردستاني كان ثوباً ثم صار دهرياً ، ثم تزندق وحصل على الشك<sup>(١)</sup> وهذا يخالف الواقع . فإن أبو حاتم الرازي كان فيلسوفاً إسماعيلياً اشتهر بأنه من رجال التأويل ، وله كتاب الإصلاح ، وقد استفاد به حميد الدين الكرمانى - داعى الحاكم بأمر الله - وذكر بعضاً من تأويلاته القرآنية ، كما أن ابن التديم يذكر أيضاً أن له كتاب الجامع . وقد فقد هذا الكتاب أما أهم كتب أبى حاتم الرازي ، فهو كتاب « أعلام النبوة » . وقد بقى هذا الكتاب حتى الآن . وتبدو أهميته الكبرى في أنه يرد فيه على الفيلسوف للمحد محمد بن أبى بكر الرازي . بل كانت هذه هى غاية الكتاب الكبرى . وهذا ما يدحض قول البغدادي بأن أبو حاتم الرازي كان زنديقاً ووثناً ودهرياً . إن النظرية الإسماعيلية التى تنضح في كتابات أبى حاتم الرازي ثم في كتابات ناصر خسرو - فيما بعد - هى أن الطريق إلى العلم الحق ليس هو الفلسفة بل الدين وأن قائد الناس إلى السعادة ليس الفلاسفة ، بل الأئمة المعصومون من نسل فاطمة . وقد اتضحت محاربة الفلسفة أو على اعتبارها غير موصلة إلى الحقيقة لدى أبى حاتم الرازي ثم ناصر خسرو فيما بعد . وكان ناصر خسرو بالذات يرى أن ما يعارض فلسفة الفلاسفة هو حكماء الدين وأهل التأيد . وقد اختلفت الفلسفة مع علم الكلام كما نعلم . وسرعان ما أخذ دعاة الإسماعيلية جانب الكلام . وقام النقاش العنيف وقامت الحملات القاسية المستمرة بين الفلاسفة وعلماء الكلام ، وأخذت الإسماعيلية مكانها الكبير في النقاش ، فانبرى أبو حاتم الرازي في أعلام النبوة لمحمد بن زكريا الرازي ، كما انبرى لآرائه فيما بعد ناصر خسرو في زاد المسافرين . وإن كان الاختلاف عنيفاً بين آراء الفلاسفة وآراء الإسماعيلية في مسائل هامة وبالأخص مسألة « حدوث العالم » و« الخلق » حيث وقف الإسماعيليون - كفرقة دينية إسلامية مع فلسفة الكلام . فإن الإسماعيلية - خلال تبادل الأسلحة - أخذت من الفلسفة اليونانية بعض عناصرها ، بل إن أبو حاتم الرازي وناصر خسرو يعارضان أحياناً مذهب محمد بن أبى بكر الرازي الأفلاطونى بأرسطو . كما يأخذ الكثيرون من الإسماعيلية بالأفلاطونية المحدثة .

ويرى يينيس أن الإسماعيلية موقف وسط بين الفلسفة والكلام . فبينما أخذوا من الفلسفة بعض

(١) ابن التديم : الفهرست .

الأسلحة فإنهم أخذوا من الكلام جوهره - كحدوث العالم مثلاً - بل أخذوا أيضاً مصطلحه . فالدعاة الإسماعيليون - وناصر خسرو بالذات - ينكرون أن يوصف الله بأنه علة « ويرون أنه لا يجوز أن يسمى بالعلة الأولى إلا العقل وحده ، أما الله فهو يسمى عالاً أو مخصصاً ويرى يبيّن أن اللفظ الأول قد انتشر عند الدروز ، أما اللفظ الثاني - وهو المخصص فهو مصطلح كلامي بحث - استخدمه المتكلمون الأوائل ثم ظهر لدى إمام الحرمين والغزالي . فهؤلاء جميعاً يصفون الله بأنه مخصص في مقابلة وصف الله بأنه علة . وقد ظهر هذا المصطلح مطلقاً على الله - حين ثارت مشكلة خلق الزمان : هل خصص الله زماناً معيناً دون سائر الأزمنة لخلق العالم ؟ أما الأشاعرة فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الإجابة على هذا السؤال . فله الحرية المطلقة والإرادة الكاملة والاختيار التام بينما يذهب أبو القاسم البلخي إلى رأى متأثر بالفلسفة اليونانية إلى أن الله خصص ذلك الوقت على سبيل الوجوب ، وأن حدوث العالم غير ذلك الوقت كان يصلح لذلك <sup>(١)</sup> .

ولسنا هنا نحاول شرح نظريات ناصر خسرو فهي في جملتها إسماعيلية مع أخذ بنظريات أرسطو في المسائل الطبيعية وإنما نعود إلى فيلسوف الفترة التي تؤرخ لها وهو أبو حاتم الرازي وموقفه من فيلسوف الإلحاد الكبير محمد بن أبي بكر الرازي .

كان محمد بن أبي بكر الرازي يدين بمذهب أصحاب الهوى القديمة ، ويذهب إلى القول بأن القدماء أو الجواهر خمسة : الباري والنفس والهوى والزمان والمكان وقد انتهى الباحثون إلى القول بأن آراء محمد بن أبي بكر الرازي أفلاطونية في جوهرها أو أنها على الأقل تعود إلى الأقوال المأثورة عن أفلاطون في العالم الإسلامي . ووقف أبو حاتم الرازي لمحمد بن أبي بكر الرازي مدافعاً عن وحدانية الله ، وتفرد وحده بالقدمية وقد أورد أبو حاتم الرازي في أعلام النبوة مناقشته لمحمد بن أبي بكر الرازي في قدم الخمسة وقدم الزمان بالذات . يقول أبو حاتم : « وطالبته أي الرازي في مجلس من مجالسنا - وقلت له : أخبرني . ألت ترعّم أن الخمسة قديمة ، لا قديم غيرها ؟ قال . نعم . قلت : فإننا نعرف الزمان بحركات الأفلاك وبمر الأيام والليالي وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟ قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة ، لأن هذه كلها مقدرة على حركات الأفلاك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها . والفلك وما فيه محدث وهذا قول أرسططاليس في الزمان ، وقد يخالعه غيره . وقالوا فيه أقاويل مختلفة وأنا أقول : إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور . فالمطلق هو المدة والدهر وهو القديم ، وهو متحرك غير ثابت ، والمحصور وهو الذي يعرف بحركات الأفلاك ويجرى

(١) يبيّن : مذهب الدرّة . ص ٢٩ ، ٤٠ .

الشمس والكواكب . وإذا ميزت هذا وتوهمت حركة الدهر فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد والسرمد . وإن توهمت حركة الفلك . فقد توهمت الزمان المحصور ، هذا هو رأى محمد بن زكريا الرازى فى الزمان المطلق ، الزمان القديم ولكن أبا حاتم - وهو يؤمن بحدوث الزمان ، وأن الله لا فى زمان - يتساءل « أوجدنى للزمان حقيقة تتوهمها ، فإننا إذا رفعنا حركات الفلك ومرار الأيام والليالى وانقضاء الساعات عن الوهم ، ارتفع الزمان عن الوهم فلا يعرف له حقيقة ، فأوجدنى حركة الدهر الذى ذكرت أنه الزمان المطلق - قال : ألا ترى كيف ينقضى أمر هذا العالم بمر الزمان . طف طف هو شيء لا ينقضى ولا يفتى . وهكذا حركة الدهر إذا توهمت الزمان المطلق » .

ولكن إذا كان الزمان - المطلق من حيث هو مبدأ أزلى ينطبق على الله ، وأن الله فى زمان ، وقد مضى هذا الزمان الذى كان فيه الله ولا عالم معه وانتهى ، فالله إذن أول ، إذا سلمنا بحدوث العالم ، وسيكون له آخر ، فالله متناه (١) .

وبتين من المناقشة موقف أبى حاتم الرازى من الرازى الآخر الملحد . الأول بدافع عن تنزيه الله وثبت حدوث العالم ، والآخر يثبت أن القدماء خمسة ، وأن الزمان المطلق قديم .

إن من الواضح أنه يمكننا أن نقول الآن : إن المذهب الإسماعيلى فى فارس كان ذا صورة فلسفية ، تحاول أن تدعم المذهب الإسماعيلى أولاً أمام أهل السنة وأمام الشيعة الإمامية ، ثم أن تناقش الملاحدة من فلاسفة ومحوس مناقشة عقلية ، ولذلك لم يتميز المذهب بمحاسن حرة فى هذه الفترة . ولكنه أنتج فى تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام تراثاً ضخماً . وأشعل حركة فكرية ممتازة كان من نتائجها أبو يعقوب السجستانى المشهور ببندانه أو دندان الذى ذكر إيفانوف والدكتور حسن إبراهيم خطأ أنه توفى عام (٣٣١ هـ) بينما من الثابت أنه وضع كتابه الأفكار سنة (٣٦٠ هـ) وأن الكرمانى تلمذ عليه . وقد توفى الكرمانى بعد عام ٤١١ هـ فالسجستانى إذن لم يكن من رجال النشأة - أو رجال عصر عبيد الله المهدى ، بل من المؤكد أنه كان من دعاة الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله الفاطمى - هذا العصر الذى أخرج أيضاً علماء كباراً كجعفر بن منصور الجنى والقاضى النعمان (المتوفى عام ٣٦٣ هـ) .

وتتابع دعاة المذهب وفلاسفته - كالكرمانى داعى الحاكم بأمر الله فى فارس والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى المستنصر المتوفى عام (٤٧٠) ثم المتأخرون كناصر خسرو ، والحسن الصباح

(١) ينيس : ملعب للذرة . . ص ٥٥-٥٦ .



(٥١٨ هـ) ثم أبو الحسين سنان بن سلمان بن محمد . راشد الدين سنان المعروف بشيخ الجبل (٥٩٠ هـ) .

تلك هي الدعوة الإسماعيلية في فارس منذ نشأتها حتى عهد عبيد الله : مذهب شيعي استخدم الكلام من ناحية ونظرية الإمامة من ناحية وبشكل خاص ، ثم مزج هذا بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة أحياناً وبالفيثاغورية أحياناً أخرى على قدر تطرف الدائرة الإسماعيلية أو عدم تطرفها . ولجأت الإسماعيلية إلى التأويل الباطني للقرآن مع المحافظة على الظاهر ، وهذا ما يجعل الإسماعيلية - على خلاف ما ذهب الكثيرون من الباحثين - مختلفة تمام الاختلاف عن الباطنية الخالصة . تؤمن الباطنية بالباطن فقط ، بينما تؤمن الإسماعيلية بالظاهر والباطن وقد أدى هذا الخلط إلى قيام مؤرخي الإسماعيلية من أهل السنة بالمزج بين الاثنين فنسب إلى الإسماعيلية كل طوائف الباطنية والمجوسية التي انتشرت في فارس وكثيراً ما اعتبر أهل السنة والجماعة الخرمية إسماعيلية كما نسبوا إلى الإسماعيلية التناسخ والحلول .

أما التناسخ - فلم تقل به الإسماعيلية قطعاً . بل حاربه حرباً عنيفة . حقاً : لقد ذكر عن أبي يعقوب السجزي نوع من التناسخ . فذكر البيروني أن أبا يعقوب يقول : « إن الأنواع محفوظة وأن التناسخ في كل واحد منها غير متعد إلى نوع آخر »<sup>(١)</sup> . أي أن أبا يعقوب يرى أنه من الممكن أن تتناسخ روح إنساني في جسد إنساني آخر ، وأنه من المستحيل أن تتناسخ روح إنساني في جسد حيواني أو نباتي ولكن لم تكن هذه أبداً عقيدة الإسماعيلية . ومن المحتمل كثيراً أن تكون بعض عقائد التناسخ دخلت بشكل ما في عقائد المتأخرين من كتاب الإسماعيلية - كالسجزي وغيره .

أما الحلول - أي حلول الله في الأئمة - فلم يذهب إليه الإسماعيلية . بل أنكر الأئمة انظاهرون فكرة تألههم تمام الإنكار . كما أننا لا نجد في كتابات فلاسفة المذهب ، التي بين أيدينا اعتقاد ألوهية الأئمة : ولكن لاشك أنه كان هناك غلاة في الأماكن البعيدة في فارس نادوا بالألوهية الأئمة أو بحلول روح مقدس فيهم . لقد حدث هذا من قبل لدى غلاة الإمامية ، ثم حدث من بعد لدى الدروز - حين ألها الحاكيم بأمر الله . ولكن الإسماعيلية ذهبوا إلى تجلي العقل الكلي تجلياً كاملاً في الأئمة ، فكان الإمام مصدر معرفة ، والمقصود بالمعرفة هنا ما يفيض من علوم على أتباعه وقد كان مركز الدائرة في هذه العلوم « التأويل القرآني » ولكن لم تنسب المعرفة الغيبية ولا الاطلاع على عوالم الغيب للأئمة . بل أنكروها هؤلاء . وقد حاول بعض الباحثين في حياة المعز وفي عصره ، أن يثبتوا أن عقيدة تأليه سادت

(١) البيروني : تحقيق .. ص ٤٩ .

فارس . وهذا عصر متأخر - كما قلت عن العصر الذى تؤرخ له . ولكن من الثابت أنه لا المعز نفسه ولا دعائه أعلنوا ألوهيته . وفى عصر متأخر عن عصر المعز أى فى عصر الحاكم - سيعلم حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير أن الحاكم نفسه بشر ولاحظ له من الألوهية . وقد حارب الكرمانى جميع دعاة ألوهية الحاكم حرباً فكرية عنيفة . كان هناك إذن غلاة ومعتدلون . وكان المذهب المعتدل يتصدر دائماً .

كما أن ثمة دعوة خطيرة تنسب إلى الإسماعيلية - وهى دعوة - وحدة الأديان وهذه الدعوة تنسب أيضاً للصوفية فيما بعد ، وقد قيل إن هذه كانت الغاية الأولى من دعوة محمد بن إسماعيل نفسه ، إنه الناطق السابع الذى أتى بدين جديد - هو الدين السابع - ناسخاً للدين محمد ﷺ . وأنه لذلك أعلن أو أعلن الإسماعيليون : للزرادشتيين أن علياً هو زرادشت وللمانويين أنه مافى وللمزدكيين أنه مزدك وللبيهود أنه موسى وللمسيحيين أنه عيسى وللمسلمين أنه محمد . فعلى هو مظهر حلول هؤلاء جميعاً . والإسماعيلية تحوى مذاهبهم جميعاً وقد سمي لويس هذه العقيدة باسم مذهب الشمول Interconfessionalism .

ويرى لويس أن « الدعوة الإسماعيلية صادفت هوى فى نفوس جماعات مختلفة فى العصر الدينى : مزدكيين ومانويين وصابثيين وشيعية وسنة ومسيحيين ويهود من كل نوع . فأنشأت بحكم الضرورة نطاقاً قوياً من مذهب الشمول فى العقيدة تقرب أحياناً من مذهب عقلى خالص . وقد سبقهم إلى هذا ، وربما تأثروا بها عيسوية أصفهان ، وهى فرقة يهودية أدعت فى أثناء خلافة عبد الملك الأموى بأن محمداً وعيسى كانا نبين صادقين بالنسبة إلى وطنيها وشعبيها اللذين ظهرا منها . فطور الإسماعيليون هذه الفكرة وصاغوها نظاماً محكماً ، أصبحت بموجبه الصحة النسبية لجميع الأديان معترفاً بها (١) » فلويس إذن يقرر أن الإسماعيلية نادى بصحة الأديان جميعاً ، وأنها تأثرت فى هذا خطى فرقة يهودية هرطوقية تنسب إلى أبى عيسى ، وكان يحترف الحياطة فى أصفهان . وادعى أنه المسيح فى أيام الملك بن مروان (٥ - ٨٦) وكان يحرم الخمر ويعتقد فى تطور الإنسان وأوصى أتباعه بقراءة الإنجيل والقرآن . ولما قضى عليه قال أتباعه : إنه فى الغيبة (٢) .

ويرى لويس أنه وضع منذ ذلك التاريخ القديم - عقيدة الإسماعيلية المتأخرة فى نسبة الأديان والنبوة .

(١) لويس : أصول... ص ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ٩٦ .

ويذكر لويس أن العيسوية أثرت في الإسماعيلية وأنها أخذت بعقيدتها الشاملة لجميع العقائد ولكن لويس كعادته يتكلم عن المرحلة المتأخرة للإسماعيلية ويستند على كتب الدروز . فيقول « ونجد في كتب الدروز إشارات للتوراة والإنجيل ، بل هناك ترجمة فارسية لموعظة الجبل بتفسير إسماعيل . وقد ذكر بنيامين التطيل أن الدروز في سورية كانوا أصدقاء مخلصين لليهود ، وكان في فارس مجتمع يهودي يعيش تحت حكم الإسماعيليين ويصحبهم كلما ذهبوا للحرب »<sup>(١)</sup> ثم يذكر أن حمزة بن علي يقول في رسالة السفر إلى السادة بأن عقيدة الوحدانية - أي عقيدة تأليه الحاكم نسخت جميع العقائد الأخرى كالمسيحية واليهودية والزرادشتية والإسلام ، وما اتصل بهذه الأديان من نحل وفرق .

وليس بين شمولها هذه الأديان وبين قيامها مقامها إلا خطوة واحدة . بل إن الإسماعيلية نفسها وضعت أحاديث عن الباقر أنه قال « إذا قام قائمنا أهل البيت ، قسم بالسوية ، وعدل في خلق الرحمن ، البر منهم والفاجر منهم ، من أطاعه أطاع الله ، ومن عصاه عصى الله ، ويستخرج التوراة والإنجيل وسائر كتب الله بأنطاكية ، فيحكم بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل القرآن بقرآنهم » .

ونلاحظ أن المزاج اليهودي للويس غلب عليه ، فراح ينسب الإسماعيلية إلى العيسوية اليهودية ، ثم يثبت فكرته من شواهد متأخرة درزية ، والدرزية من غلاة الإسماعيلية ، وليست إسماعيلية خالصة . ويحاول لويس أن يثبت أثر اليهودية والمسيحية في حميد الدين الكرمانى ليجرد إمامه باللغتين العبرية والسورانية واستفادته من أقوال من المهديين القديم والجديد .

إن الإسماعيلية مذهب شيعي اعتنق العقيدة المعتزلة . ولكنه وهو في خلال السرد دعا الجميع إلى عقيدته - عقيدة شيعة لفرع من فروع البيت العلوي الفاطمي ولا شك أن طوائف متعددة قد استجابت للدعوة ، وحاولت أن تضعها في صورة عقائدها السابقة . كما أن الدعاة وصلوا إلى الجزر البعيدة أي الأقاليم البعيدة وفي هذه الأقاليم البعيدة صوروا الدعوة صوراً تحالف الدعوة الرئيسية . وطالما تبرأ الأئمة من هذا الغلو كما تبرأ من قبل الباقر والصادق وغيرهما من الأئمة الأوائل . ثم إن الكثير من الفرق الباطنية الإلحادية قد تسرت باسم الإسماعيلية ولم يجد بعض الدعاة ضيراً في محاولة ضم هذه الفرق إلى المذهب الإسماعيلي الخالص ، ويبدو أن الدعوة الإسماعيلية الخالصة لم تنجح نجاحاً كاملاً لدى البعض من هذه الفرق . وبقيت هذه الفرق - كما هي - في باطنها مزدكية أو مانوية أو زرادشتية أو ديسانية مع مسحة إسماعيلية ظاهرية .

(١) لويس : أصول .. ص ١٦ .

أما موقف الإسماعيلية من المسيحية واليهودية . فهو تماما يشبه موقف الإمامية وأهل السنة . أنكروا ألوهية المسيح وحلول الله فيه كما أنكروا صلبه أما الغلاة من الإسماعيلية ، ثم الدروز والنصيرية ، فلهم عقائدهم الخاصة التي تتميز وتختلف تمام الاختلاف عن عقائد وفلسفة الإسماعيلية .

ولا شك أن فكرة نسبية الأديان ، وصحتها جميعها ، وتعبير كل واحدة منها عن وجهة نظر ، قد عرفت لدى بعض فلاسفة الصوفية ، وبخاصة لدى الحلاج والشلمغانى . وهؤلاء من ضحايا النصوص الباطنى الخالص مع مسحة شيعية ظاهرة ثم ظهرت الفكرة لدى محمى الدين بن عرى . وقد كان محمى الدين بن عرى يعتبر « دين الحب » - وهو الإسلام عنده - يشمل الأديان جميعا ، وقد قرر الإسلام فعلا أن الدين واحد ، ولكن على أساس أن الأديان السابقة قد حرفت وغيّرت وبدلت ، وأن عقيدة التوحيد هي أساس النبوة والرسالة في كل دورة من دورات الرسالة والنبوة . ولكن الباطنية استغلوا هذا المبدأ - وقالوا : إن كل عقيدة - مهما كانت صورتها الحالية - صحيحة . وبينما الفكرة القرآنية فكرة دينية بحتة ، نرى فكرة وحدة الأديان عند الباطنية وعند فلاسفة الصوفية غنوصية مجمعة ملفقة . وقد استندت « البهائية » المتأخرة في الظهور إلى محمى الدين بن عرى . وقررت في نصوص تكاد تكون هي نص عباراته صحة الأديان جميعا - الزرادشتية واليهودية والمسيحية . . إلخ . لقد ظهرت الفكرة إذن في أجزاء من فارس - موطن الأديان القديمة - وترعرعت ونمت ، إما باسم الباطنية الجوسية الفارسية القديمة ، وإما باسم التشيع إماميا كان أو إسماعيليا . ولكنها لم تكن عقائد الإسماعيلية الحقيقية : لا في نشأة الإسماعيلية ولا في تطورها . أما الإسماعيلية في عهد الظهور فقد تناوها الغلو من ناحية والاعتدال من ناحية . الغلو حيث ابتعد الدعاة عن الإمام . والاقتصاد حيث عاش الإمام . وقد رأينا كيف أعلن الدعاة في فارس تأليه المعز الفاطمى ، والمعز الفاطمى على منابر القاهرة يعلن أنه عبد مريبوب وبشر مخلوق . فلم تناد الإسماعيلية إذن بشمول العقيدة ولا بنسبية الأديان .

ومن المضحك أن يذكر بعض ثقافة المؤرخين من أمثال لويس والدكتور حسن إبراهيم أن من الدلائل على إيمان الفاطميين بشمول العقيدة وصحة كل العقائد استخدام الفاطميين في عهد ظهورهم لليهود وللنصارى . ونسوا أن خلفاء بنى العباس بل والأمويين من قبل استخذموا اليهود والنصارى والصابئة . وكان لهم النفوذ الأكبر في قصور بنى أمية وبنى العباس . ومن العجب أيضا أن يقال : إن فارس كانت موطن الغلو في الأئمة الفاطميين . ثم يأتي حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير إلى مصر ليحارب تأليه الحاكم وغلو أتباعه كحمزة والأخرم والدرزى ، ويكتب الكتب الكبيرة في هذا . ولم تنجح الدعوة الإسماعيلية في فارس ، بل نجحت في الشام ومصر والمغرب واليمن - وكلها

بلاد عربية ، وفشلت في فارس التي بقيت سنية إلى عصر متأخر ، ثم ساد فيها المذهب الاثنا عشرى حتى الآن .

وكما نسبت نظرية الدين الكلى للإسماعيلية مأخوذة عن اليهودية العيسوية ، نسبت الشيوعية الدينية إلى الإسماعيلية مأخوذة عن المزدكية . ونسب الكتاب السنون هذه الشيوعية إلى مزدك . وقد ذهب نظام الملك في سياسة نامة كما قلنا من قبل إلى أن حلقة الوصل بين المزدكية والإسماعيلية كانت « خرمة » امرأة مزدك التي أسست الفرقة الخرمدينية . وأن هذه الحركة الخرمدينية تحولت إسماعيلية أو مسترة بالإسماعيلية لأسباب انتهازية . وظهرت العبارة « وقد أصبح مزدك شيعياً » ولكن لويس نفسه يشك في اتصالات الخرمدينية بالإسماعيلية ، ولم تكن الإسماعيلية - وهى حركة تتجه نحو جذب العالم الإسلامى كله إليها - من الحماقة بحيث تربط عجلتها بحركة مجوسية ذات عداوة ضارية للإسلام وللمسلمين . لاشك أن القرامطة أقاموا مجتمعاً تعاونياً تقابياً . وقد وصفه لنا ابن حوقل وناصر خسرو . ولكن الإسماعيلية الخالصة لم تعرف هذا النوع من الجمهورية الأوبجرجية ولم تعرف الشيوعية . ونسبت إلى الإسماعيلية مراتب الدعوة السبعة أو التسعة ، وهى باطنية بحتة ، حاول المؤرخون السنون صبغها بصبغة إسماعيلية وهى أبعد ما تكون عن الإسماعيلية .

ولقد صدق البغدادي حين قال « الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها ليلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع ، كما صدق حين قال « إن الباطنية لهم فى اصطیاد الأغنام ودعوتهم إلى بدعتهم حيل على مراتب سموها ، التفرس والتأنيس والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتأسيس والمواثيق بالإيمان والمعهود ، وآخرها الخلع والسلب » كل هذا حق . ولكن من الخطأ الشنيع أن يقال إن هذه الباطنية هى الإسماعيلية ، هى أبعد ما تكون عن الإسماعيلية ، وإن كانت قد شابتها مسحة إسماعيلية .

ونهاية الأمر : إن الإسماعيلية مذهب شيعى ، انحرف بلا شك عن الإسلام السننى والإسلام الاثنى عشرى . وفيه الغلو وفيه الاعتدال . وقد كان فى دور السر من أخطر المذاهب على وحدة الإسلام الدينية والسياسية فلما دخل فى دور الظهور كون دولة من أعظم دول الإسلام - وهى الدولة الفاطمية ، ولما عاد إلى دور السر ، حيث يعيش الآن ، أصبح مذهبا سرىا يمزق فى عصورنا الحاضرة وحدة المسلمين ، ويلحق أفدح الأضرار بمستقبل الإسلام وكيانه .

## تعليقات نقدية

### على مصادر الكتاب

شغلت الشيعة قديماً وحديثاً العدد العديد من الكتاب والمؤرخين والباحثين ، وكتبت عنها كتب مختلفة ذات مشارب متباينة . ولما كانت أغلب فرق الشيعة - اللهم إلا الإمامية ثم خليفاتها الاثنى عشرية - فرقاً سرية ، فقد تناول الغموض كثيراً من عقائدها وأسرارها وطقوسها . كما أن كتب بعض مفكرى الشيعة أنفسهم قد باد أو اختفى ، فلم نعد نعرف الكثير عن كتابات هؤلاء المفكرين . ومن الغريب أن الشيعة الاثنى عشرية لا تحتفظ فيما لدى من معلومات بكتاب من كتب « هشام بن الحكم » نيلسوف الشيعة الكبير والممثل الأعظم للفكر الكلامى الإسلامى فى عصره وفيما تلاه من عصور ، ولمدة طويلة من الزمن . فلا نعرف من آراء هذا الفيلسوف الكبير إلا ما نقل إلينا خلال الإزاعات أعدائه من المعتزلة وأهل السنة ولعل السبب إغفال الشيعة الاثنى عشرية له ، وعدم اهتمامهم به نزعة التجسيم التى تخالف انجهاهم العقلى المعتزلى فلم يظفر هشام بن الحكم بالكثير من اهتمامهم ، ولم يحتفظوا بكتبه . وهذا بالرغم من أنهم أرخوا له .

بل إن كتب الشيعة - وهم رواد الكتاب العربى الأوائل فى العالم الإسلامى - لا تمدنا أيضاً بمعلومات مؤكدة عن كثير من عناصر المذهب فى أول نشأته ، إن الحماس الدينى جعل كتاب الشيعة يتخبطون فى تحديد نشأة المذهب .

ثم نرى أيضاً أن روح التمهيص والبحث ينقص هذه الكتب إن قصة عبد الله بن سبأ ، وهى قصة - ابتدئها فيما يرجح الأمويون فى الشام ، لا تناقش فى كتب الشيعة الأقدمين . إنما اكتفوا فقط بالقول بأن عبد الله بن سبأ كان من الغلاة ، وأن الإمام علياً قد تبرأ منه .

كما أننى لا أجد أيضاً موقفاً معيناً واضحاً للشيعة تجاه المختار بن أبى عبيد . اللهم إلا ما ورد فى كتب بعض الطبقات من أن الأئمة كالباقى والصادق وغيرهما - قد ذكره بخير وترحم عليه وقد حمل الآن أفضل الآراء ، وكتبت قصة حياته وجهاده واستشهاده على أسوأ ما يكون . والرجل من كل هذا براء ، كما بينت فى بحثى ولقد كان المختار رجلاً من محبى آل البيت ، وضحى بحياته فى سبيلهم ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يتولى الشيوخ .

وتأتى المشكلة الكبرى - وهى مشكلة الرواية . فقد اختلفت رواية الحديث عند كل من الشيعة والسنة . فلكل طائفة رواياتها وأسانيدها . وتختلف الأسانيد اختلافاً بينا . وتناولت الطائفتان - بالجرح - أسانيد الرواة ، بحيث يقف الإنسان فى حيرة أمام التعارض العنيف بين أحاديث الطائفتين . غير أن النظرة الفاحصة سرعان ما تتصل إلى عناصر مشابهة فى قواعد الجرح والتعديل لدى الطائفتين ، بحيث تبقى فقط مشكلة التأويل : تأويل الحديث أو الأثر . هذا يؤول بطريقته ، وذلك يؤول بطريقته . أما كتب العقائد - وما أوفرها فى التراث العربى - فقد أمدتنا بمعلومات كثيرة ، ولكنها فى غالب الأمر فى صورة « إلزامات » فاحتجى المذهب الحقيقى . أو فى صورة جدل ، والمتهج الجدلى لا يوصل إلى حقيقة .

فإذا انتقلنا إلى كتب التاريخ ، فزى كل مؤرخ قديم يكتب على طريقته . وأعنى بطريقته هنا - مذهبه العقائدى فكتابات اليعقوبى والمسعودى الشيعيين تختلف عن كتابات الطبرى وابن كثير السنيين . وكتابات ابن حوقل ناصر خسرو الإسماعيليين تختلف عن كتابات ابن خلدون السنى المعتدل والمقرىزى ذى النزعة الشيعية المعتدلة .

ومن الأفضل أن نقسم مصادر هذا الكتاب القديمة إلى القسمين الآتين : مصادر سنية ، مصادر شيعية ، وقد امتلأت هوامش الكتاب بهذه المصادر ولن نكرر أسماءها هنا ، ولكننا سنقدم تعليقات موجزة على بعض منها .

### المصادر السنية

١ - أول كتاب من كتب أهل السنة يحدثننا عن العقائد الشيعية هو كتاب أبى الحسين محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الملقب المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وهو كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ( نشر عام ١٣٩٩ هـ = ١٩٤٩ م ) .

ويعتبر هذا الكتاب من أقدم كتب العقائد الإسلامية . كاتبه « حشوى » ولكنه قدم لنا معلومات طريفة عن عقائد الشيعة الأوائل . وبخاصة فرق السبئية كما أنه كتب فصلاً عن عقائد القرامطة والديلم ، وهذا الفصل يمثل العقائد الباطنية المنتشرة فى فارس والتي لصقت بالإسماعيلية - وهذه صورة منه « القرامطة والديلم - وهم يقولون : إن الله نور علوى لا تشبهه الأنوار ، ولا يمازجه الظلام ، وأنه تولد من النور العلوى النور الشعشعاني ، فكان منه الأنبياء والأئمة ، فهم بخلاف طبائع الناس وهم

يعلمون الغيب ، ويقدرّون على كل شيء ولا يعجزهم شيء ، ويقهرون ولا يقهرون ، ويعلمون ولا يعلمون ولهم علامات معجزات . وأمارات ومقدمات . قبل مجئهم وظهورهم . وبعد ظهورهم يعرفون بها . وهم مبينون لسائر الناس في صورهم وطباعهم وأخلاقهم وأعمالهم .

« وزعموا أنه تولّد من النور الشعشعاني نور ظلامي . وهو النور الذي تراه في الشمس والقمر والكواكب والنار والجواهر . الذي يخالطه الظلام وتجاوز عليه الآفات والنقصان وتحل عليه الآلام والأوصاب ، ويجوز عليه السهو والغفلات والنسيان والسيئات والشهوات والمنكرات .

« غير أن الخلق كله تولّد من القديم الباري ، وهو النور العلوي الذي لم يزل ولا يزول ، سبق الحوادث ، وأبدع الخلق من غير شيء كان قبله . قدره نافذ ، وعلمه سابق . وأنه حي لا يموت ، وقادر لا يقدر ، وسميع بصير لا يسمع ولا يبصر ، ومدبر لا يحوارح ولا آلة فيصفون الإله جل وعز - كما يصفه الموحّدون مع قولهم إنه نور لا يشبه الأنوار .

« ثم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافذة لا فرض وإنما هو شكر للمنعم ، وأن الرب لا يحتاج إلى عبادة خلقه ، وإنما ذلك شكرهم ، فمن شاء فعل ومن شاء لم يفعل ، والاختيار في ذلك إليهم . وزعموا أنه لا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا نشور ، وأن من مات بلى جسده ، وخلق روحه بالنور الذي تولّد منه ، حتى يرجع كما كان . . . إلخ .

هذا فصل من أهم الفصول - وهو يتحدثنا عن عقائد الباطنية التي تسربت باسم الإسماعيلية في فارس . ويعطى الملطى مقارنات دقيقة بين عقائد هذه الفرقة وبين النصارى في بعض أجزاء المذهب . ثم ينتهي إلى القول بأن « سبيلهم سبيل المانية سواء . والرد عليهم في النور كالرد على المانية » ٢٦ - ٢٩ فالرجل ذو منهج مقارن وله نظرات نقدية رائعة . ولكن يؤخذ عليه في كثير من المواضع خلط الفرق بعضها ببعض وكثرة الإلزامات .

٢ - أبو الحسن الأشعري . مقالات الإسلاميين ، واختلافات المصلين ، وهذا كتاب أيضا من أقدم كتب العقائد . كتبه شيخ المذهب الأشعري . ولم يكتبه في صورة جدلية . كبقية كتبه الأخرى . وهذا ما دعاني إلى الشك في أنه الصورة الحقيقية للكتاب . وأيا كان الأمر - فالكتاب يمدنا بمعلومات ممتازة عن فرق الشيعة ونشأتها . بل تنقل إلينا هذه المعلومات بأمانة .

٣ - البغدادي - أبو منصور عبد القاهر ( المتوفى - ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م ) وهو من أهم الكتب في معرفة عقائد الشيعة . ولكن البغدادي كثيراً ما يخرج عن جادة التاريخ ، وينقل إلينا الإلزامات



فقط غير أن النقد الداخلي للتصويع يبين حقيقتها . وقد استند الإسفرايينى فى التصوير على كتاب البغدادى .

٤ - ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م الفصل فى الملل والأهواء والنحل . نقل إلينا ابن حزم - وهو فيلسوف المظهر الظاهرى - كثيراً من عقائد الشيعة ، وقدم لنا نظرات نقدية هامة . ولكن يقلل من أهمية كتابه كمصدر تاريخى - مزاجه الحاد وهجومه الدائم على المخالفين .

٥ - الشهرستانى ( المتوفى سنة ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م ) الملل والنحل . يكاد يكون أهم كتاب للفرق الإسلامية ، ولا يقلل من قيمة كتابه - كما ذكر فخر الدين الرازى - أنه نقل عن البغدادى - والبغدادى فى نظر الرازى لا يتقل بأمانة . إن الشهرستانى ناقد وفيلسوف بالإضافة إلى شهرته كمؤرخ للفلسفة الإسلامية . ولا شك أنه استند على البغدادى ولكن هناك فصولا كاملة تدل على أصالته . ولا يزال كتاب الشهرستانى . « الملل والنحل » فى حاجة إلى نشرة علمية ضخمة تحدد المصادر والمآخذ التى أخذ عنها . ومن الفصول الرائعة فى كتابه - ما كتبه عن الشيعة عامة والباطنية خاصة . وقد ترك لنا نصوصا - نقلها عن الفارسية من كتب الحسن الصباح . كما أنه من القلائل الذين كتبوا بإفاضة عن أحمد الكيال .

٦ - الرازى ، فخر الدين : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين وهو كتاب صغير ولكنه قيم . يكاد يكون ثباتا دقيقا بأسماء الفرق وأصحابه ثم يقدم لنا أحيانا نظرات فاحصة . هذه صورة من كتب العقائد الإسلامية . وقد ذكرت غيرها فى هوامش الكتاب : ولا حاجة لتكرارها هنا . غير أن هناك كتابا هاما يكاد يكون فى التاريخ . ولكن يحتوى جزء كامل منه على تاريخ العقائد والفلسفة . وهو كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن المطهر المقدسى ( عاش حوالى منتصف القرن الرابع ) ، وقد وصل الكتاب مطبوعا إلى أيدينا حديثا . والكتاب ممتع فى جميع أجزائه . ويحتاج الجزء الخاص بالعقائد إلى دراسة مقارنة مع غيره من كتب العقائد وتاريخها . وقد استفدت منه استفادات قيمة فى هذا الكتاب .

وهناك كتب تاريخية كثيرة بعضها كتب من وجهة نظر السنة - ومن أهمها تاريخ الأمم والملوك للطبرى - ( والمتوفى سنة ٣١٠ = ٩٢٢ م ) وبعضها كتب من وجهة نظر الشيعة مثل تاريخ اليعقوبى - لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م ) والمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م صاحب مروج الذهب والتنبيه والإشراف ثم الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ( المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م ) كل هذه الكتب - كانت ذات أهمية كبرى فى تقديم معلومات قيمة عن الشيعة ، وبخاصة الشيعة الاثنى

عشرية . ويتميز اليعقوبى بالاختصار والتمكن - كما يتميز المسعودى بالإطالة وعبه الاستطراد .  
 كما أن كتب البيرونى وهو عالم ناقد فاحص سنى المذهب ( المتوفى سنة ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ) مصدر ممتاز لكثير من الأخبار عن الشيعة . فأما كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » ففيه نظرات نقدية ممتازة عن الشيعة الباطنية ، ومقارنة بعض كلام أبى يعقوب السجزي بالتناسخ عند الهنود . أما الآثار الباقية « فيحوى معلومات ممتازة عن القرامطة ، وعن الغنوصيات التى دخلت العالم الإسلامى ، كما أنه أمدنى أيضاً بالصيغ الكيالة التى استخدمها أحمد الكيال .  
 وعالم آخر سلفى - وهوابن تيمية ، يعتبر مصدراً عارماً لعقائد الشيعة . وكتاب « منهاج السنة » وثيقة فريدة تنقل إلينا صوراً متعددة من عقائدهم . وميزة ابن تيمية أنه ينقل لنا نقلاً صادقاً ما يناقشه بعد ذلك فى حدة وقسوة . وما يفسد كتابات ابن تيمية هو حقه الملتب على المخالفين لعقيدته السلفية .  
 وكمجسم نراه هينا لينا تجاه هشام بن الحكم .

### الكتب الشيعية

١ - أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى ( المتوفى سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م ) فرق الشيعة . وهو من أهم كتب العقائد الشيعية . وبه أدق المعلومات عن نشأة التشيع وتطوره وفرقه ، تكلم عن أنواع التشيع . اثني عشرى أو عابى أو حنئ أو أبى هاشمى . ثم قدم لنا معلومات وثيقة عن الغلاة ، ثم تحدث عن أوائل الحركة الإسماعيلية .

٢ - أبو خلف الأشعري القمى : كتاب المقالات والفرق . ( توفى القمى عام ٣٠٠ أى قبل وفاة النوبختى ) ولكن أثبت الدكتور محمد جواد مشكور فى نشرته الرائعة لكتاب الأشعري القمى أن الكتاب الأخير يستند على كتاب النوبختى . ولكن به زيادات وإضافات عن الكتاب الأخير وقد استند عليه كثيراً .

٣ - ابن المطهر الحلى ( المتوفى سنة ٧٢٦ هـ ) . كتاب منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة . كتبه علامة الشيعة الكبير . وفيه أخبار هامة عن المذهب ومهاجمة لأعداء الشيعة الأثنى عشرية . وقد رد عليه عالم السلف الكبير تقي الدين بن تيمية بكتابه المشهور « منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية . وابن تيمية بجانب مذهبه الكلامى ونظراته الفلسفية ، بحيث يعتبر فيلسوف المذهب السلفى

المتأخر ، هو أكثر مؤرخي الفلسفة الإسلامية دقة ، يورد القول كما هي - والآراء كما وردت ثم يناقشها مناقشة من وجهة نظره . وفي الحق أن كتاب منهاج الكرامة وكتاب منهاج السنة مصدران من أهم المصادر لدراسة المذهب الشيعي وآراء الإمامية وأهل السنة في كثير من عقائدهم .

٣ - رجال الكشي : أو طبقات الكشي - من رجال القرن الرابع الهجري ( طبعة كربلاء - نشرة السيد أحمد الحسيني ) من أقدم كتاب طبقات الرجال عند الشيعة . وبه فصول قيمة وبخاصة عن المختارين أبي عبيد وهشام بن الحكم وأبي الخطاب الأسدي ويحتاج هذا الكتاب إلى دراسة خاصة .  
٤ - الشيخ المفيد محمد بن النعمان المتوفى عام ( ٤١٣ هـ ) : أوائل المقالات في المذاهب والمختارات وهو من أهم كتاب الأئمة المجتهدين في معرفة عقائد الاثنى عشرية . . وله أيضا شرح عقائد الصدوق ( في مجلد واحد ) .

## كتب الإسماعيلية

كان استناد الباحثين في معرفة كتب الإسماعيلية إلى ما كتبه أعداء الإسماعيلية فقط ، ومن أهم الأمثلة الواضحة على مقدار الفهم الخاطئ للإسماعيلية أن عدداً من الباحثين - استندوا لمدة طويلة على آراء ابن رزام في معرفة حقيقة الإسماعيلية كما فعل ابن النديم صاحب الفهرست ، كما عرفت آراء الإسماعيلية عن نقل عدو لهم هو « أخو محسن » ونقل أيضا بعض آرائهم النويري في نهاية الأرب ولكن مالبث أن نشر عدد من كتب الإسماعيلية ، أنارت لنا الطريق إلى أكبر حد في معرفة آرائهم وأذكر على سبيل المثال .

١ - نشرات الأستاذ عارف تامر : وأهمها : خمس رسائل إسماعيلية لمفكرين إسماعيليين . ثلاث رسائل إسماعيلية . والأستاذ عارف تامر إسماعيلي متعصب للإسماعيلية . ولا يميز بين الإسماعيلية الأولى والإسماعيلية المتأخرة بينما هناك فروق جوهرية بين الفرقتين .

٢ - نشرة شترو تمان لأربعة كتب إسماعيلية - وهي من أهم الكتب في معرفة نظرية الإمامة المستقرة والمستودعة .

٣ - نشرات الأستاذ إيفانوف الكثيرة - وكتبه المتعددة عن المذهب الإسماعيلي . وقد قدم إيفانوف خدمات جليلة في توضيح هذا المذهب وتطوره مع حماس ظاهر له أضاع كثيراً من قيمة هذه الأبحاث العلمية .

٤ - نشرات المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . وقد قدم لنا عدداً كبيراً من مخطوطات الإسماعيلية في نشرات علمية . وقد أجهد الدكتور محمد كامل حسين نفسه في سبيل توضيح عناصر هذا المذهب . غير أنني ألاحظ أنه - فيما خلا كتب الكرمانى التى نشرها الدكتور محمد كامل حسين فإن الكتب التى قدمها لنا ليست من الكتب السرية .

٥ - الأبحاث المختلفة الفلسفية والتاريخية عن الإسماعيلية وأكبر من تصدى لهذا الموضوع الأستاذ ماسينيون . ومقالاته عن القرامطة فى دائرة المعارف الإسلامية مثال واضح عن تضلع ماسينيون فى هذا النطاق . كما أن مقالته عن سلمان الفاريسى للدليل واضح على أصالة الرجل فى البحث . وكذلك مقالته عن النصيرية وعن المباهلة .

غير أن أبحاث ماسينيون أبحاث كتبت من وجهة نظر خاصة . لقد سيطرت على الرجل عقيدته الكاثوليكية - فحاول أن يصور الشخصيات التى كتب عنها فى صورة هذه العقيدة . فالحلاج مسيح آخره وسلمان صورة غنوصية مسيحية فى العالم الإسلامى ، وغاية الإسماعيلية هى إعادة مجد بيت المقدس . والدروز مسيحيون . وهكذا يسير ماسينيون وراء تدعيم هذه الفكرة .

وكما سبق أن قلت فى صلب الكتاب - إنه لكى نتفهم عقائد الشيعة ينبغى دراسة تاريخ العراق السياسى والاقتصادى وأهم مصدر فى هذا الموضوع كتابات سيد مؤرخى العرب المعاصرين الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى - وبخاصة فى كتابه درامات فى العصور العباسية- المتأخرة والحياة الاقتصادية فى العراق فى القرن الرابع الهجرى .

ثم نجد عالماً آخر يكتب كتاباً هاماً عن « أصول الإسماعيلية » وهو الأستاذ برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأدنى والأوسط فى جامعة لندن . والكتاب قطعة ذكية من البحث العلمى أو محاولة لبقه لإلقاء الضوء على نسب الفاطميين . ولكن فكرته ليست حلاً نهائياً لمشكلة الفاطميين . وقد استند عليه استناداً كاملاً الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف فى كتابهما « عبيد الله المهدى » غير أن أبحاث لويس يسودها اتجاه المذهبي . فيرى أن الإسماعيلية تأثرت خطى العيسوية الأصفهانية اليهودية فى مشكلة التأويل . ولكن كان للويس فضل الكشف عن عدد من المخطوطات الهامة التى استند عليها فى بحثه مثل قسم من تاريخ مفقود لثابت بن سنان الصابى المتوفى سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٤ م . وقد أمدّه بمعلومات محابدة عن الإسماعيلية . كما استفاد أيضاً من كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضى عبد الجبار ( المتوفى سنة ٤١٥ هـ أو ٤١٦ هـ = ١٠٢٤ أو ١٠٢٥ م ) ، وهذا المخطوط يعد للنشر الآن فى القاهرة .

غير أن خطأ لويس أنه استند على مخطوطات درزية - كرسالة حمزة « الرسالة المستقيمة » وغيرها من رسائل بشأن القرامطة والفاطمية » وحاول أن يحل مشكلة اسم القرامطة بناء على معلومات في هذه المخطوطات . كما وجه أنظار الباحثين إلى مجموعة من المخطوطات الدرزية في مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة . ولكنه نسي أن كتب الدروز كتب أسطورية لا تقدم لنا أبداً تاريخاً وإنما أساطير وعقائد غنوصية وأسراراً خفية .

٦ - نشرات الدكتور المهداني . وقد قدم هذا العالم خدمات جليلة لفهم المذهب الإسماعيلي بنشراته لعدد من المخطوطات الإسماعيلية . وكذلك بما كتبه من مقالات هامة عن الإسماعيلية .

٧ - الدكتور كامل مصطفى الشبيبي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد : فهو كتاب « الصلة بين التصوف والتشيع » وقد نشر الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب .

وقد حاول الدكتور الشبيبي أن يكشف عن الصلات بين التصوف والتشيع بعمق نادر المثال وأن يقيم مقارنات بين أقوال الصوفية ، ثم أن يصل بين النظريات الشيعية والنظريات الصوفية . وعاون على دراسته ثقافته الشيعية الواسعة ثم دراساته الفلسفية في مصر وفي كمبودج .

٨ - ثم هناك كتابان آخران : أولهما « جعفر الصادق رائد الشيعة والسنة » للدكتور عبد القادر محمود - وهو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة - فرع الخرطوم . وقد طبع الكتاب . والكتاب كان رسالة جامعية تحت إشراف في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . والبحث يتناول الإمام جعفر الصادق من مختلف نواحيه . وثانيهما « نظرية الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية - للدكتور أحمد صبحي - وهو بحث كبير ممتاز يتناول نظرية الإمامة الاثني عشرية من جميع نواحيها بتزاهة وإخلاص . وقد نشرته دار المعارف بطبعه .

٩ - الأستاذ عنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ( الترجمة العربية عام ١٩٦٦ ) . ولقد خلف الأستاذ كوربان ماسينيون ، في السوربون وتشبه محاولته لتأريخ الشيعة ، محاولة ماسينيون لتأريخ الحلاج . وهو متأثر باتجاهه بلا شك . مع تطبيق مذهب الظواهر . للفيلسوف هيرل في مختلف مباحث الكتاب ، وبخاصة الجزء الخاص بالتشيع . وهو جوهر الكتاب . وفي الكتاب لمحات جميلة ، ولكن هل هي تعبر فعلاً عن تاريخ التشيع ، أم هي آراء المتأخرين من كتاب الشيعة من أمثال حيدر أملي - وغيره ، حاول بنظرة ظواهرية أن يفسر لها نشأة الفكر الفلسفي لدى الشيعة . إن الملاحظات القيمة التي

أوردها الإمام موسى الصدر في مقدمته ، ثم الكثير من ملاحظات الأستاذين المترجمين ، تثبت تلمحاً أن كوربان كان شيعياً أكثر من الشيعة . كان يعانى تجر هو الذاتية خلال ماكتبه الشيعة المتأخرون عن الأئمة ، أو ما حملوه الأئمة من أقوال وآثار لم تصدر عنهم أبداً . وما أبعد هذا عن تاريخ الفلسفة تاريخاً صحيحاً .

تم الجزء الثانى من الكتاب